

أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي

ملاحم عن

# المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس

من تنظيم

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف  
بالتعاون مع ولاية عين الدفلى

دار الثقافة، ولاية عين الدفلى  
8 . 9 . 10 ربيع الثاني 1429 هـ  
14 . 15 . 16 . أبريل 2008 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

كلمة الدكتور بوعبد الله غلام الله  
وزير الشؤون الدينية والأوقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا  
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

فإن الدارس الموضوعي لتاريخ الحضارات وما أفرزته في جوانب  
الحياة المختلفة يدرك أن للأمم الإسلامية إسهاما كبيرا في هذا البنيان  
الحضاري، الذي اتخذ صورا كثيرة صبغت عقيدة الإسلام وأخلاقه  
وشريعته، المبنية على نصوص الشرع ومبادئ العقل، واحترام حقائق الكون  
اليقينية التي تبرز عظمة الخالق ووظيفة المخلوق.

لقد أقبلت العقول النيرات على معين الإسلام الصافي، فأثمرت تراثا  
حضاريا في مناحي الحياة المختلفة، حتى أضحت حضارة الإسلام خلال  
قرون متعاقبة من الزمن هي الحضارة الأولى على وجه البسيطة، وكان من  
مظاهرها ذلك البنيان القانوني والفقهي المؤسس على حقائق العقيدة،  
والمتناغم مع مكارم الأخلاق، للوصول بالإنسان إلى تحقيق رسالته وأداء  
وظيفته في هذه الحياة.

ولا عجب في ذلك، إذا علمنا أن مصدره الأول هو كلمات الله تعالى  
التي أودعها آيات القرآن الكريم، ومصدرها الثاني هو سنة نبيه محمد ﷺ  
الذي قال فيه ربنا : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ (1).

---

(1) سورة النجم/3-4.

هذا، وقد سخر الله تعالى جملة من عباده الراسخين في العلم من ذوي الكفاءات والمؤهلات، وفتح لهم أبوابا من النظر واسعة، ليعملوا فكرهم واجتهادهم في أدلة التشريع على أسس علمية مضبوطة بعيدة عن الأهواء، وأدرك المجتمع الإسلامي عظم هذه المسؤولية، فتخصص أفراد منها إلى البحث والتنقيب ودراسة أوضاع الأمة ومشكلاتها وتحدياتها واهتماماتها، لتجد الحلول لكل ما يستجد من الحوادث والنوازل.

لقد كانت حركية دائبة منذ عهد رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، إلى تلاميذهم من التابعين وأتباع التابعين، ولقد كان فكرا وقادا حرا مستنيرا تكونت منه مدارس لها مناهجها وأسسها وأطرها الفكرية والمعرفية، كان لها توزيع جغرافي أحدثه تفاعل الزمان والمكان.

لقد كان من حلقات هذه السلسلة الذهبية فقه أهل المدينة الذي تأسس في عهد رسول الله ﷺ، حيث احتضنت المدينة المنورة رسول الله ﷺ في مرحلة استقرار التشريع، وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى عمل ورثته من علماء الصحابة على نهجه وطريقته واتباع سنته، وسار على مهيعهم علماء التابعين من أهل المدينة وعلى رأسهم الفقهاء السبعة الذين كانوا يمثلون أقطابا علمية متميزة في المدينة المنورة وفي سائر أمصار العالم الإسلامي.

وشاءت تصارييف القدر أن يتخرج من مسجد رسول الله ﷺ علم فذ من أعلام الإسلام، استطاع بتوفيق من الله ثم باجتهاده الدؤوب وحرصه الكبير أن يستجمع خلاصة ما كان عرفته أجيال المدينة في مجال الفقه والتشريع، حتى نسب المؤرخون مدرسة المدينة إليه، فصارت تسمى "المدرسة المالكية" أو "المذهب المالكي"، ولهذا الظهور والرفعة أسباب تاريخية وموضوعية ليس هذا مجال الحديث عنها.

وسارت بأخباره الركبان وذاع صيته في الآفاق، وتحقق فيه قول الصادق المصدوق عليه السلام «يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْإِبْلِ، يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ»<sup>(1)</sup>، ووصلت آراؤه واجتهاداته وأصوله إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي بفضل تلاميذه الذين انتقلوا من شتى البقاع للأخذ من علمه وأدبه وخلقه.

وما يزال فقه الإمام مالك ومذهبه يشغل الناس وينير دروبهم إلى الآن، ولعمري إن هذا الملتقى العلمي الذي دأبت ولاية عين الدفلى المضيافة أن تنظمه كل سنة لمظهر من مظاهر هذا التواصل والاهتمام، وإذا كان الحديث في العدد السابق عام 1428هـ، مخصصا لاستجلاء زوايا من تاريخ المدرسة المالكية في مرحلة التأسيس، فقد جاءت طبعة هذه السنة لتسلط الضوء على زوايا أخرى في المراحل الأخرى المتعاقبة.

إن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن يفیه حقه ملقى واحد أو ملتقيات متعددة، ولكن هذه الحلقة العلمية المباركة جاءت وفق نظرة الأساتذة الباحثين لتعالج بعض النقاط انطلاقا من دائرة اهتمامهم البحثية وتطلعاتهم المعرفية، فغني الأساتذة الأفاضل بالتعريف بالمدارس الفقهية المالكية المختلفة، كالمدرسة المصرية، والعراقية، والمغربية، ببيان خصائصها وميزاتها والقيم المضافة التي أعطتها للفقه المالكي خصوصا والفقه الإسلامي عموما، والتعريف ببعض أعلامها

---

(1) أخرجه الإمام أحمد رقم 7967، والترمذي رقم 2680، وقال: هذا حديث حسن، وابن حبان رقم 3736، والحاكم في المستدرک رقم 307، 308.

البارزين، مع التركيز على ذلك الامتداد الطبيعي للفقهاء المالكي ورحلته حتى وصل إلى أرض المغرب العربي الإسلامي وطاب له الاستقرار بأرضه الطيبة، كما تعرضت إلى بعض الآثار التي تركها الفقهاء المالكي في الجزائر خاصة، ويظهر ذلك في صورة الثروة المعرفية التي احتفظت بها المكتبة الوطنية الجزائرية من مخطوطات الفقهاء المالكي، ويظهر في صورة أخرى أنتجتها الحقبة الاستعمارية لأرض الجزائر، إذ كتب المستشرقون خلالها دراسات عديدة، منها تلك التي عنت بالعرف والعمل في منطقة زواوة وعلاقة ذلك بالمذهب المالكي.

إن طرح هذه الموضوعات وغيرها بشكل علمي أكاديمي موضوعي، في جو من النقاش العلمي البناء، من شأنه أن يشكل مددا علميا لتثبيت المرجعية الفقهية للمجتمع الجزائري بالوسائل الحضارية التي تقوي الأفكار وتزيدها رسوخا وتمكيناً، حتى تقر عين الجزائر وهي ترى أبناءها اليوم في صورة «خير خلف لخير سلف».



## كلمة السيد والي ولاية عين الدفلى

السيد عبد القادر قاضي

قرأها مدير الشؤون الدينية والأوقاف لولاية عين الدفلى السيد جلول حجار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم  
بإحسان إلى يوم الدين...

السيد ممثل معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف.

معالي السادة الوزراء.

السادة نواب المجلس بالغرفتين الأولى والثانية.

السادة الولاية.

السادة رؤساء المجالس الشعبية الولائية.

السادة إدارات الجيش والأمن.

السيد النائب العام والسيد رئيس مجلس قضا الشلف.

السادة الأساتذة وضيوف الشرف وشيوخ الزوايا.

أبناءنا الطلبة.

السادة الأئمة.

السادة رجال الإعلام.

السيدات والسادة الحضور.

السلام عليكم ورحمة الله،

تغمرني الفرحة وتكلؤني المسرة وأنا أعتلي هذا المنبر في أسعد  
اللحظات وأبهج الأوقات لأعبر لسيادتكم باسم السيد والي ولاية عين الدفلى

عن أسمى عبارات الترحيب، وأعرب لحضراتكم عن أبلغ معاني الشكر وآيات التقدير على استجابتكم الكريمة للمشاركة في الطبعة الرابعة للمذهب المالكي الذي حظيت ولاية عين الدفلى بشرف احتضانه تحت مظلة الأسبوع الوطني للقرآن الكريم، برعاية سامية لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة لأربع سنوات متتالية، ونتمنى له الدوام والاستمرار.

وجاء تنظيم هذا الملتقى لهذه السنة بعد أن عاشت الأمة الإسلامية أحلى أيامها وأزكى أوقاتها وهي تبتهج فرحا باحتفالاتها المخدلة لذكرى ميلاد نبي الرحمة سيدنا محمد ﷺ، الذي كانت بعثته ميلادا للحق في أبهى صورته وأزهى أشعته، وكان شروق هذا الحق إيذانا بزوال الحيرة السائدة والشقاء المخيم، فأضفى على الحياة ستر الأمان، ورفع في الناس لواء العدل والسلام.

فقد أسس النبي ﷺ دعوته على فضائل الأخلاق وصحيح الاعتقاد، فكون بذلك جيلا نقيا من الطراز الرفيع للبشرية، هبط على الدنيا وهي ملوثة بركام من الدجل والسخف، فكان سيلا مطهرا غسل أرجاءها من رواسب الإثم والعدوان ساسوا الدنيا بقيم الإسلام وقادوا الأمة وفق تعاليم القرآن، كانوا نماذج للفضيلة وجهابذ للعلم، أساس منطلقهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَهُوَ الْحَكِيمُ وَالنَّاتِقُ﴾ (1).

أيها السادة العلماء، لقد كان العلم ولا يزال وسيظل ملتقى العقول السليمة والفطر القويمة ما أخطأ منهجه فكرٌ ثاقبٌ، ولا ضل صراطه طبعٌ سليم.

وإنه مهما اتسعت أماده وامتدت أبعاده وترادفت كشوفه فلن يجيء صدق الوحي ويدعم الإيمان ويمكن لهداية الرحمن، فعلموم الدنيا مساوية

(1) سورة الجمعة/2.



لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجلية حقائقه وصدق الله إذ يقول:  
﴿ سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (1).

ولذلك لما نزلت أول آية من كتاب الله، وهي تأمر بالقراءة والتعليم  
ربطت ذلك باسم الخالق حتى ندرك مدى علاقة العلم بالإيمان قال تعالى  
﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ﴾ (2).

ومن هذا الاستبيان القرآني لأهمية العلم جعلت الجزائر من أيام  
تاريخها يوماً للعلم وهو 16 أفريل تتوقف عنده كل سنة لتخلد ذكرى وفاة  
العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمته الله الذي كانت صحبته ومن سبقه  
ولحقه من العلماء شهباً بددت ظلمات الجهل والغفلة والضلال، وأنارت  
سبيل الإسلام، فاستنهض الهمم النائمة، وشحذ العزائم المغلوبة، واستطاع  
بفكره الثاقب وعلمه الغزير أن يذكي جذوة الجهاد في قلوب الشعب  
الجزائري، فهبوا لنصرة دينه والذود عن وطنه، كان شغفهم بالشهادة منقطع  
النظير، فتحقق النصر وكان الاستقلال.

غير أن القدر كان يخبئ لنا ملهم نكن نتوقع فحل بنا ما يحزن الصديق  
ويفرح العدو فشاء أن تبتلّى الجزائر سنوات في أمنها واستقرارها، واشتدت  
عليها وطأة الأعداء وتنكر لها الأصدقاء وخلت أجواؤها للمرجفين وتنادت  
في أرجائه نواعق الانحراف المروق عن الوطنية

عند ذلك قيظ الله للجزائر من أبنائها البررة من سهروا على وقف  
الفتنة بتعطيل أسبابها والحد من عوامل الخصام فكانت المصالحة الوطنية  
واقعا مفروضاً التف حولها الشعب وترجمها إلى سلوك، وها هي الجزائر  
اليوم ترفل في حلال الأمن وتزهو في كنف الاستقرار، وتنبؤاً مكانتها التي  
تليق بها كدولة مجاهدة.

(1) سورة فصلت/53.

(2) سورة العلق/1 - 2.

أيها السادة العلماء إنكم مسؤولون دينيا وفكريا على توجيه المجتمعات وبناء عقلياتهم وتوفير المناخ التربوي الذي يضمن للأمة سعادتها ويعزز أواصر الأخوة بين أفرادها يأخذون من الوحي بلباقة ما يشفي علل الناس ويصلح بالهم، ولا يتحقق ذلك إلا إذا تصدر للفتوى أصحابها، وتقدم للإمامة رجالها، لأن معرفة أحكام الإسلام تحتاج ألبابا حصيفة، وعقولا واعية وخصوصا في زمننا هذا الذي عجز بالمسائل المتباينة، ولا بد للإسلام أن يقول كلمته، وهو أقدر على أن يقولها لقوله تعالى: ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(1)</sup>.

وأعتقد جازما أن مثل هذه الملتقيات العلمية ستساهم بشكل كبير في إيجاد الحلول لكثير من المسائل، وتوصد الأبواب أمام الاجتهادات الصيبانية، ومعرفة ما يتميز به المذهب المالكي من تفتح ومرونة بفضل المنهج العلمي المتأصل في أتباعه الذين كانوا يكرهون التعصب الأرعن ويعتبرونه قصور فهم، لأنهم يطبقون القاعدة الذهبية إمام دار الهجرة: «كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر».

وعلى ضوء هذه القاعدة بنى المالكية أصول فقهم وأسسوا مدارس تتسع للرأي المخالف وتقبل وجهة النظر الأخرى، مما ساعد المذهب على التوسع والانتشار كما سنعرف من خلال مداخلات الأساتذة الكرام خصوصا بعد مرحلة التأسيس التي هي عنوان ملتقانا هذه السنة.

وفي الأخير أجدد لكم الترحاب في ولاية القرآن ونتمنى لكم إقامة طيبة بيننا وكل النجاح لأشغال هذا الملتقى.

المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، تحيا الجزائر

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

(1) سورة الأنعام/38.

# مدرسة العراق المالكية

## النشأة والخصائص

الدكتور محمد عيسى

مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني

المدرسة في الاصطلاح تطلق على مجموعة من المفاهيم منها: كون المدرسة مجموعة المفكرين المنتمين لنفس الاتجاه أو نفس الأمة أو نفس المدينة.

والمقصود بها في هذه الدراسة مجموع الفقهاء المشتركين في الخصائص الفقهية، منسوبين إلى الجهة التي اشتهرت بهذه المبادئ والأسس والمميزات بفعل وجود هؤلاء الفقهاء بها: مؤسسين ومنتمين.

وقد تطلق على المدرسة تسمية طريق، فنقول: المدرسة الفقهية أو الطريق الفقهي، ونسبه إلى جهة النشوء أو الوجود فنقول مدرسة المدنيين، أو طريق المدنيين. كما يطلق على المدرسة أيضا إطلاق "الاصطلاح".

فالمدرسة على هذا الأساس أخص من المذهب الفقهي الذي يراد به عند أصحاب الاصطلاح «ما ذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية استنتاجا واستنباطا»<sup>(1)</sup>.

وإذا كان المذهب الذي تنصب هذه الدراسة عليه هو المذهب المالكي فما هي أهم مدارسها؟ وما هي أهم خصائصها؟ وما موقع المدرسة العراقية من المدرسة المغربية؟

---

(1) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي: عمر الجيدي. ص.7.

## أولاً: نشأة المدارس الفقهية المالكية عموماً

أشار المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون<sup>(1)</sup> في [مقدمته] إلى تاريخ هذا النشوء، فقال:

«وتميّزت للمذهب المالكي ثلاث طرق:

. للقيروان وكبيرهم سحنون<sup>(2)</sup> الآخذ عن ابن القاسم<sup>(3)</sup>.

---

(1) هو أبو زيد، ولي الدين، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الحضرمي، الإشبيلي أصلاً، التونسي مولداً. فيلسوف ومؤرخ وعالم اجتماع. رحل إلى فاس وقرطبة وتلمسان والأندلس ومصر. اشتهر بكتابه: [العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر] وما حواه من مقدمة نفيسة. توفي بالقاهرة سنة 807هـ وقيل 808هـ. [انظر ترجمته مفصلة في: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن محمد مخلوف. ص.ص. 227. 228، تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم محمد الحفناوي. ج2/ص.ص. 221. 223، الأعلام، خير الدين الزركلي: 3/330].

(2) هو أبو سعيد عبد السلام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني، أصله من حمص ومولده بالقيروان سنة 160هـ، كان فقيهاً حافظاً، أبي النفس. أخذ عن أعلام منهم: عبد الرحمن بن القاسم، وأخذ عنه نحو سبعمائة (700) تلميذ منهم: ابنه محمد، ومحمد بن عبدوس، وجبلية، وحمديس القطان، وسعيد بن الحداد. روى [المدونة] عن ابن القاسم عن الإمام مالك. قَبِلَ ولاية القضاء دون ارتزاق، فعدل. ومات وهو يتولاه في رجب 240هـ. [انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء: 156، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي أبو الفضل عياض: مج1/ص.ص. 585. 626، وفيات الأعيان: 2/180. 182، العبر: 1/340، الديباج: 263. 268، شجرة النور: 69. 70، تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان: ج3/ص.ص. 280. 284، تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين: ج2/ص.ص. 138. 143، الأعلام: 5/4].

(3) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العُتقي. فقيه مالكي مرموق. تفقه بالإمام مالك وأصحابه. مولده في سنة 133هـ وقيل 128هـ. ووفاته في 191هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 1/433، وفيات الأعيان: 3/129. 130، الديباج المذهب: 239. 240، شذرات الذهب: 1/329، شجرة النور: 270].

- وللقرطبيين وكبيرهم ابن حبيب<sup>(1)</sup> الآخذ عن الإمام مالك...

- وللعراقيين وكبيرهم القاضي إسماعيل<sup>(2)</sup> وأصحابه<sup>(3)</sup>.

فتحصّل لدينا وجود ثلاث مدارس فقهية متفرعة عن المذهب المالكي، كلها منسوبة إلى جهات جغرافية:

**الأولى: مدرسة القيروان:** وهي مدرسة المغرب عموماً، نشأت وفق الأسس التي وضعها لها الإمام سحنون عبد السلام بن سعيد التنوخي، ونسبت المدرسة إليه وإن كان مسبقاً إلى إدخال المذهب المالكي

---

(1) هو أبو مروان، عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جناهمة بن عباس بن مرداس السلمي القرطبي البيري، انتهت إليه رئاسة الأندلس بعد يحيى بن يحيى. روى عن علماء أعلام أمثال: زياد بن عبد الرحمن، وسمع ابن الماجشون ومطرفاً وأصبع وغيرهم. سمع منه جماعة منهم: ابنه محمد وعبد الله، وتقي الدين بن مخلد، وابن وضاح، والمغامي. له مؤلفات منها: [الواضحة] في الفقه والسنن، و[كتاب في غريب الحديث]، و[كتاب في تفسير الموطأ]، و[كتاب الفرائض]. توفي سنة 238هـ. [انظر ترجمته في: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس: الحميدي: مج2/ج7/ص.ص. 447 - 449، ترتيب المدارك: 30/2 - 48، بغية الملمتس في تاريخ رجال أهل الأندلس: الضبي: ج2/ص.ص. 490 - 492، العبر: 336/1، الديباج المذهب: 252 - 256، كشف الظنون: 502/5، شذرات الذهب: 90/2، شجرة النور: 74 - 75، معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة: مج2/ص.ص. 316 - 317].

(2) هو أبو إسحاق، إسماعيل بن إسحاق بن حماد البغدادي، مولده سنة: 200هـ. أخذ القراءة على قالون. سمع من أعلام منهم: أبوه، وابن المديني. وتفقه بأبي الفضل بن المعذل البصري. روى عنه جماعة منهم: عبد الله بن أحمد بن حنبل، والبغوي، وابن الأنباري، وتفقه به جماعة منهم: ابن المتتاب، وأبو الفرج القاضي، وابن مجاهد، وبه تفقه المالكية من أهل العراق، وانتشر هناك المذهب. له مؤلفات منها: [موطؤه]، و[أحكام القرآن]، و[المبسوط] في الفقه، و[شواهد الموطأ]، و[كتاب الأصول]. توفي سنة 284هـ وقيل سنة 282هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 168/2 - 181، الديباج المذهب: 151 - 155، شذرات الذهب: 178/2، شجرة النور: 65 - 66، الأعلام: 310/1].

(3) المقدمة لتاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون: مج2/ص.ص. 547.

للمغرب الإسلامي بفظاحل أمثال: البهلول بن راشد<sup>(1)</sup>، وعلي بن زياد<sup>(2)</sup>، وأبي مسعود بن أشرس<sup>(3)</sup>، وعبد الله بن فروخ<sup>(4)</sup>، وأسد بن الفرات<sup>(5)</sup> وغيرهم.

(1) هو أبو عمرو، البهلول بن راشد، الحجري الرعيني. من الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك. مولده سنة: 228هـ. كان ذا علم واجتهاد ودين. أخذ عن الإمام مالك وعن غيره. وأخذ عنه الإمام سحنون. توفي سنة 282هـ وقيل 283هـ. [انظر ترجمته في: طبقات علماء إفريقية وتونس: أبو العرب القيرواني: ص. 126، ترتيب المدارك: 330/1، الديباج المذهب: 166، شجرة النور: 60، الأعلام: 77/2].

(2) هو أبو الحسن، علي بن زياد التونسي العبسي، برع في الفقه، وسمع عن الإمام مالك وغيره. روى الموطأ عنه. سمع منه البهلول بن راشد. وهو معلم سحنون الفقه. وفاته في سنة: 283هـ. [انظر ترجمته في: طبقات أبي العرب: 220 - 223، ترتيب المدارك: 326/1 - 328، الديباج المذهب: 292، شجرة النور: 60، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: محمد بن الحسن الحجوي: مج 1/ص. 521، الأعلام: 289/4].

(3) هو عبد الرحيم بن أشرس، وقيل اسمه العباس، وقيل عبد الرحمن. سمع من الإمام مالك. وروى عنه ابن القاسم. كان حافظاً. روى عن الإمام مالك وعن غيره. [انظر ترجمته في: طبقات أبي العرب: 223، ترتيب المدارك: 329/1 - 330، الديباج المذهب: 250].

(4) هو عبد الله بن فرّوخ الفارسي، من شيوخ أهل إفريقية. رحل في طلب العلم في كبره، فلقني الإمام مالك وغيره. كان يكتب الإمام مالكا فيرد بجواب مسائله. توفي سنة 176هـ. [انظر ترجمته في: طبقات أبي العرب: 107 - 111، علماء إفريقية: أبو عبد الله بن حارث بن أسد الخشني. مطبوع مع قضاة قرطبة، له: ص. 304، ترتيب المدارك: 339/1 - 346].

(5) هو أبو عبد الله، أسد بن الفرات بن سنان، من نيسابور، مولده سنة 145هـ. سمع من الإمام مالك [الموطأ]. وروى عن ابن القاسم [الأسدية]، فكان مرجع الفقه المالكي بالمغرب قبل أن تنسخها [مدونة سحنون]، ذهب إلى العراق فأخذ عنه أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رواية [الموطأ]. وتفقه هو بأصحابه. توفي سنة 213هـ وقيل 214هـ وقيل 217هـ بصقلية في حصار سرقوسة. كان أمير الجيش فيها، وقاضيه. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 465/1 - 480، الديباج المذهب: 161 - 162، شجرة النور: 62، الأعلام: 298/1].

الثانية: مدرسة العراق: وهي مدرسة المشرق كذلك، نشأت وفق الأسس والمبادئ التي وضعها لها القاضي إسماعيل، وإن كان حتى هو مسبقاً إلى إدخال المذهب إلى العراق بأمثال: عبد الله بن المبارك<sup>(1)</sup>، وعبد الرحمن بن مهدي<sup>(2)</sup>.

الثالثة: مدرسة قرطبة: وهي مدرسة الأندلس، نشأت وفق المبادئ والأسس المنهجية التي وضعها عبد الملك بن حبيب الآخذ عن مطرف<sup>(3)</sup> وابن الماجشون<sup>(4)</sup> وأصبغ<sup>(5)</sup> فضلاً عن الإمام مالك بن أنس.

(1) هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن المبارك، مولي بني تميم، ثم لبني حنيفة، مروزي الأصل. مولده في سنة 118هـ. تفقه بالإمام مالك وتمذهب به بعد أن كان حنفيًا. توفي غريفا سنة 181هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 300/1 - 309، وفيات الأعيان: 32/3 - 33، الديباج المذهب: 212 - 213، شذرات الذهب: 295/1، شجرة النور: 75، الأعلام: 115/4].

(2) هو أبو سعيد، عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، مولده سنة 136هـ. سمع من أعلام منهم الإمام مالك بن أنس ولازمه. روى عنه ابن وهب وغيره، وأخرج عنه البخاري ومسلم. توفي بالبصرة سنة 198هـ وهو ابن 63 سنة. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 399/1 - 404، الديباج المذهب: 238 - 239، شذرات الذهب: 355/1، شجرة النور: 58 و92].

(3) هو أبو مصعب، مطرف بن عبد الله بن مطرف بن سليمان بن يسار الهلالي، وهو ابن أخت الإمام مالك. كان أصمًا. روى عن الإمام مالك وبه تفقه وروى وتفقه بغيره. صحبه سبعة عشرة سنة. وفاته في 220هـ بالمدينة المنورة عن بضع وثمانين سنة. [انظر ترجمته في: الديباج المذهب: 424، شجرة النور: ص. 57].

(4) هو أبو مروان، عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة (ميمون) الماجشون، القرشي، التيمي، المنكدري، وسمي بالماجشون لحمرة في وجهه. فقيه مالكي شهير. كان أعمى. تفقه بالإمام مالك بن أنس. وتفقه به خلق كثير، منهم ابن حبيب، وسحنون. وفاته سنة 213هـ، وقيل 212هـ، وقيل 214هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 360/1 - 365، وفيات الأعيان: 166/3 - 167، الديباج المذهب: 251 - 252، شجرة النور: 56، الأعلام: 160/4].

(5) هو أبو عبد الله، أصبغ بن الفرغ بن سعيد بن نافع. فقيه مالكي مصري. تفقه بابن القاسم وابن وهب وأشهب. كان كاتب ابن وهب. وفاته في 225هـ وقيل 226هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 561/1 - 565، وفيات الأعيان: 240/1، العبر: 309/1، الديباج المذهب: 158 - 159، شذرات الذهب: 56/2، شجرة النور: 66].

والحقيقة أنه توجد مدارس فقهية أخرى غير هذه، فقد عرف تاريخ الفقه الإسلامي المالكي: مدرسة الحجاز، ومدرسة الشام، ومدرسة مصر. بل إن مدرسة الحجاز هي أولى المدارس لنشوء المذهب بها، وثانيها مدرسة مصر فجّل أصحاب الإمام مالك رحمه الله كانوا من المصريين، حتى اشتهر المذهب بها لما أفل بالحجاز موطنه الأول.

ومن مصر أخذ فقهاء المغرب الفقه المالكي، وبرجاله تفقه جلّ فقهاء المغرب لاعتبارات أهمّها أن مصر هي طريق المغاربة لأداء فريضة الحج، فكانوا يمرون بها ويتصلون بعلمائها، وربما استقروا بها ولم يكملوا الرحلة إلى الحجاز كما حصل للإمام سحنون الذي حال الفقر دون اتصاله بالإمام مالك في رحلته الأولى إلى المشرق سنة 188هـ، فاستقر عند ابن القاسم بمصر يتفقه به، ويدوّن المذهب عنه<sup>(1)</sup>.

ولقد اندثرت المدرسة المصرية، ولم تبعث من جديد كمدرسة ذات زيادة إلا بعد تزاوجها بالمدرسة العراقية لما هاجر القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي<sup>(2)</sup> إليها، كما تزاوجت مجددا بالمدرسة الأندلسية فالمغربية في فترة لاحقة عن هذه.

قال عبد الرحمن بن خلدون: «وأن القاضي عبد الوهاب انتقل إليها من بغداد آخر المائة الرابعة وأخذ أهلها عنه. وكانت للطريقة المالكية

---

(1) ترتيب المدارك: 586/1 - 587.

(2) هو أبو محمّد، عبد الوهاب بن علي بن نصر بن أحمد بن الحسين بن هارون بن مالك بن طوق بن عتاب التُّغَلبي البغدادي. فقيه متميز، ما أهله لترأس المذهب المالكي في وقته، باعث المذهب بمصر بعد أن نضب، من مؤلفاته اختصار عيون الأدلة. الأدلة في مسائل الخلاف، الإفادة في أصول الفقه، توفي في 422هـ. انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 691/2، العبر: 248/2. وفيات الأعيان: 222/3. تاريخ التراث العربي: 161/2، وشجرة النور: 104.



بمصر من لدن الحارث بن مسكين<sup>(1)</sup>، وابن ميسر<sup>(2)</sup>...، وكانت خافية بسبب ظهور الرافضة وفقه أهل البيت... ورحل أبو بكر الطرطوشي من الأندلس في المائة السادسة، ونزل البيت المقدس وأوطنه، وأخذ عنه أهل مصر والإسكندرية، ومزجوا طريقتهم الأندلسية بطريقتهم المصرية... وتلخصت طرق هؤلاء المصريين ممتزجة بطرق المغاربة<sup>(3)</sup>.

ثانياً: نشأة المدرسة العراقية: انتقل المذهب المالكي إلى العراق أول ما انتقل عن طريق أبي أيوب سليمان بن بلال قاضي بغداد<sup>(4)</sup>، وأبي عبد الرحمن عبد الله ابن المبارك، وأبي سعيد عبد الرحمن بن مهدي العنبري البصري المحدث<sup>(5)</sup>،

---

(1) هو أبو عمرو، الحارث بن مسكين بن محمد بن يونس. مولده في 154هـ وقيل 156هـ. سمع من ابن القاسم، وابن وهب وأشهب وبهم تفقه. له كتاب فيما اتفق عليه رأيهم الثلاثة ورأي الليث. حدّث ببغداد وبمصر، روى عنه أبو داود، والنسائي، وغيرهما. تولى القضاء في مصر فعدل. توفي سنة 250هـ. [انظر ترجمته في: الديباج المذهب: 177، شذرات الذهب: 121/2، شجرة النور: 67].

(2) هو أبو بكر، أحمد بن محمد بن خالد بن ميسر، إسكندراني، يروي عن محمد بن المواز وغيره. انتهت إليه رئاسة المذهب بمصر بعد ابن المواز. تفقه عليه، وروى كتبه. له كتاب [الإقرار والإنكار]. روى عنه ابن مجلون، وأبو هارون العمري. توفي سنة 339هـ. [انظر ترجمته في: الديباج المذهب: 97، شجرة النور: 80].

(3) مقدمة ابن خلدون: 547/2 - 548.

(4) هو أبو أيوب، سليمان بن بلال. سمع يحيى بن سعيد، وزيد بن اسلم، وغيرهما. روى عنه ابن وهب، وأشهب، وابن القاسم، وغيرهم. خرّج عليه البخاري ومسلم. من أجل أصحاب الإمام مالك، ويعد من الطبقة التي تليه بالمدينة. ولي القضاء ببغداد. توفي قبل وفاة الإمام مالك بثلاث سنين في 176هـ. [انظر ترجمته في: الديباج المذهب: 195، شجرة النور: 55].

(5) هو أبو سعيد، عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، مولده سنة 136هـ. سمع من أعلام منهم الإمام مالك بن أنس ولازمه. روى عنه ابن وهب وغيره، وأخرج عنه البخاري ومسلم. توفي بالبصرة سنة 198هـ وهو ابن 63 سنة. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 399/1 - 404، الديباج المذهب: 238 - 239، شذرات الذهب: 355/1، شجرة النور: 58 و92].

وأبي العباس الوليد بن مسلم بن السائب الدمشقي<sup>(1)</sup>، وأبي زكرياء يحيى ابن يحيى بن بكير التميمي النيسابوري<sup>(2)</sup>.

فهؤلاء تلاميذ الإمام مالك بن أنس رحمهم الله الذين عرفوا المذهب أولاً وأدخلوه إلى العراق، غير أن المذهب المالكي بالعراق عرف بداية انتشاره الحقيقي على أيام أسرة الإمام حماد<sup>(3)</sup> وخاصة القاضي أبا إسحاق إسماعيل بن إسحاق.

فالقاضي إسماعيل هو شيخ القاضي أبي بكر الأبهري<sup>(4)</sup>

---

(1) هو أبو العباس، الوليد بن مسلم بن السائب الدمشقي، مولى بني أمية. مولده في 119هـ. فقيه مالكي مرموق. روى الموطأ عن الإمام مالك، وكثيراً من المسائل والحديث، كما روى عن غيره. وروى عنه إسحاق بن راهويه وجماعة. خرّج عنه البخاري ومسلم. وفاته في 199هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 415/1. 416. شجرة النور: 58].

(2) هو أبو زكرياء، يحيى بن يحيى بن بكير بن عبد الرحمن التميمي، مولى بني منقر بن سعد بن سعد بن عمرو بن تميم النيسابوري. قرأ على مالك الموطأ ولازمه. وهو معدود في أصحابه. وروى عن الليث وابن عيينة وغيرهما. توفي سنة 226هـ. قال عنه ابن راهويه: «ما رأيت مثل يحيى بن يحيى، ولا أحسبه رأى مثل نفسه». [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 407/1. 409. العبر: 312/1، الديباج المذهب: 430، شذرات الذهب: 19/2، شجرة النور: 58].

(3) انظر دور أسرة الإمام حماد بن زيد في نشر المذهب المالكي بالعراق في: ترتيب المدارك: 166/2. 168، الديباج المذهب: 151.

(4) هو أبو بكر، محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري، مولده قبل 290هـ. كان ثقة مشهوراً، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي ببغداد. انتشر عنه مذهب مالك في البلاد. تفقه بجماعة منهم: القاضي أبي عمر، وابنه أبي الحسن، وأخذ عن أبي الفرج، وأبي الحسن عبيد الله بن المنتاب، وابن بكير. وسمع من أبي بكر بن الجهم المعروف بابن الوراق المروزي. حدّث عنه جماعة منهم: أبو بكر الباقلاني، والقاضي عبد الوهاب. وخرج عنه جماعة من الأئمة كأبي جعفر الأبهري، وابن الجلاب، والقاضي ابن القصار، وأبي محمد الأصيلي، وابن خوزيمنداد، وأبي عمر بن سعدي. استجازه القاضي عبد الوهاب فأجازته. له مؤلفات كثيرة منها: [شرح المختصر الكبير والصغير لابن عبد الحكم]، وكتاب [الأصول]، وكتاب [إجماع أهل المدينة]، وكتاب [الأمالي] في الحديث وكتاب [العوالي] أيضاً. =

صاحب الفضل في قوة المذهب المالكي بالعراق بما خرّج من علماء أعلام من أمثال أبي بكر الباقلاني<sup>(1)</sup>، والقاضي عبد الوهاب، وأبي جعفر الأبهري<sup>(2)</sup>، وابن الجلاب<sup>(3)</sup>،

= له شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني سَمّاه: [مسلك الجلالة في مسند الرسالة]، تتبع فيه جميع مسائلها الأربعة آلاف فرفع لفظها ومعناها إلى رسول الله ﷺ أو إلى أصحابه رضي الله عنهم. توفي في شوال سنة 375هـ. [انظر ترجمته في: فهرست ابن النديم: 249، طبقات الفقهاء: 167، ترتيب المدارك: 466/2 . 473، العبر: 146/2، الديباج المذهب: 351، كشف الظنون: 41/6، شذرات الذهب: 85/3 . 86، شجرة النور: 91، تاريخ التراث العربي: 153/2 . 154، معجم المؤلفين: 455/3، الأعلام: 225/6، مقدمة غرر المقالة: 43].

(1) هو القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني، مولده بالبصرة، وسكن بغداد. انتهت إليه رئاسة المالكيين بالعراق. أخذ العلم عن أعلام منهم: أبو عبد الله بن مجاهد البغدادي، وأبو بكر الأبهري. وأخذ العلم عنه جماعة منهم: أبو ذر الهروي، وأبو عمران الفاسي. والقاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي. له مؤلفات منها: [عجاز القرآن]، و[الإنصاف]، و[أمالي إجماع أهل المدينة]، و[التعريف والإرشاد في أصول الفقه]، و[المقنع في أصول الفقه]، و[حقائق الكلام]. توفي ببغداد في شهر ذي القعدة سنة 403هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 585/2 . 602، العبر: 207/2، الديباج المذهب: 363، شذرات الذهب: 167/3، شجرة النور: 92 . 93، تاريخ الأدب العربي: 50/4 . 52، تاريخ التراث العربي: 384/2 . 387، الأعلام: 176/6].

(2) هو أبو جعفر، محمد بن عبد الله الأبهري، ويعرف بالأبهري الصغير، وبالوتلي، وبابن الخصاص. تفقه بأبي بكر الأبهري، وسمع من ابن زيد المروزي. روى عنه جماعة منهم الأصيلي. له كتاب كبير في [مسائل الخلاف]، وكتاب [تعليق المختصر الكبير]، وكتاب في [الردّ على ابن عليّة فيما أنكره على مالك]. توفي في حياة شيخه أبي بكر الأبهري سنة 365هـ. [انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: 603/2، الديباج المذهب: 362، شجرة النور: 91].

(3) من أهل العراق، إمام فقيه أصولي، حافظ. تفقه بجملة منهم أبو بكر الأبهري. وتفقه به جماعة منهم القاضي عبد الوهاب بن نصر. من مؤلفاته: [تفريع الفقه المالكي]، و[شرح المدونة]، و[كتاب في مسائل الخلاف]. توفي سنة 378هـ، وهو منصرف من الحج. [انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء: 168، ترتيب المدارك: 605/2، العبر: 153/2، الديباج المذهب: 237، كشف الظنون: 520/5، شذرات الذهب: 93/3، شجرة النور:

والقاضي ابن القصار<sup>(1)</sup>، وأبي محمد الأصيلي<sup>(2)</sup>، وابن خويز منداد<sup>(3)</sup>،  
وأبي عمر بن سعدي<sup>(4)</sup>، فقد عكفوا على المذهب بتدوين مسائله وشرح  
أمهاته وخاصة [مدونة] الإمام سحنون بن سعيد المغربي.

92، معجم المؤلفين: 351/2، تاريخ الأدب العربي: 285/3 . 286، تاريخ التراث  
العربي: 153/2 . 154، الأعلام: 193/4].

(1) إمام فقيه، وأصولي حافظ نظار. تولى القضاء ببغداد. تفقه بأبي بكر الأبهري وغيره. وتفقه به  
القاضي عبد الوهاب، وأبو ذر الهروي، ومحمد بن عمرو، وغيرهم. من مؤلفاته: [عيون  
الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار]، و[مقدمة في أصول الفقه]. توفي في 378هـ  
وقيل في 398هـ. [انظر ترجمته في: طبقات الفقهاء: 168، ترتيب المدارك: 602/2، العبر:  
190/2 . 191، الديباج المذهب: 296، كشف الظنون: 548/5، شذرات الذهب: 149/3،  
شجرة النور: 92، معجم المؤلفين: 391/2، تاريخ التراث العربي: 161/2].

(2) هو القاضي أبو محمد، عبد الله بن إبراهيم الأصيلي، رئيس علماء الأندلس. تفقه  
باللؤلؤي. وأبي إبراهيم بن مسرة. وسمع من القاضي ابن السليم. رحل إلى المشرق مع  
أبي ميمونة درّاس، وأبي الحسن القاسبي، ولقي شيوخ إفريقية ومصر والحجاز والعراق  
كأبي العباس الإيباني، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القُرظي وغيرهم. وحجّ سنة  
353هـ ولقي أبا زيد المروزي وسمع منه صحيح البخاري عن القُرظي عن مؤلفه. وسمع  
من ابن القطان أبي أحمد الجرجاني وأبي القاسم حمزة بن محمد الحافظ تلميذ أبي عبد  
الرحمن النسائي. ومن الحسن بن رشيّق وأبي بكر الأبهري وأخذ عنه. وحدث عن  
الدارقطني والدارقطني حدث عنه. وسمع قاضي المدينة عبد الملك المالكي. أقام  
بالمشرق نحو 13 عاماً ورجع للأندلس. وأخذ عنه جلة منهم عبد الرحيم بن العجوز،  
وابن الحذاء ولازمه، وابن أبي صفرة. ألف كتاب [الدلائل إلى أمهات المسائل] شرح به  
[الموطأ] ذكرا فيه خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي. توفي في شهر ذي الحجة من سنة  
392هـ. [انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: 400/6/1 . 401، بغية الملتبس: 440/2 .  
441، العبر: 183/2، الديباج المذهب: 224 . 225، شذرات الذهب: 140/3، شجرة  
النور: 100 . 101، معجم المؤلفين: 220/2، الأعلام: 63/4].

(3) هو أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عبد الله بن خويز منداد. تفقه بأبي بكر الأبهري وهو من  
كبار أصحابه، وأبي بكر بن علويه، وغيرهما، وسمع من أبي زيد المروزي. له كتاب معتمد  
في [الخلاف]، وكتاب في [أصول الفقه]، وفي [أحكام القرآن]، وعنه شواذ عن الإمام مالك،  
وله اختيارات، قيل عنه: لم يكن بالجيد النظر، ولا قوي الفقه. [انظر ترجمته في: الديباج  
المذهب: 363 . 364، شجرة النور: 103، معجم المؤلفين: 75/3].

(4) هو أبو عمر، أحمد بن محمد بن سعدي الإشبيلي المهدوي. رحل للمشرق وأخذ عن أعلام  
منهم: أبو بكر الأبهري. حدث عنه جماعة منهم: أبو عمر الطلمنكي، وأجاز أبا القاسم حاتما

ثالثاً: أفول المدرسة العراقية: لم يصمد المذهب المالكي بالعراق وسرعان ما ضعف وكاد يندثر، إلى أن اندمج في المدرسة المغربية كما سيأتي في محلّه، ويرجع المؤرخون سبب ضعف المذهب المالكي بالعراق لاعتبارات أهمها:

1 . خروج المالكية من القضاء ومن المناصب العامّة: بسبب الصراع الذي كان بينهم وبين الشافعية. وقد امتنع أبو بكر الأبهري أولاً عن تولي القضاء، ووصف القاضي عياض هذا الوضع في [مداركه] فقال: «سئل الأبهري أن يلي القضاء ببغداد، فامتنع... وبعد موت الأبهري، وكبار أصحابه لتلاحقهم. وخروج القضاء عنهم إلى غيرهم من مذهب الشافعي، وأبي حنيفة. ضعف مذهب مالك بالعراق. وقلّ طلبه لاتباع الناس أهل الرئاسة، والظهور»<sup>(1)</sup>.

وبعد هذا اعتزل القاضي عبد الوهاب البغدادي القضاء إثر مزاحمة الشافعية لهم بعد أن تقربوا من الخلافة العباسية هناك بواسطة رئيس الشافعية بالعراق أبي حامد الإسفرائيني<sup>(2)</sup>.

---

بن محمد الطرابلسي. توفي ودفن بالمنستير بعد سنة 410هـ. [انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: 175/3/1 - 177، بغية الملتبس: 199/1 - 201، شجرة النور: 106].  
(1) ترتيب المدارك: 470/2 - 471.

(2) هو أبو حامد، أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد، الإسفرائيني. فقيه وإمام الشافعية بالعراق. إليه انتهت رئاسة المذهب. تفقه على ابن المرزبان وأبي القاسم الداركي، وغيرهما. له أصحاب كثيرون. وله مصنفات عديدة. وفاته في 406هـ، وكان عمره 62 سنة. [انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ: 262/9، العبر: 311/2، شذرات الذهب:

وأرجع صاحب [ترتيب المدارك] سبب هجرة القاضي عبد الوهاب من بغداد إلى خوفه على نفسه من بطش الشافعية، ذلك أنه قال كلاماً ما في الشافعي، وطلب، فخاف على نفسه وخرج فاراً<sup>(1)</sup>.

2 . وفاة فطاحل علماء المذهب المالكي متتابعين: حتى ضعف أنصار المذهب ولم يكتب له الاستمرار بنفس القوة وعلى نفس الوتيرة، فقد تقاربت تواريخ وفيات هؤلاء الأعلام، حتى لم يضمن الخلف الذي يحمل عبء الذب عن المذهب قبالة الرحمة الفكرية والفقهية الشديدة التي عرفتها العراق تلك الأيام.

3 . كون حكام العراق والدولة العباسية عموماً على مذهب الشافعية والحنفية: فيهم القضاة ومنهم الفتوى، فزهد الناس في غير هذين المذهبين لما أن كانا مذهب السلطان، فقلّ أتباع المذهب المالكي بفعل هذا. قال القاضي أبو الفضل عياض<sup>(2)</sup> مفسراً ظاهرة الضعف هذه في [مداركه]: «وبعد موت الأبهري، وكبار أصحابه لتلاحقهم، وخروج القضاء عنهم إلى غيرهم من مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ضعف مذهب مالك بالعراق وقلّ طلبه لاتباع الناس أهل الرئاسة، والظهور»<sup>(3)</sup>.

---

(1) ترتيب المدارك: 693/2.

(2) هو أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض، اليحصبي السبتي، ولد بسبته سنة 476هـ. عالم محدث، له علم بأنساب العرب وأيامهم. ولي قضاء سبته، وغرناطة. له تأليف منها: [ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك]. توفي بمراكش سنة 544هـ. [انظر ترجمته في: تهذيب الأسماء واللغات: 43/2 - 44، وفيات الأعيان: 483/3 - 485، العبر: 467/2، الديباج المذهب: 270 - 273، شذرات الذهب: 138/4، شجرة النور: 140 - 141، الأعلام: 99/5].

(3) ترتيب المدارك: 470/2.

رابعاً: خصائص المدرسة العراقية: وتميّزت مدرسة العراق هذه بمجموعة من الخصائص المنهجية أهمّها:

1 - الاجتهاد: لما كان العراق موطناً لعدة مذاهب فقهية، وأن هذه التعددية بعثت على الاجتهاد بما وفرت الخلافة من أسبابه، وما شجعت من تنافس العلماء، وتباريهم، فإن مالكية العراق امتازوا بالاجتهاد.

وزاد من تشجيعهم على الاجتهاد ولو كان هذا الاجتهاد في إطار المذهب: عدم اعتمادهم على الرواية في المذهب المالكي كما صنع المغاربة [بالأسدية] و[المدونة] والأندلسيون [بالعتبية] وغيرها.

بل كان انتشار المذهب بالتعليم الذي سلكه تلاميذ مالك من العراقيين، فلما احتاجوا إلى معرفة رأي المالكية في المسألة، خرّجوها على أصول مالك التي تعلّموها، ونسبوها للمذهب، مبتعدين بذلك عن تقليد المذهب بالطريقة التي عرفها المغاربة.

وهذا هو السبب الذي جعل المغاربة والأندلسيين لا يقبلون قول العراقيين فيما لم يجدوا فيه رواية عن الإمام مالك رحمته الله أو أحد أصحابه.

صرّح بقريب من هذا المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون في [مقدمته] حيث قال: «والقوم أهل اجتهاد، وإن كان خاصاً، لا يرون التقليد ولا يرونه طريقاً، ولذلك نجد أهل المغرب والأندلس، لا يأخذون برأي العراقيين، فيما لا يجدون فيه رواية عن الإمام أو أحد من أصحابه»<sup>(1)</sup>.

2 - الفقه التقديري: إن أبرز المذاهب الفقهية السنية التي كانت موجودة بالعراق قبيل دخول المذهب المالكي إليه بل وبعد دخوله، المذهب الحنفي، واشتهر هذا المذهب فيما اشتهر به بالفقه التقديري.

ولا غرابة أن ينتقل هذا المنهج الفقهي من المذهب الحنفي إلى المدرسة المالكية العراقية، باعتبار اختلاط فقهاء المذهب المالكي

---

(1) مقدمة ابن خلدون: 548/2.

العراقيين خاصة بفقهاء الأحناف، ولا أدل على ذلك من انتقال صاحب أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني<sup>(1)</sup> إلى الإمام مالك، ورواية [الموطأ] عنه.

**3 . استعمال الرأي والقياس: إن البيئة التي عاشها المذهب المالكي بالعراق جعلته يتأثر بمنهج الأحناف في التعامل مع الفقه، لذلك أعملوا الرأي والقياس، لنفس الأسباب المنهجية التي جعلت فقهاء الأحناف يعملون الرأي ويتوسعون في القياس.**

فكانت لفقهاء المذهب المالكي بالمدرسة العراقية [مدونة سحنون] أساساً للفقه، يلجأون انطلاقاً منها إلى المسائل غير المنصوص عليها لا بناء على الرواية عن الإمام مالك أو أحد أصحابه، ولا بالبحث عن الآثار في ذلك عن النبي ﷺ ولكن بالقياس، وإعمال الرأي.

فجعل أهل العراق في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة، والقياس، ولم يعرجوا على [المدونة] بتصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ<sup>(2)</sup>.

**4 . تأثيرهم بالمدارس العقلية: برزت بالعراق كما سبقت الإشارة مذاهب فكرية متعددة على رأسها المعتزلة، وكان نشوء الفكر الأشعري**

---

(1) هو أبو عبد الله، محمد بن الحسن بن فرقد، مولى بني شيبان. ناشر مذهب أبي حنيفة ومعلمه. مولده سنة 131 بواسط. نشأ بالكوفة، وتوفي بالري سنة 189هـ. له مصنفات منها: [المخارج في الحيل]، و[الجامع الكبير]، و[الجامع الصغير]، وله رواية [الموطأ] عن الإمام مالك بن أنس. [انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: الخطيب أبو بكر البغدادي: مج2/ص.172، طبقات الفقهاء: 135، اللباب: 219/2، العبر: 234/1 . 235، شذرات الذهب: 321/1 . 324].

(2) محمد أبو الأجنان، وحمزة أبو فارس محققاً فروق الدمشقي: المقدمة، ص.23.



من أبرز ردود الفعل على نشوء هذه المدرسة وما دار في فلكها من مناهج فكرية متأثرة بالفلسفة اليونانية.

وكانت مناقشات ومناظرات كلامية مشهودة تحصل بالعراق ويعاينها فقهاء المذهب المالكي المنتمون إلى هذه الرقعة من العالم الإسلامي. بل إن بعض فقهاء المدرسة العراقية كانوا متضلعين في علم الكلام، والنظر، ومن بينهم بل من أبرزهم أبو بكر الباقلاني أستاذ ومعلم القاضي عبد الوهاب البغدادي الذي كان هو أيضا نظارا متكلمًا.

ولا عجب أن يتأثر الفقه الإسلامي بهذا المنحى في التفكير والتأليف والاستدلال، لذلك جاءت كتب فقهاء المدرسة الفقهية العراقية متأثرة بصورة واضحة بهذا العامل، يبرز هذا جليا في مناهج خدمة [مدونة سحنون] فقد كان دأب هؤلاء «القصدي إلى أفراد المسائل، وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين»<sup>(1)</sup>.

خامسا: مدى التواصل بين مدرستي العراق والمغرب: الأصل في العلاقة بين مالكية المدرسة المغربية ومالكية المدرسة العراقية هو عدم الاتصال، وذلك لمجموعة من الأسباب أهمها أمران:

1 - كون رحلة علماء المغرب إلى المشرق تتركز أساسا في الرحلة إلى الحجاز لغرض الحج وطلب العلم والاستزادة منه، والعراق ليس في طريقهم، بخلاف مصر التي كان بين علمائها وعلماء المغرب اتصال وتواصل واضح.

---

(1) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي. ص. 189، مقدمة محققي فروق الدمشقي. ص. 13.

2 . اختلاف المناهج، إذ لم يكن مالكية المغرب يثقون برأي العراقيين فيما لا يجدون فيه رواية عن الإمام مالك أو أحد من أصحابه. باعتبارهم يجتهدون في المذهب ويأتون بأحكام حوادث قد تخالف ما روي عن الإمام مالك رحمته الله فيها.

ولقد أجاد عبد الرحمن بن خلدون تلخيص هذين السببين في مقدمته حيث قال: «وأما طريقة العراقيين فكانت مهجورة عند أهل القيروان والأندلس لبعدها عنهم، وخفاء مدركها وقلة اطلاعهم على مآخذهم فيها، والقوم أهل اجتهاد، وإن كان خاصًا، لا يرون التقليد ولا يرضونه طريقًا، ولذلك نجد أهل المغرب والأندلس لا يأخذون برأي العراقيين، فيما لا يجدون فيه رواية عن الإمام أو أحد من أصحابه»<sup>(1)</sup>.

لكن هذا الأصل خرم مرارا خاصة منذ القرن الرابع، أي في العهد الذي عاش فيه كل من ابن أبي زيد القيرواني والقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي، وهو العصر الذي عرف فيه المذهب المالكي انتعاشًا بالعراق ونموًا سريعًا للمدرسة العراقية هذه.

فابن أبي زيد القيرواني لما فرغ من تأليف كتابه الشهير [الرسالة] أرسله إلى العراق، فتلقيه فقهاء المدرسة العراقية بقبول حسن، بل هذا أبو بكر الأبهري شيخ القاضي عبد الوهاب وأحد أعمدة المذهب المالكي بالمشرق تباع [الرسالة] في حلقاته بعشرين دينارًا ذهبًا. ويشرحها في كتاب نفيس له عنوانه: [مسلك الجلالة في مسند الرسالة]، ويراسله ابن أبي زيد حامدا مسعاه، ومستفسرا تصرف أبي بكر بن زرب

---

(1) مقدمة ابن خلدون: 548/2.

الأندلسي<sup>(1)</sup> الذي أخفى [الرسالة] لما بلغت، وألف على منوالها، فيجيب أبو بكر الأبهري مسلماً:

أعجب ما في الأمور عندي      إظهار ما تدعي القلوب  
تأبى نفوس نفوس قوم      وما لها عندهم ذنوب  
وتصطفي أنفس نفوسا      وما لها عندهم عيوب  
ما ذاك إلا لمضمرات      يعلمها الشاهد الرقيب<sup>(2)</sup>

وذاك تلميذه القاضي عبد الوهاب البغدادي، يشرح [مختصر ابن أبي زيد القيرواني على المدونة]. بل ويشرح [الرسالة] شرحاً بديعاً، ويقرضه بأبيات شاعر فصيح:

رسالة علم صاغها العلم النهدي      قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد  
أصول أضاءت بالهدى فكأنما      بدا لعيون الناظرين بها الرشد

---

(1) هو قاضي الجماعة بقرطبة، أبو بكر، محمد بن يقي بن محمد بن زرب بن يزيد القرطبي، مولده في سنة 317هـ. فقيه. تولى القضاء سنة 367هـ. سمع من أعلام منهم: قاسم بن أصبغ، وتفقه عند اللؤلؤي، وابن مسرة. تفقه به جماعة منهم ابن الحداء. ألف كتاب [الخصال] في الفقه عارض به كتاب [الخصال] لابن كابس الحنفي. توفي سنة 381هـ وهو يتولى القضاء.

[انظر ترجمته في: جذوة المقتبس: 162/3/1، ترتيب المدارك: 630/2 - 633، بغية الملتمس: 189/1، العبر: 160/2، الديباج المذهب: 364، كشف الظنون: 42/6 - 43، شذرات الذهب: 101/3 - 102، شجرة النور: 100، معجم المؤلفين: 176/3].

(2) يمكن مراجعة الموضوع في: تراجم أبي بكر الأبهري، والقاضي عبد الوهاب وكذا مقدمة تحقيق فروق الدمشقي: ص. 24، ومقدمة تحقيق غرر المقالة في شرح غريب الرسالة: أبو عبد الله بن حمادة المغراوي: ص. 40 - 41.

وفي صدرها علم الديانة واضح و آداب خير الخلق ليس لها نَدَّ  
لقد أمّ بانيها السداد فذكره بها خالد ما حجّ واعتمر الوفد

وكانت لابن أبي زيد القيرواني صلة من مال بعثها للقاضي عبد  
الوهاب البغدادي لما أعوز بعد اعتزال القضاء، وربما كان شرحه [الرسالة]  
جواب شكر على هذه الصلة، بل إن خروج القاضي من بغداد كان بدعوة  
من أبناء الشيخ القيرواني، غير أنه استقر بمصر بعد ذلك<sup>(1)</sup>.

وتظهر الصلة العلمية بين مدرستي المغرب والمشرق في هذا العصر،  
فيما كتبه القاضي أبو بكر الباقلاني أيضا في مناقشة أبي محمد القيرواني  
في مسألة إنكار الكرامة في كتاب أسماه [البيان عن الفرق بين المعجزات  
والكرامات والحيل والكهانة والسحر والثرنجيات]<sup>(2)</sup>.

وكذا في استجازة أبي عبد الله بن مجاهد الطائي البغدادي الشيخ  
ابن أبي زيد القيرواني كتابيه: [المختصر] و[النوادر]<sup>(3)</sup>، ورحلة المازري  
المغربي<sup>(4)</sup> وشرحه كتاب [التلقين] الذي ألفه القاضي عبد الوهاب

---

(1) يمكن مراجعة الموضوع في مقدمة تحقيق غرر المقالة: ص. 42.

(2) ترتيب المدارك: 495/2.

(3) شجرة النور: 92.

(4) هو الإمام أبو عبد الله، محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، واسع الباع في العلم، بلغ  
درجة الاجتهاد، لم يفت بغير مشهور مذهب الإمام مالك، أخذ العلم عن أعلام منهم: أبو  
الحسن اللخمي، وعبد الحميد الصائغ، و مترجمنا القاضي عبد الوهاب البغدادي. وأخذ عنه  
جلة منهم: ابن فرس، وأبو عبد الله بن تومرت، وابن المقرئ، وابن الحداد، وأبو الحسن بن  
صاعد، وابن أبي جمرة، وابن رشد الحفيد، والقاضي عياض، وغيرهم كثير.

البغدادي في شرح قيل فيه «ليس للمالكية مثله»<sup>(1)</sup>. وغير هذه الشواهد كثير.

وعلى العموم فقد تعايشت المدرستان وتواصل أهلها منذ هذا العصر تواصلًا علميًا حثيثًا، وصل إلى درجة اندماج المدرستين في بعضهما في زمن لاحق.

قال عبد الرحمن بن خلدون: «ثم امتزجت طريقة أهل المغاربة من كتاب المالكية أيضًا بطريقة العراقيين، من لدن الشرمساحي<sup>(2)</sup> وكان بالأسكندرية ظاهرًا في الطريقة المغربية والمصرية، فبنى المستنصر العباسي أبو المستعصم وابن الظاهر<sup>(3)</sup> مدرسته ببغداد، واستدعاه لها من خلفاء

---

له تصانيف منها: [شرح التلقين]، و[شرح البرهان لأبي المعالي]، و[إيضاح المحصول من برهان الأصول]، و[المعلم في شرح صحيح مسلم]، و[الرد على الإحياء]، و[الفتاوى]، وغيرها. توفي في ربيع الأول من سنة 536هـ.

[انظر ترجمته في: العبر: 451/2، الديباج المذهب: 374 . 375، شذرات الذهب: 114/4، شجرة النور: 127 . 128، الأعلام: 277/6].

(1) انظر شجرة النور: ص.ص. 127 . 128.

(2) هو أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر وقيل محمد، مغربي الأصل، شارمساحي المولد في سنة 589هـ، إسكندري المنشأ والدار. عالم على مذهب الإمام مالك. رحل إلى بغداد سنة 633هـ. فاستقبل استقبالًا حسنًا، وتولى التدريس بالمستنصرية.

له مؤلفات هامة منها: [نظم الدرر في اختصار المدونة]، وله عليه شرحان، و[شرح الجلاب]، وغير ذلك. توفي سنة 669هـ.

[انظر ترجمته في: الديباج المذهب: 231 . 232، شجرة النور: 187].

(3) هو المستنصر بالله، منصور بن محمد (الظاهر بأمر الله) بن الناصر بن المستضيئ. خليفة عباسي. مولده في 588هـ. ولي بغداد بعد وفاة أبيه سنة 623هـ.

العبيدين الذين كانوا يومئذ بالقاهرة، فأذنوا له في الرحيل إليه، فلما قدم بغداد ولّاه تدريس المستنصرية»<sup>(1)</sup>.

وما زالت المدرسة المالكية العراقية إلى اليوم رصيذا نفيسا لطلبة العلم، والباحثين في الجامعات، ورجال الفتوى في الهيئات والمجامع، بالنظر إلى الزخم الفقهي الذي وفرته، وبالنظر إلى مواكبة هذا الفقه للمستجدات بفعل الخصائص التي سبقت الإشارة إليها.

ورغم تباين المنهج بين المدرسة المالكية العراقية والمغربية إلا أن تعاون المدرستين حقيقة تاريخية ومنهجية، تجعلنا اليوم مدفوعين إلى اعتبار ميراث هذه المدرسة إضافة غنية للفقه المالكي المغربي الذي ننتمي إليه.



---

وكان جدّه الناصر يسميه "القاضي" لوفرة عقله. هو باني "المدرسة المستنصرية" ببغداد على شط دجلة. كان حازما عادلا. استولى المغول في عهده على كثير من البلاد. توفي ببغداد سنة 640هـ. وبويع ابنه المستعصم بالله.

[انظر ترجمته في: الكامل في التاريخ: 344/11، العبر: 239/3، شذرات الذهب: 209/5، الأعلام: 304/7].

(1) مقدمة ابن خلدون: 548/2.

## المدرسة المالكية العراقية في مرحلة ازدهارها

كلمة الدكتور محيي سعيدي

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر.

كانت العراق بلاد الخلافة مسرحاً لتيارات فكرية ومذاهب عقائدية متعددة، متنافسة، وقد ألقى أصحاب مالك بدلوهم بين الدلاء، فقالوا كلمتهم، ورفعوا أصواتهم، وبينوا آراءهم، ودافعوا عن مذهب إمامهم، وتناولوه درساً ومدارساً وتدریساً، حتى ازدهر وبلغ أوجیه، وفاز برضى الحاكمين وإقبال المحكومين، وكانت له في البلاد جولة دامت نحو قرنين كاملين.

فعرف مذهب إمام دار الهجرة توسعاً وازدهاراً في الأصول والفروع على يد أعلام مشاهير خلد لنا التاريخ ذكرهم.

ولعلّ المالكيين المشاركة هم الذين وضعوا الأسس الأولى للمذهب وأصوله التي بنى عليها المغاربة فيما بعد.

لقد انتشر المذهب المالكي في العراق، وازدهر خصوصاً في البصرة وبغداد، بواسطة أصحاب مالك رحمهم الله ومنهم:

عبد الله بن المبارك<sup>(1)</sup> وعبد الرحمن بن مهدي (ت198هـ)<sup>(2)</sup>،

---

(1) عبد الله بن المبارك، المحدث الفقيه، أصله من مرو، سكن العراق، روى الموطأ وتفقه على مالك توفي سنة 118 هـ بمدينة هيت. انظر في ترجمته ترتيب المدارك (1/300 - 309)، شجرة النور الزكية ص 57 و58.

(2) هو عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري يكنى أبا سعيد، لازم مالكا فأخذ عنه كثيراً من الفقه والحديث، وكان يذهب إلى قوله، تفقه به ثلثة من علماء المالكية كعبد الله بن وهب المصري، ويعقوب بن إسماعيل بن حماد، ذكر له من المؤلفات كتاب السنة والفتن توفي بالبصرة سنة 198 هـ انظر ترتيب المدارك (1/399 - 403).

وعبد الله بن مسلمة القعنبي (ت220هـ)<sup>(1)</sup>، ثم بأتباعهما كابن المعذل<sup>(2)</sup>، ويعقوب بن أبي شيبة (ت262هـ)<sup>(3)</sup> وغيرهما، ثم بأتباعهما من أسرة آل حماد بن يزيد<sup>(4)</sup>.

ثم تلت تلك الكوكبة طبقة أخرى من الأعلام، حملوا راية المذهب وعززوه بنشاطهم ومؤلفاتهم، حتى قال القاضي عياض: «أركان المذهب المالكي في العالم الإسلامي أربعة: سحنون، والقاضي إسماعيل، والأبهرى، وابن أبي زيد القيرواني»<sup>(5)</sup>. وقيل من جهة أخرى «لولا الشيخان والمحمدان والقاضيان لذهب المذهب»، فالشيخان ابن أبي زيد

---

(1) هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب التميمي الحارثي لزم مالكاً عشرين سنة حتى قرأ عليه الموطأ، كان له أثر واضح في التمكين للمذهب المالكي ونشره بالعراق وممن تتلمذ عليه القاضي إسماعيل بن إسحاق توفي سنة (220هـ) وقيل (221هـ)، انظر: ترتيب المدارك (201 . 198/3).

(2) هو أبو الفضل أحمد بن المعذل الكوفي أصلاً البصري سکناً، الإمام الحجة الفقيه المبرز، المتكلم النظار، أخذ عن عبد الملك بن الماجشون، ومحمد بن مسلمة، وتفقه به جماعة من كبار المالكية، له مصنفات منها كتاب الحجة، وكتاب الرسالة توفي سنة 230هـ انظر في ترجمته: ترتيب المدارك (1/550 - 558).

(3) هو أبو يوسف يعقوب بن أبي شيبة بن الصلت، الإمام المحدث، الفقيه المبرز البارع في المذهب وصاحب التأليف الجديدة فيه، تفقه بابن المعذل، وأصبح بن الفرج، وغيرهما من كبار أصحاب مالك، توفي رحمه الله سنة 262هـ، انظر: ترتيب المدارك (4/150 - 154)، شجرة النور ص65.

(4) كان لفقهاء آل حماد عموماً أثر فعال في تثبيت وترسيخ دعائم المذهب المالكي بالعراق، وتحديد معالمه، وتقعيد قواعده فقد أسهموا بحظ وافر ونصيب كبير في البناء الفقهي والأصولي للمدرسة المالكية العراقية، وتبوأ المذهب المالكي في عهدهم مكانة أسمى وأعلى من ذي قبل، ويعتبر يعقوب بن إسماعيل بن حماد أول أفراد هذه الأسرة نشرأ للمذهب بالعراق، وممن تفقه به القاضي إسماعيل، وأخوه أبو إسماعيل حماد بن إسحاق. انظر تاريخ بغداد (14/275)، ترتيب المدارك (1/558 - 560)، السدياح (1/282)، شجرة النور الزكية ص65.

(5) نقلاً عن تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق للدكتور أحمد باكير، ص101.



القيرواني وأبو بكر الأبهري، والمحمدان محمد بن سحنون ومحمد بن المواز المصري، والقاضيان أبو محمد عبد الوهاب وأبو الحسن ابن القصار البغداديان<sup>(1)</sup>.

والملاحظ أن نصيب العراقيين في كلتا المقولتين هو النصف.

وقد عرف المذهب المالكي طوال القرنين الثالث والرابع ازدهاراً كبيراً وانتشاراً واسعاً ببغداد والعراق، وتفوق على كافة المذاهب الأخرى، وآلت إليه مناصب القضاء والفتيا<sup>(2)</sup>.

من أشهر علماء هذه المرحلة:

أولاً: القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد (ت 282هـ)

الإمام العلامة الموسوعي النحري، المعروف بالإتقان والتحرير، الفقه المالكي المجتهد المبرز.

قال أبو إسحاق الشيرازي: «كان إسماعيل جمع القرآن وعلم القرآن، والحديث وآثار العلماء، والفقه، والكلام، والمعرفة بعلم اللسان، وكان من نظراء المبرد في علم كتاب سيويه، وكان المبرد يقول: «لولا اشتغاله برئاسة الفقه والقضاء، لذهب برئاستنا في النحو والأدب»<sup>(3)</sup>.

تتلمذ القاضي إسماعيل على نخبة من الأئمة الكبار الفطاحل، منهم علي بن المديني، وأبو الوليد الطيالسي، وأبو بكر ابن أبي شيبة، والقعبي، وغيرهم... وتفقه بجماعة، منهم ابن المعذل الفذ الذي كان القاضي إسماعيل يرى نفسه محظوظاً بالتفقه عليه ويفتخر بذلك، فقد حكى عنه أنه

(1) اصطلاح المذهب ص 350.

(2) انظر: اصطلاح المذهب عند المالكية للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي ص 67.

(3) طبقات الفقهاء، للشيرازي ص 166، 167، وانظر الديباج (1/285).

كان يقول: «أفخر على الناس برجلين بالبصرة: أحدهما ابن المعذل يعلمني الفقه، وعلي بن المدني يعلمني الحديث»<sup>(1)</sup>.

وحظي بالتلمذ على القاضي إسماعيل جم غفير من طلبة العلم الذين أدركوا شأوه ومكانته العلمية السامقة، فقصدوه من جهات متعددة ومن هؤلاء: موسى بن هارون الحافظ، وأبو القاسم البغوي، والنسائي، والفرياني، وقاسم بن أصبغ الأندلسي، وخلق كثير<sup>(2)</sup>.

وقد اجتمع لمتربنا من العلم والمعرفة والفضل ما تفرق في أسلافه من مالكية العراق، فقد كان علماً فذاً متميزاً نابغة، انفرد بالإمامة في وقته، وفاق أهل عصره في كثير من العلوم وفي مقدمتها: علم الفقه الذي أحرز دقائقه وملك ناصيته، وقنص شوارده وأبرز حقائقه، حتى منح ألقاباً وأوصافاً لم يوصف بها أحد من أقرانه، فهو شيخ الإسلام كما وصفه الذهبي و«شيخ المالكية في وقته»، و«إمام تام الإمامة يقتدى به» على حد تعبير أبي محمد بن أبي زيد.

هذا وقدم الشيخ إسماعيل للمذهب المالكي في العراق خدمات جلية، فمكث طويلاً يبسطه ويشرحه ويلخصه، ويحتج له، ويحدد معالمه، ويظهر محاسنه، ومزاياه وخصائصه، ويدعو إليه ويرغب فيه<sup>(3)</sup>، وينشر منه ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، حتى اعتبره بعض أهل العلم المؤسس الأول للفرع المالكي بالعراق، وإن كان هذا فيه مجانية للحق فقد وجد قبله أئمة كبار أسهموا جميعاً في وضع الحجر الأساس لبناء المدرسة المالكية العراقية كابن مهدي العنبري (ت198هـ) وابن المعذل (ت230هـ)

---

(1) طبقات الفقهاء ص166، وانظر: ترتيب المدارك (279/4).

(2) انظر: ترتيب المدارك (278/4)، سير أعلام النبلاء (339/13)، الديباج المذهب (284/1).

(3) قال أبو حاتم القاضي الحنفي: (لبث إسماعيل أربعين سنة يميئ ذكر أبي حنيفة من العراق) انظر: ترتيب المدارك (280/4).

وغيرهما، ثم جاء إسماعيل القاضي فرسخ جذور هذه المدرسة ووطد دعائمها، وأعلى شأنها، ورفع لواءها وبوأها المكانة السامية اللائقة بها. وقد خلف الإمام آثاراً علمية جلييلة القدر غزيرة الفائدة قال فيها القاضي عياض: «كثيرة مفيدة أصول في فنونها»<sup>(1)</sup>. نذكر منها:

1. المبسوط: ويسميه البعض المبسوطة، وهو من أهم مصادر الفقه المالكي وأعظمها قدراً وأرفعها شأنًا، ويعتبر أحد الدواوين الفقهية السبعة المشهورة المعتمدة في المذهب إضافة إلى المدونة والموازية، والعتبية والواضحة والمختلطة والمجموعة. ومن خلال المبسوط عرفت طريقة المالكية البغداديين في الفقه والتأليف<sup>(2)</sup>.

2. مختصر المبسوط

3. الرد على أبي حنيفة.

4. الرد على الشافعي في مسألة الخمس وغيرها.

5. الرد على محمد بن الحسن الشيباني في مائتي جزء ولم يتمه.

6. كتاب الفرائض.

7. كتاب الأصول.

8. أحكام القرآن وهو كتاب كبير الحجم، لم يسبق أحد من أصحابه

إلى مثله كما ذكر الخطيب البغدادي في تاريخه، وقد طبع حديثاً<sup>(3)</sup>.

ثانياً: أبو بكر بن عبد الله بن صالح الأبهري التميمي (ت375هـ)

إمام المالكية في عصره، جمع بين القراءات وعلو الإسناد، والفقه الجيد، كما قال الشيرازي، وكان معظماً عند سائر علماء زمانه، لا يشهد محضراً إلا كان المقدم فيه، ووصفه ابن مفرج العنسي بأنه: «القائم برأي مالك بالعرفان في وقته».

---

(1) ترتيب المدارك (292/4).

(2) اصطلاح المذهب ص154.

(3) انظر: تاريخ بغداد (159/8)، ترتيب المدارك (294/4)، سير أعلام النبلاء (16/13).

وحكى بعضهم قوله: كتبت بخطي المبسوط، والأحكام لإسماعيل، وأسمعة ابن القاسم وأشهب وابن وهب، وموطأ مالك، وموطأ ابن وهب، ومن كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزء بخطي، ولم يكن لي قط شغل إلا العلم، ولي في جامع المنصور ببغداد ستون سنة أدرس الناس وأفتيهم وأعلمهم سنن نبيهم ﷺ.

ونقل عنه بعضهم أنه قرأ مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة، والأسدية خمساً وسبعين مرة، والموطأ خمساً وأربعين مرة، ومختصر البرقي سبعين مرة، والمبسوط ثلاثين مرة.

تفقه ببغداد على القاضي أبي عمر وابنه أبي الحسين، وأخذ عن القاضي أبي الفرج، وابن المتتاب، وغيرهم من الأئمة الأجلاء.

وأخذ عنه جماعة منهم: أبو بكر بن الجهم، والبغوي، وأبو زيد المروزي، وتفقه عليه جم غفير من النجباء منهم: أبو سعيد القزويني، وأبو القاسم بن الجلاب، والقاضي أبو الحسن بن القصار، وابن خويز منداد البصري، وأبو محمد الأصيلي.

وقيل في مترجمنا: كان أكثر الجميع أصحاباً، وأفضلهم أتباعاً، وأنجبهم طلاباً.

وقد خلف آثاراً علمية غزيرة قيمة من ذلك: شرح المختصر الصغير والكبير لابن عبد الحكم، وهذان الشرحان كانا يمثلان عملاً علمياً ضخماً، خاصة وأن في المختصرين نفسيهما نحو عشرين ألف مسألة<sup>(1)</sup>.

وكتاب مسلك الجلالة في مسند الرسالة، وكتاب الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة، وكتاب الرد على المزني، ومسألة الجواب والدلائل والعلل، توفي رخمه الله سنة 375هـ، وقيل سنة 395هـ<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: ترتيب المدارك (188/6)، اصطلاح المذهب ص 232.

(2) انظر في ترجمته: تاريخ بغداد (462/5)، طبقات الفقهاء للشيرازي ص 168 . 169، ترتيب المدارك (183/6 . 192)، الديباج المذهب (206/2 . 210)، شجرة النور الزكية ص 91.

ثالثاً: أبو القاسم عبيد الله بن الحسن البصري المعروف بابن الجلاب  
(ت378هـ)

الإمام العلامة، الفقيه الأصولي. تفقه بالقاضي أبي بكر الأبهري،  
وكان من أحفظ أصحابه وأنبليهم.

قال الذهبي: «كان أفقه المالكية في زمانه بعد الأبهري، وما خلف  
ببغداد في المذهب مثله» وتفقه به القاضي عبد الوهاب البغدادي وغيره من  
الأئمة الكبار، له تأليف عدة منها:

كتاب في مسائل الخلاف، شرح المدونة، وكتاب التفریع في  
المذهب، مشهور معتمد جامع لكل أبواب الفقه في العبادات والمعاملات  
على المذهب المالكي صيغت في واحد وثلاثين كتاباً، ومسائله تبلغ ثمانية  
عشر ألفاً<sup>(1)</sup>.

توفي رحمته الله تعالى منصرفه من الحج في آخر سنة 378هـ<sup>(2)</sup>.

رابعاً: أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد البغدادي المعروف بابن القصار  
(ت398هـ)

الفقيه المالكي الكبير، الأصولي النظار من كبار تلامذة أبي بكر  
الأبهري وبه تفقه.

قال عنه تلميذه أبو ذر الهروي: «هو أفقه من رأيت من المالكيين»  
وبه تفقه القاضي عبد الوهاب البغدادي، وابن عمرو، وغيرهما، له كتاب  
في مسائل الخلاف كبير، لا يعرف للمالكيين كتاب في الخلاف أحسن منه

(1) مقدمة محقق التفریع (107/1)، اصطلاح المذهب ص235.

(2) انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص170، ترتيب المدارك (76/7)، الديباج (461/1)،  
شجرة النور الزكية ص92.

"عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار" وهو كتاب فقه مقارن يستعرض فيه مؤلفه بأسلوب سهل متقن مركز آراء المذاهب المختلفة وأدلتهم، ثم يذكر أدلة المالكية باسماً الكلام على أوجه النظر المختلفة فيما يعرض من أدلة، مناقشاً لها مناقشة دقيقة عميقة، تدل دلالة واضحة على اطلاعه وتعمقه في دراسة المذاهب المختلفة<sup>(1)</sup>.

ولي قضاء بغداد، وتوفي رحمته الله تعالى سنة 398هـ<sup>(2)</sup>.

خامساً: القاضي أبو بكر الباقلاني (ت403هـ)

أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر البصري ثم البغدادي، المعروف بابن الباقلاني.

القاضي الملقب بـ "شيخ السنة" و"لسان الأمة" إمام المتكلمين على مذهب أهل السنة وطريقة أبي الحسن الأشعري، وعالم عصره، وشيخ المالكية في وقته.

درس الأصول على أبي بكر بن مجاهد صاحب أبي الحسن الأشعري، وتفقه بأبي بكر الأبهري، وأخذ عن غيرهما من العلماء الفطاحل الأجلاء.

تخرج به أئمة كبار من أمثال أبي ذر الهروي، وأبي عمران الفاسي، والقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي.

صنف تصانيف كثيرة بديعة في الكلام وغيره منها:

1. الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والضلالة.

2. المقدمات في أصول الديانات.

---

(1) اصطلاح المذهب ص261.

(2) انظر: تاريخ بغداد (41/12)، طبقات الفقهاء للشيرازي ص170، ترتيب المدارك (70/7) الديباج (100/2) سير أعلام النبلاء (107/17 - 108).

- 3 . شرح أدب الجدل.
  - 4 . شرح اللّمع.
  - 5 . الأصول الكبير في الفقه.
  - 6 . التقريب والإرشاد في أصول الفقه، ثم اختصره.
- توفي رحمته الله تعالى سنة 403هـ<sup>(1)</sup>.

سادساً: أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي القاضي  
(422هـ)

الإمام الألمعي، العلامة المتبحر، الفقيه المبرز، الأصولي المكين،  
النظار المتفنن، الأديب الشاعر، كان نسيح وحده، وفريد وقته، وشيخ  
المالكية في عصره، وأحد أبرز رواد المدرسة الفقهية المالكية بالعراق.

سمع من أبي عبد الله العسكري، وأبي عمر الهاشمي محدث البصرة،  
كما صحح سماعه عن أبي بكر الأبهري، وأبي الحسن بن الصلت، وتفقه  
على كبار أصحاب الأبهري من أمثال أبي الحسن القصار، وأبي القاسم ابن  
الجلاب، ودرس الفقه والأصول والكلام عن القاضي أبي بكر الباقلاني.

روى عنه عبد الحق بن هارون الفقيه، وأبو بكر الخطيب البغدادي،  
وجماعة، وعليه تفقه أبو الفضل محمد بن عبيد الله بن عمرو، وأبو  
الفضل مسلم بن علي الدمشقي وغيرهما.

ألف في المذهب والخلاف والأصول تأليف كثيرة، بديعة مفيدة  
منها: النصرة لمذهب إمام دار الهجرة، المعونة لدرس مذهب عالم المدينة،  
الإشراف على مسائل الخلاف، التلقين، شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني،

---

(1) انظر: تاريخ بغداد (379/5)، ترتيب المدارك (70 - 44/7)، سير أعلام النبلاء (190/17) .  
193)، شجرة النور الزكية ص 92 - 93.

شرح المدونة لم يتم، عيون المسائل في الفقه، التلخيص في أصول الفقه، الفروق في مسائل الفقه، وغيرها<sup>(1)</sup>.

«وقد اتسمت كتبه بتبنيها لمبادئ وقواعد الترجيح القيروانية المصرية، ولذا فكتبه تعتبر جسراً يربط بين آراء الفرع المالكي العراقي، وترجيحات الفرع المصري القيرواني، وكان للاهتمام الذي أولاه لكتب عميد المدرسة القيروانية ابن أبي زيد في شرحه على الرسالة والمختصر قدر كبير من العرفان لدى علماء المدرسة القيروانية، ظهر واضحاً في ترحيهم وتقديرهم لكتب القاضي عبد الوهاب وآرائه كان من مظاهره النقل من كتبه والاستدلال بتوجيهاته، والأخذ بترجيحاته»<sup>(2)</sup>.

ولي القاضي عبد الوهاب قضاء الدينور وبادرايا وباكستان من أعمال العراق، ثم رحل مضطراً إلى مصر وولي القضاء بها، فذاع صيته وانثالت في يده الرغائب، لكن إقامته بها لم تتجاوز شهراً حتى وافته المنية عليه رحمة الله سنة 422هـ.

وما أن حل القرن الخامس حتى استفحل النزاع بين المذاهب الدينية، حتى السنية منها، وقويت شوكة الشافعية الذين تقربوا إلى الخليفة بواسطة رئيسهم أبي حامد الإسفراييني لإزاحة المالكية من المناصب العامة، وكان آخرهم القاضي عبد الوهاب المالكي ولم يظهر بعد ذلك إلا من حين لآخر عند بروز أحد فقهاء اللامعين، وكان آخرهم في النصف الثاني من القرن الثامن ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عسكر البغدادي (ت796هـ) الذي ولي قضاء بغداد وحسبتها كما تولى التدريس بالمدرسة المستنصرية.

---

(1) انظر: تفصيل الكلام عن مؤلفاته في اصطلاح المذهب ص 273 . 275.

(2) انظر: اصطلاح المذهب ص 271.



## عوامل ازدهار المدرسة العراقية

لقد اسهمت عوامل متعددة في انتشار المذهب وازدهاره، ومن أهم هذه العوامل:

أولاً: احتضان الدولة العباسية للمذهب المالكي وتوليها أئمة القضاء

فقد ولوا القضاء عدداً كبيراً من أسرة آل حماد المالكية وغيرهم كإسماعيل القاضي الذي تولى القضاء «مدة اثنتين وثلاثين سنة، وقيل نيماً وخمسين سنة ما عزل عنه إلا سنتين»<sup>(1)</sup>، وابن عمه أبي عمر محمد بن يوسف الذي تولى القضاء من وفاة القاضي إسماعيل (ت282هـ) إلى مماته سنة (ت320هـ) ما عزل عنه إلا أيام فتنة ابن المعتز<sup>(2)</sup>.

### ثانياً: التدريس ونشر العلم

وقد اعتنى به أئمة المالكية البغداديون اعتناء كبيراً، فقد كانت حلقاتهم في بغداد والبصرة مشهورة من لدن ابن القعنبي، وابن المعدل، والقاضي إسماعيل، إلى أيام الأبهري الذي جعله شغله الشاغل ومهنته التي لا يبغى بها بديلاً، يقول الأبهري رحمته الله: «كتبت بخطي المبسوط، والأحكام لإسماعيل القاضي وأسمعة ابن القاسم وأشهب وابن وهب وموطأ مالك، وموطأ ابن وهب، ومن كتب الحديث والفقهاء ثلاثة آلاف جزء، ولم يكن لي قط شغل إلا العلم، ولي في هذا الجامع [يعني جامع المنصور ببغداد] ستون سنة أدرس الناس وأفتيهم وأعلمهم سنن نبيهم صلى الله عليه وسلم»<sup>(3)</sup>.

(1) الديباج (287/1).

(2) المدارك (10/5 - 12)، (299/4)، وابن المعتز هو: عبد الله بن المعتز، أحد خلفاء بني العباس، تولى الخلافة يوماً وليلة، فقتل سنة 296هـ.

(3) المدارك (186/6).

وقال أيضاً: «قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة، ومختصر البرقي<sup>(1)</sup>، خمسين مرة، والأسدية<sup>(2)</sup> خمساً وسبعين مرة، والموطأ خمساً وأربعين مرة»<sup>(3)</sup>.

وما تلميذه أبو بكر الباقلاني عنه ببعيد، فقد ذكروا أنه كانت له حلقة عظيمة بجامع المنصور ببغداد<sup>(4)</sup>.

### ثالثاً: مجالس المناظرة

كان أئمة المذهب يجتمعون لمناقشة القضايا المطروحة في الفقه، ثم يخرجون منها برأي موحد، ويبدو أنها كانت سنة متبعة عند أئمة المالكية البغداديين فقد ذكروا في ترجمة القاضي أبي عمر محمد بن يوسف أنه «كان يتناظر بين يديه أئمة المذهب»<sup>(5)</sup>، كما ذكروا أن أصحاب أبي بكر الأبهري كانوا «يجتمعون عند أبي الحسن بن أم شيبان للنظر»<sup>(6)</sup>.

ولا شك أن تدارس المسائل، ومناقشتها تقسيماً واستدلالاً وتصحيحاً، خصوصاً من طرف أئمة، وبين يدي إمام في العلم وفق منهج معين، من شأنها أن تساهم في بناء ذلكم المنهج وازدهاره.

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي، مولى بني زهرة (ت249هـ)، انظر: المدارك (181 . 180/4).

(2) نسبة إلى أسد بن الفرات.

(3) المدارك (186/6).

(4) الديباج (228/2).

(5) ترتيب المدارك (4/5).

(6) المدارك (194/6)، وأبو الحسن بن أم شيبان هو: محمد بن صالح بن محمد، ولي قضاء الكوفة وقضاء بغداد توفي سنة 369هـ.

انظر ترتيب المدارك (194/6).

## رابعاً: الانفتاح على المذاهب الأخرى وعدم التعصب

ولعل مما أسهم في انتشار المذهب المالكي وترسيخه في العراق، تفتح أصحابه على المذاهب الأخرى وعدم تعصبهم ضدها، مما فسح المجال في قلوب الناس، فنال أصحابه الاحترام والحظوة لديهم، جاء في ترتيب المدارك في ترجمة الأبهري رحمته الله «...ولم يعط أحد من العلم والرئاسة فيه، ما أعطي الأبهري في عصره من المؤلفين والمخالفين»، ولقد كان أصحاب الشافعي وأبي حنيفة إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم، يسألونه فيرجعون إلى قوله، وكان يحفظ قول الفقهاء حفظاً مشبعاً<sup>(1)</sup>.

وجاء أيضاً: «سئل الأبهري أن يلي القضاء فامتنع، فاستشير فأشار بأبي بكر الرازي<sup>(2)</sup>... وكان حنفي المذهب»<sup>(3)</sup>.

## خصائص المدرسة المالكية العراقية في هذه المرحلة

يمكن إبراز أهم خصائص ومميزات هذه المدرسة إبان هذه المرحلة في ما يأتي:

### أولاً: على مستوى المصادر المعتمدة

اشتهرت كل مدرسة باعتماد مصادر معينة في التدريس والتأليف والتصنيف، فمالكية القيروان وإفريقية والأندلس اعتمدوا على المدونة والواضحة، والعتبية، ومختصرها لابن أبي زيد القيرواني وملخصها الموسوم بـ التهذيب لأبي سعيد البرادعي، عرف مالكية العراق بالاعتماد

---

(1) ترتيب المدارك (186/6).

(2) هو أحمد بن علي المعروف بالجصاص، انتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي في عهده، وله مؤلفات منها أحكام القرآن، وشرح مختصر الطحاوي، توفي سنة 370 هـ، البداية والنهاية (256/11).

(3) ترتيب المدارك (188/6).

على مختصر عبد الله بن عبد الحكم، وعلى هذين الكتابين مع غيرهما عن مالك معول البغداديين من المالكية في المدارس<sup>(1)</sup>.

وترجع أسباب عناية مالكية العراف بمختصر ابن عبد الحكم إلى أمرين أساسيين هما:

الأول: القيمة العلمية لهذا المصدر الفقهي الأصولي، فهو كتاب جليل شهير المناقب غزير الفوائد يعد من أمهات كتب الفقه المالكي جمع فيه صاحبه سماعاته من مالك وبعض كبار أصحابه كابن القاسم وابن وهب وأشهب، يحوي ثماني عشرة ألف مسألة.

الثاني: المكانة العلمية السامقة المتميزة التي كان يتبوأها صاحب الكتاب، فهو إمام جليل ثقة، انتهت إليه رئاسة المذهب بمصر بعد أشهب، قال عنه ابن حبان: «عبد الله بن عبد الحكم ممن تفقه على مذهب مالك وفرّج على أصوله»<sup>(2)</sup>. وقال ابن عبد البر: «كان رجلاً صالحاً ثقة، محققاً لمذهب مالك»<sup>(3)</sup>.

#### ثانياً: على مستوى المنهج

يقول الإمام شهاب الدين أحمد المقرئ محدداً بعض الخصائص المنهجية للمدرسة المالكية العراقية في تناول مسائل المدونة: «وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحاً<sup>(4)</sup>»:

اصطلاح عراقي واصطلاح قروي - نسبة إلى القيروان، فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول

(1) انظر مقدمة المحقق للتفريع (94/1)، اصطلاح المذهب ص 155.

(2) الثقات لابن حبان (347/8).

(3) ترتيب المدارك (363/3).

(4) ويقصد بالاصطلاح ما يعبر عنه اليوم بالمنهج.

المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب . يعني المدونة .  
بتصحيح الروايات ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل  
وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين.

وأما الاصطلاح القروي، فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما  
احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه  
الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف  
المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار،  
وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل  
الإعراب أو خالفها»<sup>(1)</sup>.

ويستفاد من كلام هذا العالم ما يتميز به منهج العراقيين عن غيرهم،  
وهو تفريعهم لمسائل المدونة بإفراد كل مسألة بالذكر، ثم الاستدلال لكل  
مسألة بما لها من الأدلة . ويشمل هذا أدلة الكتاب والسنة وأدلة النظر  
والقياس . مع تحرير هذه الأدلة على طريقة أهل الجدل والأصول، وهي  
الطريقة التي كانت شائعة عندهم، سواء في حلق العلم أو فيما يضعونه من  
مؤلفات<sup>(2)</sup>.

ولا شك أن هذه الطريقة تمتاز بالتنظيم الفكري للمادة العلمية أكثر  
من الأخرى، وفيها من تسهيل المتابعة والتشويق إليها ما ليس في غيرها.

ويمكن تلخيص هذا المنهج في النقاط الآتية:

الأولى: الإكثار من تفریع المسائل الفقهية، وذلك بانتهاج أسلوب  
الفقه الفرضي أو التقديري الذي عرف به أهل العراق عموماً، وخاصة

---

(1) أزهار الرياض في أخبار عياض (22/3)، وانظر: اصطلاح المذهب ص 198 . 199 .  
(2) انظر: منهج كتابة الفقه المالكي بين التجريد والتدليل، للدكتور بدوي عبد الصمد الطاهر،  
بمجلة الأحمدية العدد الثاني، ص 139، اصطلاح المذهب عند المالكية ص 67.

الأحناف، نظراً للمستوى الحضاري المتميز الذي عرفته بغداد، بسبب المدينة المتطورة، خصوصاً في القرن الثالث والرابع، والتنوع البشري وما يحمل من عقليات متنوعة، إضافة إلى تكاثر الحوادث والنوازل الطارئة، بسبب الغنى المادي والازدهار الحضاري<sup>(1)</sup>.

الثانية: الإكثار من الاستدلال للمسائل الفقهية، وهو المنهج القائم على أساس إيراد المسائل الفقهية مقرونة بأصولها ومصحوبة بأدلتها العقلية والعقلية. وقد يرجع ذلك إلى منهج تأليف الموطأ، وهو منهج قائم على أساس بناء الفروع على الأصول، ولما كان لرواة الموطأ من المالكيين السبق في تعريف العراقيين بمذهب مالك ونشره بين أوساطهم، كان من الطبيعي أن يتأثر منهج التأليف عند أهل العراق بهذه الخاصية المنهجية<sup>(2)</sup>.

الثالثة: التركيز على أسلوب الحجج الجدلي في تحرير الأدلة ومناقشة المخالفين<sup>(3)</sup> والرد عليهم، وتفنيدهم مستنداتهم وحججهم، ودحض شبهاتهم، وكانوا في ذلك متأثرين بالبيئة العلمية لبلادهم، التي كانت تزخر بالنشاط الفكري المكثف، لكثرة العلوم والمعارف الإنسانية، وكذلك التيارات العلمية المختلفة.

وقد سائر فقهاء هذه المدرسة هذا الوضع فانتهجوا أسلوب الجدل والأدلة العقلية في مناقشاتهم وردودهم على المخالفين لهم وخاصة من الأحناف والشافعية.

---

(1) انظر بحث: المدرسة المالكية العراقية النشأة والمميزات للدكتور حميد لحر، أعمال الملتقى الأول للقاضي عبد الوهاب البغدادي (495/1).

(2) بحث المدرسة المالكية العراقية النشأة والمميزات للدكتور حميد لحر، أعمال الملتقى الأول للقاضي عبد الوهاب البغدادي (466/1).

(3) انظر: المدرسة الفقهية المالكية بالعراق للدكتور عبد المنعم التمساني، أعمال الملتقى الأول للقاضي عبد الوهاب البغدادي (459/1).

وإذا استعرضنا عناوين المؤلفات العلمية في هذه المرحلة نتأكد من صحة هذه الخبيصة ومن هذه الكتب:

### 1 . كتب مستهدفة، ومنها:

- الرد على أبي حنيفة للقاضي إسماعيل بن إسحاق.
- الرد على الشافعي في مسألة الخمس وغيره للقاضي إسماعيل بن إسحاق.
- الرد على المزني للقاضي عبد الوهاب.
- كتاب الرد على ابن علي فيما أنكره على مالك لأبي جعفر الأبهري (ت365هـ).

### 2 . كتب الخلاف العالي، ومنها:

- كتاب كبير في الخلاف لأبي بكر بن خويز منداد.
  - أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة للقاضي عبد الوهاب.
  - الرابعة: الاهتمام بالتقعيد الفقهي والتخريج على أصول المذهب
- اهتم مالكية العراق في هذه المرحلة بفن التقعيد، فكانت عنايتهم متجهة إلى تأصيل الأصول وتقعيد القواعد، فنظروا في فتاوى مالك وأقواله، وبحثوا في أدلته ومصادره فاستخلصوا القواعد الأصولية والفقهية التي بنى عليها مالك فقهه، وإن كان لم ينص عليها. وأمكن معرفة ذلك من آثارهم التي وصلت إلينا ومنها:
- اللُّمَع في أصول الفقه للقاضي إسماعيل بن إسحاق
  - كتاب التقريب والإرشاد في أصول الفقه لأبي بكر الباقلاني.
  - كتاب الإشراف على مسائل للخلاف للقاضي عبد الوهاب.
  - عيون الأدلة للقاضي أبي الحسن بن القصار.
  - التفریع لأبي القاسم بن الجلاب.

كما اهتموا بتخريج المسائل الجزئية التي لم يرد فيها نص عن الإمام وإلحاقها بما يشبهها من المسائل المروية عنه، أو بإدخالها تحت قاعدة من قواعده<sup>(1)</sup>.

وتظهر فائدة التخريج في إيجاد الحلول المناسبة للأحداث الطارئة والنوازل الجديدة التي يواجهها الفقيه أو المفتي، وكتابي الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب والتفريع لابن الجلاب مليان بهذا النوع من التخريج.



---

(1) والتخريج بهذا المعنى هو الذي تكلم عنه الفقهاء والأصوليون في مباحث الاجتهاد والتقليد، وفي الكتب المتعلقة بأحكام الفتوى، انظر: التخريج عند الفقهاء والأصوليين، للدكتور الباسين.



# ملاحم من المدرسة الفقهية المالكية المصرية

## في هور التوسع والانتشار

الإمام القرافي (ت 684هـ - 1285م) أنموذجا

كح الدكتور عبد القادر به عزوز

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر

ساهمت المدرسة الفقهية المصرية المالكية في طور الانتشار والتوسع في بناء الثروة الفقهية المالكية والتأصيل الفقهي والأصولي للمدرسة المالكية نظرا لموقعها بين المشرق والمغرب فاستفادت من المدرسة المدنية أو المدرسة الأم وكذا المدرسة العراقية ومن جهة المغرب من المدرسة الشمال إفريقية والأندلسية من جهة ولكونها ثاني مدرسة تؤسس بعد مدرسة المدينة، ولما ضمته من كبار تلاميذ الإمام مالك وأتباعه، كعثمان بن الحكم الجذامي (ت 163هـ)، وابن القاسم (ت 191هـ)، وعبد الله بن عبد الحكم (ت 214هـ)، وأشهب بن عبد العزيز (ت 203هـ)، وخليل بن إسحاق (ت 776هـ)، والقرافي (ت 684هـ) وغيرهم من جهة ثانية، فأصبحت بذلك بمثابة الوسيط بين مجموع المدارس الفقهية المالكية تؤثر وتتأثر.

ولعل من أبرز الفقهاء الدالين على السمات العظيمة للمدرسة المصرية المالكية ما خلفه لنا الإمام القرافي من مؤلفات عموما وما سأعرضه من كتابه الذخيرة على وجه الخصوص كدراسة تطبيقية تبين مميزات هذه المرحلة من التطور عموما وتعطينا صورة جلية تقريبية عن المدرسة المصرية على وجه الخصوص.

## المبحث الأول: التعريف بالإمام القرافي

أولاً: نسب الإمام القرافي: هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن أبي العلاء إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله بن يمين الصنهاجي البهفشيبي البهنسي القرافي المصري<sup>(1)</sup>.

ثانياً: شيوخه: تتلمذ الإمام القرافي على جملة من الشيوخ ومن أشهرهم ابن الحاجب، والعز بن عبد السلام وزكي الدين عبد العظيم المنذري<sup>(2)</sup> وغيرهم...

ثالثاً: مؤلفاته: ألّف الإمام القرافي جملة من الكتب أذكر منها: الذخيرة في الفقه، وشرح التهذيب، وشرح الجلاب، وشرح المحصول في أصول الفقه، والتنقيح في أصول الفقه وغيرها من المؤلفات المفيدة<sup>(3)</sup>.

رابعاً: مكانته العلمية: قال صاحب الديباج: «..انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك ﷺ تعالى وجد في طلب العلم فبلغ الغاية القصوى... كان إماماً بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية وله معرفة بالتفسير...»<sup>(4)</sup>.

## المبحث الثاني: بعض الملامح المميّزة للمدرسة الفقهية المالكية المصرية من خلال الذخيرة

تميّزت مرحلة التوسّع والانتشار في المدرسة المالكية عموماً والمصرية خصوصاً بجملة من الميزات أو الملامح تغيّرها عن المرحلة التي سبقتها من التأسيس والتي أجملها فيما يأتي:

(1) الديباج المذهب، ابن فرحون، دار الكتب العلمية، بيروت: 62.

(2) الإمام شهاب الدين القرافي وأثره في الفقه الإسلامي، عبد الله إبراهيم صلاح، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، ط خريف 1991م: 83.

(3) الديباج المذهب: 64.

(4) الديباج المذهب: 62-63.

## الملمح الأول: من حيث طريقة التأليف

تميّزت المدرسة الفقهية المالكية المصرية بطريقة في التأليف قد تتميز بها عن غيرها من المدارس عموماً والتي تظهر جلية في مؤلفات شيوخها الفقهية

### 1 . الاهتمام بمقدمة الكتاب

تميّزت مؤلفات المدرسة الفقهية المصرية باهتمام علمائها بتصدير المؤلف لكتابه بمقدمة تتضمن بيان الهدف من التأليف وتحديد المصطلحات المستعملة في الكتاب وغالباً ما تكون أصولية، وقد يصدره بمقدمة يبين فيها فضل العلم كوسيلة لشحذ الهمم وكذا سبب اختيار هذا المذهب الفقهي دون ذلك.

ومثال ذلك ما جاء في كتاب الذخيرة إذ صدر القرافي كتابه بمقدمة بين فيها فضيلة العلم وآدابه إذ قال: «...أما بعد: فإن الفقه عماد الحق، ونظام الخلق، ووسيلة السعادة الأبدية، ولباب الرسالة المحمدية، من تحلى بلباسه فقد ساد ومن بالغ في ضبط معالمه فقد شاد. ومن أجله تحقيقاً، وأقربه طريقاً: مذهب إمام دار الهجرة النبوية، واختيارات آرائه المرضية...»<sup>(1)</sup>.

وجاء في موضع آخر في بيان الهدف من تأليف كتابه الذخيرة قوله: «وقد آثرت أن أجمع بين الكتب الخمسة التي عكف عليها المالكيون شرقاً وغرباً، حتى لا يفوت أحداً من الناس مطلب ولا يعوزه أرب. وهي المدونة، والجواهر، والتلقين، والجلاب، والرسالة جمعاً مرتباً بحيث يستقر كل فرع في مركزه، ولا يوجد في غير حيزه، على قانون المناسبة في تأخير

---

(1) الذخيرة، القرافي، تحقيق د/محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1994/01م: 34/1.

ما يتعين تأخيره أو تقديم ما يتعين تقديمه من الكتب والأبواب والفصول متميزة الفروع حتى إذا رأى الإنسان الفرع، فإن كان مقصوده طالعه وإلا أعرض عنه، فلا يضيع الزمان في غير مقصود»<sup>(1)</sup>.

## 2. توثيق نقل النصوص الفقهية

اهتم علماء المدرسة الفقهية المالكية المصرية بمراعاة توثيق النصوص المنقولة عن شيوخ المدرسة المالكية، لما في ذلك من نقل أصح الروايات في المسائل الفقهية في المذهب، وكذا لرفع الخلاف المذهبي فيها ومثاله قول القرافي: «وأعزى الفرع إلى المدونة إن كان مشتركا بينها وبين غيرها أو خاصا بها، فإن لم يكن منها عزوته لكتابه ليكون الفقيه على ثقة من نقله لعلمه بالكتاب المنقول منه ومتى شاء راجعه».

ثم يقول: «ومتى وجدت الفرع أتم في كتاب نقلته منه وأعرضت عن غيره، وإن كان منقولاً فيه إلا المدونة فإنني أدأب في استيعابها غير أول الطهارة فإنه مستوعب من غيرها، فإنه نزر...»<sup>(2)</sup>.

ومثاله قوله: الطرف الثالث: فيما يستنجى به: وفي الجواهر: هو الماء والحجار، وجمعهما أفضل، لإزالة العين والأثر، ولأن أهل قباء كانوا يجمعون بين الماء والأحجار فمدحهم الله تعالى...»<sup>(3)</sup>.

فهو ينسب القول في مسألة الجمع بين الماء والاستجمار إلى كتاب الجواهر.

---

(1) الذخيرة: 36/1.

(2) الذخيرة: 36-37/1، والمذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته - خصائصه وسماته، محمد المختار محمد المامي، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ط 2002-011422م: 120.

(3) الذخيرة: 208/1.

3 . استعمال أسلوب الاختصار: اعتمدت المدرسة المصرية إلى استعمال أسلوب الاختصار لما في ذلك من تسهيل نقل المعلومة وسهولة فهمها وتلقيها واستيعابها.

قال القرافي مبينا ذلك: «ومتى كانت فروع منقولة عن واحد سميته في الفرع، واقتصر بعد ذلك على قولي قال ولا أسميه طلبا للاختصار»<sup>(1)</sup>. ويقول في موضع آخر: «وقد جعلت الشين للشافعي، والحاء علامة لأبي حنيفة تقليلا للحجم، والأئمة علامة للشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل، والصحاح علامة لمسلم والبخاري والموطأ»<sup>(2)</sup>.

ومثاله: «قال صاحب الطراز: إذا كان اللمس من وراء حائل خفيف يصل بشرتها إلى بشرته وجب الوضوء خلافاً لـ ش لوجود اللذة»<sup>(3)</sup> ورمز للشافعي بحرف "ش".

4 . تحديد مصادر نقل النصوص: انتهجت المدرسة المصرية المالكية منهج تحديد أو ذكر المصادر العلمية المذهبية الفقهية أو الأصولية التي اعتمدها في نقل النصوص أو الأقوال، لما في تحديد مصادر النصوص المنقولة تسهيل على القارئ طريقة التحقق من صحة المعلومة أو الفتوى المنقولة ومراجعتها.

قال القرافي: «واخترت أن أقول: قال صاحب البيان أو قال صاحب المقدمات أو صاحب النكت لأجمع بين القائل والكتاب المقول فيه، فإن صاحب البيان قد ينقل في المقدمات، وصاحب النكت قد ينقل في تهذيب الطالب. ومتى قلت: قال المازري، فهو في شرح التلقين، وتركته لطول الاسم»<sup>(4)</sup>.

(1) الذخيرة: 37/1.

(2) الذخيرة: 38/1.

(3) الذخيرة: 227/1.

(4) الذخيرة: 37/1.

ويقول أيضا في بيان معتمده في المسائل الأصولية: «واعتمدت في هذه المقدمة على أخذ جملة كتاب الإفادة للقاضي عبد الوهاب... وجملة الإشارة للباغي، وكلام ابن القصار في أول تعليقه في الخلاف وكتاب المحصول للإمام فخر الدين...»<sup>(1)</sup>.

**5 - بيان طريقة الاختيارات الفقهية:**..يقول القرافي: «وأقدم المشهور على غيره من الأقوال، ليستدل الفقيه بتقديمه على مشهوريته إلا أن يتعذر ذلك لتساوي القوال، أو لوقوع الخلاف بين الأصحاب في المشهور اختلافا على السواء، وهذا قليل في المذهب يعلم بقرينة البحث فيه»<sup>(2)</sup>.

ومثاله قوله في مسألة مس المصحف: «تحقيق: قد توهم بعض الفقهاء أن هذه النصوص لا تتناول الصبيان كسائر التكاليف، فكما لا يكون تركهم لتلك التكاليف رخصة، فكذلك هاهنا، وليس كما ظن، فإن النهي عن ملامسة القرآن لغير المتطهرين كالنهي عن ملامسته لغير الطاهر، من جهة أن كل واحد منهما لا يشعر بأن المنهي عن ملامسته موصوف بالتكليف أو غير موصوف، فيكون الجواز في الصبيان رخصة»<sup>(3)</sup>.

**6 - اعتماد منهج الفقه المقارن:** اعتمدت المدرسة الفقهية المصرية منهج نقل وتوثيق الأقوال للمذاهب الفقهية من شافعية وحنفية.

قال القرافي: «وقد آثرت التنبية على مذاهب المخالفين لنا من الأئمة الثلاثة رحمهم الله وما أخذهم في كثير من المسائل، تكميلا للفائدة، ومزيادا في الاطلاع، فإن الحق ليس محصورا في جهة، فيعلم الفقيه أي المذهبين أقرب للتقوى، وأعلق بالسبب الأقوى»<sup>(4)</sup>.

---

(1) الذخيرة: 55/1.

(2) الذخيرة: 37/1.

(3) الذخيرة: 239/1.

(4) الذخيرة: 38-37/1.

7 - نسبة الاجتهادات الفقهية المذهبية لأصحابها: اجتهدت المدرسة الفقهية المالكية المصرية في العمل وفق منهجية نسبة الأقوال الفقهية إلى أصحابها ليتمكن القارئ أو طالب العلم من التعرف على أصحابها.

قال القرافي: «وأضيف الأقوال إلى قائلها إن أمكن ليعلم الإنسان التفاوت بين القولين بسبب التفاوت بين القائلين، بخلاف ما يقول كثير من أصحابنا في المسألة قولان من غير تعيين، فلا يدري الإنسان من يجعله بينه وبين الله تعالى من القائلين».

ثم يقول: «ولعل قائلهما واحد وقد رجع عن أحدهما، فإهمال ذلك مؤلم في التصانيف»<sup>(1)</sup>.

ومثاله قوله: «يتيمم الحاضر إذا فقد الماء وخشي فوات الوقت قبل الوصول إليه. قال ابن القاسم: وكذلك المسجون. وقال صاحب الطراز: في المسألتين ثلاثة أقوال:

- أحدها: ما مرّ.

والثاني: الإعادة بعد الوقت إذا وجد الماء لمالك أيضا والشافعي.  
والثالث: أن الحاضر يطلب الماء وإن طلعت الشمس إلا أن يكون له عذر، لمالك أيضا في الموازية. وهو قول أبي حنيفة: إنه لا يتيمم حاضر إلا مريض أو محبوس. قال ابن شاس: قال ابن حبيب: الذي رجع إليه مالك أن يعيد أبدا»<sup>(2)</sup>.

8 - الاهتمام بعلوم الآلة: تعتبر علوم الآلة وسائل مهمة تخدم الاجتهاد الفقهي كعلم اللغة ومعرفة معاني المفردات والاشتقاقات، ولهذا عمد القرافي إلى الاستعانة بها تسهيلا للقارئ لفهم أصول المسائل

(1) الذخيرة: 38/1.

(2) الذخيرة: 345/1.

الخلافة ومنه جاء قوله: «وأودعته - أي الذخيرة - ما تحتاجه الأبواب من اللغة في الاشتقاق وغيره، وما تحتاجه من النحو»<sup>(1)</sup>.

ومثاله: قوله: «الطهارة في اللغة: التبرئة من الأدناس، ويقال: طهر - بضم الهاء وفتحها - طهارة فيهما، والطهر وهو أيضا ضد الحيض والمرأة طاهرة من الدنس والعيوب...»<sup>(2)</sup>.

**9** - الاهتمام بتخريج الأحاديث المتعلقة بالمسائل الفقهية: إن في تخريج الأحاديث المستشهد بها على المسائل الفقهية تقوية للاجتهد الفقهي وحجة لقائله وبيانا لطريقة توجيه الدليل ولهذا السبب اشتغل الإمام القرافي بتتبع الروايات الحديثية. فقال مبينا لذلك: «وأضيف الأحاديث إلى مصنفها لتقوية الحجة في المناظرة، والعلم بقوة السند من ضعفه، وأتكلم على الأحاديث بما تحتاجه من إشكال أو جوابه فيه أو إثارة فائدة منه»<sup>(3)</sup>.

ومثاله قوله: «القسم الثاني: وهو ما تغير لونه أو طعمه أو ريحه بنجس. وفي الجواهر: خالف عبد الملك في الرائحة، وقيل: قوله منزل على المجاورة دون الحلول لما في الترمذي قيل له عليه السلام: أنتوضأ من بئر بضاعة، وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والتتن؟ فقال عليه السلام: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»، يعني إلا ما غيره، وقال حديث حسن...»<sup>(4)</sup>.

**10** - الاهتمام بنقل آثار الصحابة والتابعين: اهتم الإمام القرافي في الذخيرة بنقل آثار الصحابة والتابعين وكذا نقل أقوال المذاهب الفقهية التي اندثرت مصادرهما كمذهب سفيان الثوري والأوزاعي وداود الظاهري وابن جرير الطبري.

(1) الذخيرة: 38/1.

(2) الذخيرة: 163/1.

(3) الذخيرة: 38/1.

(4) الذخيرة: 172/1.



ومثاله قوله: «وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يسخن له الماء في الضُفْر»<sup>(1)</sup>.

**11 - الاهتمام ببيان المسائل الأصولية و القواعد الكلية والمقاصدية المتعلقة بالفروع الفقهية:** اهتم الإمام القرافي ببيان المسائل الأصولية التي يبني عليها الحكم الفقهي وما يتعلق به من المصالح الشرعية يقول القرافي: «وأودعته من أصول الفقه وقواعد الشرع وأسرار الأحكام وضوابط الفروع ما فتح الله علي به من فضله»<sup>(2)</sup>.

ويقول أيضا: «فإن كل فقه لم يخرج على القواعد فليس بشيء»<sup>(3)</sup>.

ومثاله: قوله: «القاعدة الثالثة: المقاصد من الأعيان في العقود، إن كانت متعينة استغنت عما يعينها كمن استأجر بساطا أو قدوما أو ثوبا أو عمامة لم يحتج إلى تعيين المنفعة في العقد لانصراف هذه الأشياء بصورها إلى مقاصدها عادة»<sup>(4)</sup>.

**12 - الاهتمام ببيان أصول المذهب المالكي في الاجتهاد:** اهتمت المدرسة الفقهية المالكية المصرية ببيان أصول الإمام مالك الاجتهادية حتى يسهل على طالب العلم القاصد للحصول على رتبة الاجتهاد المذهبي أن يعرف الأسس التي بنى عليها الإمام مالك اجتهاده أو مدرسته، ومنه جاء قول القرافي: «وبينت مذهب مالك رضي الله عنه في أصول الفقه ليظهر علو شرفه في اختياره في الأصول كما ظهر في الفروع، ويطلع الفقيه على موافقته لأصله أو مخالفته له لمعارض أرحح منه، فيطلبه حتى يطلع على مدركه ويطلع المخالفين في المناظرات على أصله»<sup>(5)</sup>.

---

(1) الذخيرة: 170/1.

(2) الذخيرة: 39/1.

(3) الذخيرة: 39/1.

(4) الذخيرة: 243/1.

(5) الذخيرة: 55/1.

## الملمح الثاني: من حيث طريقتها في الاجتهاد الفقهي

تميزت المدرسة المصرية في منهجها الاجتهادي بجملة من الميزات  
أجملها في الآتي<sup>(1)</sup>:

- 1 . الانتقال من طور التأليف المعتمد منهج المختصرات إلى مرحلة المطولات.
- 2 . ومن مرحلة جمع أقوال المذهب إلى مرحلة التفريع وبناء الفروع على الأصول.
- 3 . توسيع دائرة الاجتهاد الفقهي لتتوسع إلى الفقه الافتراضي.
- 4 . التوسع في رواية الحديث بعدم الاكتفاء بالرواية الحديثية الواردة في الموطأ وحسب، بل تعدت إلى الاستشهاد بالروايات الأخرى الواردة في كتب السنة.
- 5 . انتشار الجدل والمناظرة الفقهية بحكم البيئة المصرية التي فيها منافسة المدرسة الشافعية.
- 6 . الاهتمام باستنباط أصول الإمام مالك الاجتهادية وبيان مصادره في ذلك...

وفي الأخير، فإن المدرسة المصرية المالكية تعتبر حلقة مكملة لباقي المدارس الفقهية المالكية خصوصا والإسلامية عموما، ساهمت في تطوير والمذهب المالكي ونشره، وبينت أصوله وحدوده، ولا زالت اجتهاداتها الفقهية مقصد الفقهاء على اختلاف مذاهبهم في الفتوى بما خلفوه وراءهم من علم غزير تضمنته كتبهم الفقهية والأصولية...



---

(1) مدارس مصر الفقهية في القرن الثالث الهجري، د/محمد نبيل غنايم، دار الهداية، مصر، ط1419/01هـ - 1998م: 135-137.

# انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب

دكتور خير الدين سيب

قسم العلوم الإسلامية، جامعة تلمسان

## مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا  
محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين،  
و بعد،

فقد تكوّنت في أنحاء العالم الإسلامي "خلايا مالكية" قوامها أولئك  
الذين تتلمذوا على مالك والتزموا مذهبه وأصوله الاستنباطية الفقهية،  
وتطوّرت هذه الفروع لتصبح فروعاً باسقة لدوحة عظيمة، بل لتصبح كلّ  
خليفة منها مدرسة (مدرسة المدينة، ومدرسة العراق، ومدرسة مصر،  
ومدرسة المغرب، مدرسة الأندلس) تحت راية المدرسة المذهبية الكبرى،  
ولكلّ مدرسة نشاطها العلمي الذي تميّز به منهجاً استنباطياً، وترجيحاً  
فقهياً، وكتباً معتمدة. ولعلّ ظهور هذه المدارس بعد وفاة الإمام يعود على  
ثلاثة عوامل رئيسة:

**1 - منهج الإمام مالك الاستنباطي وأصوله التي بنى عليها المذهب،  
ومنه أنّه استدللّ بنوعين من السنة.**

أ - السنة المرفوعة المتمثلة في الأحاديث الصحيحة.

ب - السنة الأثرية وهي أقوال الصحابة، وفتاويهم، وعمل أهل  
المدينة، وأعرافهم.

2. التّخصّص المزدوج لإمام المذهب ( الحديث والفقّه)، وقد ظهر تأثير كلّ واحدٍ منها على بعض تلاميذته، فمنهم من اشتهر بالحديث مع استيعابهم لفقّه الإمام (ابن الماجشون، وابن وهب من المصريين، وابن حبيب من الأندلسيين)، وآخرون اشتهروا بالفقّه مع تلقّيه الموطّأ عن الإمام أشهرهم (عبد الرّحمن بن القاسم)، وإن كان بعض متأخري المالكيّة أخذوا بالتّوفيق بين الاتّجاهين.

3. البيئّة العلميّة: ساعدت البيئّة العلميّة الفقهيّة في العراق على نشوء منهج يختلف عن المنهج الذي كان سائدا في المدينة المنوّرة.

### 1. المدرسة المغربيّة (إفريقيا = القيروان، تونس، فاس):

أنشأ المدرسة المالكيّة بالقيروان وأرسى دعائمها المحدّثون والفقهاء الذين رحلوا للإمام مالك وأخذوا عنه بالمدينة أثناء حياته، وتُشير المصادر التّاريخية إلى أنّ عدد الأفرقة الذين أخذوا عن الإمام في تلك الفترة يزيد على الثلاثين، وفي هذا يقول محمد بن الحارث الخنشي: «كانت إفريقيا قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس، لأنّه رحل أكثر من ثلاثين رجلا كلّهم لقي مالكا وسمع منه وإن كان الفقّه والفتيا في قليل منهم»<sup>(1)</sup>.

ومن الذين يمكن ذكرهم عبد الله بن فروخ الفارسي (176هـ)، والبهلول بن راشد (183هـ)، وعلي بن زياد التونسي (183هـ)، وأبو علي شقران القيرواني (186هـ)، وعبد الله بن غانم القاضي (190هـ)، وأسد بن الفرات (213هـ)، وعنبسة بن خارجة الغافقي (220هـ)، وعبد بن أبي

---

(1) تراجم أغلبية ص: 93، وتاريخ المذهب المالكي - خليفة بابكر حسن - مكتبة الزهراء - ط. 1. 1422هـ. 2001م - ص: 27.

حسّان اليخضبي (277هـ)، وعبد الرحمن بن أشرس (لم يذكر تاريخ وفاته)<sup>(1)</sup>.

لقد عاد أولئك الفقهاء بعد أخذهم عن الإمام مالك وهم يُحدّثون بالأحاديث التي رواها ويفتون بما سمعوا منه من آراء في القضايا والمسائل الفقهية، كما روى بعضهم عنه الموطأ، وعنهم أخذ تلامذتهم وبذلك تمكّن الفقه المالكي في القيروان وازدهر في العالم الإسلامي كله، واشتهر من هؤلاء التلاميذ: سحنون بن سعيد التّوّخي (240هـ)، ومحمّد بن سحنون (255هـ)، ومحمد بن عبدوس (260هـ)، وأبو بكر محمّد بن اللّباد (333هـ)، وابن أبي زيد القيرواني (386هـ)، والقابسي (403هـ)، وأبو القاسم بن محرز القيرواني (450هـ)، واللّخمي (478هـ).

ولم يقتصر شأن مدرسة القيروان على ازدهار الفقه فيها فقط، وإنّما تبع ذلك أن كانت ذات أثر في مدرستين كان لهما خطرهما ودورهما المقدر في خدمة المذهب المالكي وهما مدرسة الأندلس، ومدرسة فاس<sup>(2)</sup>.

## 2. خصائص المدرسة المالكية بالقيروان

تدين المدارس المالكية والتي غطّت كلّ حواضر العلام الإسلامي في خصائصها وطرقها إلى طبيعة المذهب المالكي الخصبة المتمثلة في كثرة مصادره وتنوّع ينابيع فقهه من اعتماد على الحديث، وعمل أهل

---

(1) المصدر نفسه والصفحة، وطبقات علماء إفريقيا وتونس - أبو العرب - الجزائر - الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب - د.ط. - د.ت. - ص: 126 - 138، والديباج المذهب - ابن فرحون المالكي - ت: محمد الأحمدى - بيروت - دار الكتاب الغربي - د.ط. - د.ت. - ج: 2 - ص: 92.

(2) الفكر السامي - محمد بن الحسن الحجوي - ت: أيمن صالح شعبان - لبنان - بيروت - دار الكتب العلمية - د.ط. - د.ت. - ج: 2 - القسم الثالث ص: 119.

المدينة، واهتداءً بمقاصد الشريعة في تحقيق المصالح ودرء المفاسد عن طريق قاعدتي المصالح المرسلة وسد الذرائع، وهما قاعدتان لهما تطبيقات كثيرة في فقه الإمام مالكٍ نفسه في الموطأ، هذا فضلاً عن بعض الخصائص الأخرى التي اكتسبتها كلُّ مدرسةٍ من طبيعة البيئة وظروفها التي نشأت وترعرعت فيها وتأثرت بثقافتها وأطروحاتها.

كانت مدرسة المدينة ملتزمة بالاعتماد على الحديث، في حين كانت المدرسة العراقية ذات منهجٍ يعتمد على الرأْي مُتأثرةً بالبيئة التي سادت فيها، أمَّا المدرسة المصريَّة فأتسم منهجُها على العموم بالاعتماد على الحديث وعمل أهل المدينة أو السنة الأثرية، على أن فقهاء القيروان تمايزوا حيث إنَّ بعضهم يرى تقديم الأحاديث الصَّحيحة عن العمل . طريقة مدرسة المدينة . منهم ابن وهب، في حين كان أكثرهم يعتمد الأحاديث التي يُؤيِّدها ويشهد لها عمل أهل المدينة وعلى رأسهم إمام المدرسة عبد الرَّحمن بن القاسم العتقي(ت191هـ)<sup>(1)</sup>.

وعلى ذات الطريقة كانت المدرسة القيروانية التي تميزت بإنتاجها لطريقة الإمام مالك في الموطأ فهي طريقة . كما يقول الشيخ النيفر :- «أُنبئت على فقه الموطأ المؤسَّس على الدَّعائم الصَّحيحة من الحديث والآثار وغير ذلك مما وقف عليه مالك بن أنس رضي الله عنه وبنى عليه مذهبه المدعَّم بما عليه الجماعة بالمدينة المنورة، لأنَّها هي التي يجب أن يُردَّ إليها الأمر، فإذا اجتمع أهلها على شيءٍ واتَّبَعهم النَّاس في ذلك صلح الأمر وإلَّا تبدَّد شذر مدر»<sup>(2)</sup>.

(1) أزهار الرياض - ج: 3 - ص: 22، دراسات في تاريخ المذهب - خليفة بابكر الحسن - ص: 28، 29.

(2) موطأ الإمام مالك قطعة منه برواية علي بن زياد - تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر - بيروت - دار الغرب الإسلامي - د.ط - د.ت - ص: 46

ولشدة حرص هذه المدرسة على اتباع هذه الأصول كان منهجهم «تصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات...، ومع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع»<sup>(1)</sup>.

ومع تميز المدرسة القيروانية بهذه الخاصية - الطريقة المدنية نفسها في امتداداتها الأولى - إلا أنها عرفت بعض الفقهاء الذين كانت لهم نزعات نحو الرأي منهم: عبد الله بن فروخ، وأسد بن الفرات، إلا أن تلك النزعات غالباً ما تُردُّ إلى الطريقة المدنية الصحيحة كما فعل سحنون مع آراء أسد ابن الفرات التي تضمّنتها الأسدية والتي سنشير إليها لاحقاً

### 3. أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب الإسلامي:

إنّ المتأمل في مسيرة الفقه الإسلامي لا يلبث أن يشدّ انتباهه ظاهرة فريدة ومتميزة تخصّ المغرب الإسلامي، والتي تكمن في أنّ المذاهب الفقهية - عدا المذهب المالكي - ما لبثت أن تقلص نفوذها وضمحل وجودها بعد انتشارها بزمن ليس بالطويل، وهذه الظاهرة التي يميّز بها المغرب الإسلامي عن سائر الأقطار الإسلامية الأخرى لندعونا إلى التساؤل: لماذا انتشر هذا المذهب دون غيره؟ وكيف استمرّ؟.

### 3.1. مدخل تاريخي

ما لبث أوائل المغاربة الذين أسلموا أن أحسوا بواجبهم اتّجاه فهم هذا الدين وتعلّم أحكامه، ثمّ الالتزام بتعاليمه وأوامره ونشره في المناطق الخام التي لم تعرف بعد هذا الدين أو لم تتقبّله جيّداً، لذا تراهم يرحلون من أجل تعلّم هذا الدين إلى الكوفة والبصرة، ودمشق، ومصر، فضلاً عن

(1) أعلام الفكر الإسلامي - ص: 61، وأزهار الرياض - ج: 3 - ص: 22.

مكة والمدينة، ولم يكتفوا بالأخذ عن الصحابة الذين دخلوا إفريقيا أو التابعين الذين استقرّوا بها أو الذين زاروها ثم رجعوا إلى إقامتهم دون أن ننسى الوفد الذي أرسلته السلطة السياسية الحاكمة في دمشق في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وبدأ بهذا انتشار العلم بالمغرب الإسلامي بالتعلم في الوطن أولاً ثم بالرحلة إلى الحواضر العلمية للاستزادة ثانياً .

وبعد عودة الذين رحلوا لطلب العلم إلى بلادهم بدأت فكرة انتشار مذاهب فقهية معينة في بلاد المغرب، خاصة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك بن أنس، وبدرجة أقل مذهب الأوزاعي. ثم كثر أتباع الإمام مالك وانتشروا في البلاد انتشاراً واسعاً حتى استحوذ هذا المذهب على الساحة الفقهية المغاربية وصار لا يفتى إلاّ به ولا يؤلّى إلاّ من انتسب إليه، وبذلك تشكّل واقع متميّز عمل على انحسار المذاهب المنافسة أو تحجيمها على الأقل، حتى أنّ الرّحالة المغاربة كانوا يتفاجؤون من تعدّد المذاهب التي يرونها في رحلاتهم إلى المشرق، إضافة إلى بعض التصريحات الدالة على هذه السيادة، مثل ما قاله ابن التّبان: «لو نُشِرت بين اثنين ما خالفت مذهب مالك» أو مثلما تُعبّر عنه بعض الأمثال الشعبيّة الشائعة: «سيدي خليل والألفيّة الحكمة ثمّة مخفيّة»، دون أن ننسى تأثر القوانين الحاليّة بالمذهب المالكي خاصّة ما تعلق بشؤون الأسرة، فهذه الأدلّة وغيرها تُوكّد سيادة المذهب المالكي على الرّبوع المغربيّة وإذا ما حاولنا معرفة أسباب انتشاره وشيوعه في هذه الرّبوع فإنّنا نجد اختلافاً بين الباحثين في المسألة، فمنهم من يُرجع ذلك إلى:

### 3. 2. السبب الأول: تأثير الإمام مالك بن أنس على المغاربة:

لقد كان لشخصية مالك بن أنس صاحب المذهب المتميّزة أبلغ تأثير في تحبيب مذهبه إلى النّاس عامّة والمغاربة خاصّة، ويتّضح ذلك لمن يُطالع ترجمته . في أخلاقه العاليّة واهتمامه بالطلّبة المغاربة.



فأما أخلاقه: فكان المعروف عنه الكرم ومحبة الناس والتواضع والحرص على الخير والزهد في ما في أيدي الناس عامة والولاية خاصة، إضافة إلى تهيئه الشديد من الفتوى وتحريه لما ينقل ويروي من حديث النبي ﷺ وإقباله على ما ينفع وتركه خلاف هذا، مع ما عُرف عنه من توقيف حديث رسول الله ﷺ، كل هذا وغيره مكن حبه من التوطد في قلوب الناس فكانوا لا يخرجون عن حكمه ولا يعقبون على رأيه ولا يفتنون ومالك في المدينة.

وأما عنايته بالطلبة المغاربة: فقد كان شديد العناية بالطلبة عموماً حتى قال للمهدي لما طلب السماع منه: «هذا شيء يطول عليك، ولكن أكتبها لك وأصححها وأبعثها إليك»، ولما جاءه كتاب ابن غانم يوصيه بعبد الله بن أبي حسان اليحصبي أكرمه حتى قال عبد الله: «فلم أزل عنده مكرماً، وأما الطلبة المغاربة فلم يكن يزدريهم كما فعل زفر بن الهذيل تلميذ أبي حنيفة الذي كان يزدري عبد الله بن فروخ، بل كان يثني عليهم ويقول: «إن أهل الأمن والذكاء والعقول من أهل الأمصار ثلاثة: المدينة ثم الكوفة ثم القيروان»، فكان لسلوكه هذا الأثر الحسن في نفوس المغاربة.

ومما ساعد على نمو هذه العلاقة تفسير العلماء لحديث النبي ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَضْرِبَ النَّاسُ أَكْبَادَ الْإِبِلِ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ فَلَا يَجِدُونَ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْمَدِينَةِ» قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «كُنَّا نَسْمَعُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ إِنَّهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ»<sup>(1)</sup>، وقد قال العلماء إن مالك بن أنس هو المقصود بالحديث، وكان هذا التفسير بمثابة الحجة الشرعية الدالة على مبلغ علم الإمام مالك، وهذه الميزة لا تتوفّر لأيّ مذهبٍ من المذاهب الأخرى.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند - ج: 2 - ص: 299، والترمذي في الجامع، والعارضه - ج: 10 - ص: 152، والتمهيد - ابن عبد البر - ج: 6 - ص: 35، والمدارك - ج: 1 - ص: 68 وغيرها.

### 3.3 - السبب الثاني: تأثير التلاميذ والأتباع

ويتضح تأثيرهم من الناحيتين التاليتين:

أ - التأثير الكمي: لقد رزق الله مالك بن أنس البركة في التلاميذ والأتباع ما لم يُرزقه إمام من الأئمة الآخرين، فلقد عدّ تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم بأزيد من ألف وثلاثمائة [1300] تلميذ، عدد السيوطي منهم أزيد من تسعمائة [900] رجل بأسمائهم وألقابهم وأنسابهم وبلغ بهم الألف [1000]، وطبيعي أن ينشر هؤلاء التلاميذ علم أستاذهم ويدافعوا عن علمه، وهذا ما حدث بالضبط في المغرب من أسد بن الفرات، وعبد الله بن فروخ، ويحيى بن يحيى الليثي، والبهلول بن راشد، وزيد بن عبد الرحمن، وعلي بن زياد ومن بعدهم<sup>(1)</sup>.

ب - التأثير النوعي: وأقصد بذلك ما تمتع به تلامذته وأتباعه من هبة قوية ومحبة لدى الناس مكنتهم من كسبهم خاصة العامة والتأثير فيهم، فلما أراد محمد بن مقاتل العكي وكان والياً ضرب البهلول بن راشد الفقيه المالكي رمى الناس أنفسهم عليه حماية له من السياط.

وكذلك وقف عبد الله بن غانم ضد إبراهيم بن الأغلب من أجل استرداد أموال الناس التي أخذها الأمير ظلماً وحمدها له الناس واغتبطوا به.

ومن أمثلة هذا ما جاء في ترجمة العالم سحنون قالوا: «اجتمعت فيه خلال قلماً اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا ولم يكن يهاب السلطان في حقّ يقوله»<sup>(2)</sup>.

(1) طبقات علماء إفريقيا - ص: 138 و323، وطبقات الفقهاء - ص: 157، وترتيب المدارك -

ج: 3 - ص: 86 و101.

(2) طبقات علماء إفريقيا - ص: 126 و138، ورياض النفوس - ج: 1 - ص: 200 و214،

وترتيب المدارك - ج: 1 - ص: 25.

### 3. 4. تشابه بيئتي الحجاز والمغرب من الناحية الاجتماعية

وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بمناسبة البداوة بين أهل الحجاز وأهل المغرب حيث قال: «وأيضاً فالبداوة التي كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب»<sup>(1)</sup>.

وعلى الرغم من كلّ ما أثاره هذا القول من آثارٍ وزوابعٍ كلاميةٍ، فإنّ جانباً منه صحيح يكمن في التشابه بين البيئتين من حيث إنّ تأثير الحضارات المجاورة الوافدة لم يكن بشكلٍ فعّالٍ، فإذا كان العربي لا يرضى أن يتشبّه بروميٍّ أو مجوسيٍّ ولا يقبله أن يكون حاكماً عليه ومصدراً لقيمه، فكذلك الأمازيغي - البربري - لم يرض يوماً بوجود البيزنطيين ولا الوندال وغيرهم، فالبيئتان صنعتا نفسيهما بأنفسهما دون تأثير كبير من بيئات أجنبية، عكس بيئات إسلامية قريبة كالعراق والشام التي صنعت شخصياتها من تلاقف حضاراتٍ وافدةٍ ومجاورةٍ، ولعلّ قصد ابن خلدون بالبداوة ما ظلّ عليه العرب من التّشبّت بتقاليدهم وعدم اندماجهم في الحضارة الوافدة عليهم، لا البداوة بمعناها التّخلف وخشونة الطّبع، وإلّا فإنّ مدن الحجاز لم يكن سكّانها كلّهم من البدو خاصّة في العصر العباسي، ولم تكن الأندلس بدويّة الطّبع والمعاش، بل كانت متحضّرة قبل الفتح وبعده، وقل مثل ذلك عن مصر، وبذلك ردّ كثيرٌ من الباحثين هذا الرّأي على ابن خلدون واعتبروه تهمةً موجّهةً إلى هذا المذهب وتجنّياً على قومه البربر<sup>(2)</sup>.

(1) مقدمة ابن خلدون - ص: 245.

(2) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي - عمر الجيدي - ص"36، والمعيار المعرب... أبو العباس الونشريسي - المغرب - طبعة وزارة الأوقاف - د. ط. د. ت. ج: 6 - ص: 357 وغيره.

### 3.5 - رحلة المغاربة إلى الحجاز غالباً:

تمكن تسمية هذا العنوان بـ:

دور قافلة الحج في التلقي على مذهب مالك:

يُعتبر الحجّ مؤتمراً سنوياً يجتمع فيه المسلمون من كل الأقطار لأداء فرض الله الذي افترضه عليهم ثم يُعرجون إلى المدينة لزيارة قبر المسجد النبوي ومن ثمّ الوقوف على قبره ﷺ، وكما كان يصاحب قافلة الحج جمعٌ من التجّار يتجرون في مكّة والمدينة ومصر، كان يصاحبها جمع من الطلبة الذين يطلبون العلم في مكّة وفي المدينة وفي غيرها من الأقطار، وفي المدينة لا يجدون أشهر من عالمها مالك ليأخذوا العلم عنه، فيلازمونه ويتعلّمون منه ثمّ يعودون لبلادهم ينشرون مآثره وعلومه فيمهدون الناس لحبّه وتقبّل آرائه الفقهية، خاصّة وأنّه كان في المدينة وهي مهبط الوحي ومحطّ أنظار المسلمين.

وفي هذا يقول ابن خلدون: «وأما مالك رحمته الله تعالى، فاختصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم (كالبصرة وبعض أطراف الجزيرة). إلاّ أنّهم لم يقلّدوا غيره إلاّ في القليل، لأنّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق. ولم يكن العراق في طريقهم، فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة يومئذ، وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلّدوه دون غيره ممّن لم تصل إليهم طريقته»<sup>(1)</sup>.

(1) مقدمة ابن خلدون - ص: 249.

### 3. 6 - بعد العراق عن طريق رحلة المغاربة إلى الحجاز

كان لهذا العامل دور كبير، فالكوفة تبعد آلاف الأميال عن المغرب وكذلك البصرة، وإنما كان المغاربة يرحلون إلى الحجّ إما عن طريق سيناء و يُعْطِفون منها عن طريق البر، وإمّا عن طريق البحر الأحمر، ولم يكن العراق في طريقهم حتّى يأخذوا عن علمائه والذين رحلوا إليه اثنان فقط: عبد الله بن فروخ وأسد بن الفُرات.

ثمّ إنّ العراق له ميزة أخرى جعلت المغاربة يعزّفون عنه إضافة إلى بُعده وهو أنّه كان موطنَ الفرق المختلفة والتّحل المتباينة ففي ربوعه كان الشّيعيّة، والمعتزلة، والجهميّة والقدرية، والمُرَجئة وغيرهم، حتى قال ابن أبي الحديد: وممّا يقدح لي في الفرق بين هؤلاء القوم [الزّوافض] وبين الذين عاصروا رسول الله ﷺ أنّ هؤلاء القوم من العراق وساكني الكوفة، وطينة العراق ما زالت تُثبت أرباب الأهواء وأصحاب التّحل العجيبة والمذاهب البدعية، وأهل هذا الإقليم أهل بصرٍ وتدقيقٍ ونظرٍ وبحثٍ عن الآراء والعقائد وشبه معترضة المذاهب، وقد كان منهم أيّام الأكاسرة مثل ماني وديسان ومزدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ولا أذهان الحجاز هذه الأذهان<sup>(1)</sup>.

### 3. 7 - نشوء المذهب بالدّيّار المقدّسة

كانت رحلة المغاربة لا تغدو أرض الحجاز إلّا قليلاً، فقد كانوا يؤمّونها للحجّ والعمرة، فإذا أتمّوا ذلك عرّجوا على المدينة للزيارة ويُقيّمون بها يسمعون أخبارها. وكانت شهرة مالك تملأ المدينة وتتجاوزها إلى غيرها، لذلك كان الحُجّاج يقدّسون مجلسه لطلب الفتوى وللتعلّم والتأدّب والتبرّك أثناء إقامتهم بالمدينة .

(1) المرجع نفسه . ص: 245 و249، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي . عمر الجيدي . ص: 37.

وكان لجلوس مالك قُرب قبر النَّبِيِّ ﷺ وفي مسجده ﷺ وهو يُحَدِّثُ عَنْهُ وَيَزُوي عنه فيتمثلونه في مقامٍ عالٍ جدًّا، وهم أخذت النَّاسَ إسلاماً فيؤثِّرُ ذلك على أنفُسِهِم تأثيراً إيجابياً، وهذا مما يُساعد مذهب مالك على الانتشار بين المغاربة لما يحْمِلون عنه من أطيب الأخبار معطرة بالأجواء التي تُوحِيها قيمة المدينة التاريخية والتفسيية<sup>(1)</sup>.

### 3. 8. التزام السلطات السياسيَّة بأحكام المذهب المالكي:

وأعني به التزام السلطات السياسيَّة (الأمراء والخلفاء والقضاة) بأحكام المذهب المالكي، وكان هذا العامل نتيجةً للجهود التي أثمرتها العوامل السابقة ولولاها لما كان لهذا العامل كبير أثرٍ في التزام المجتمع المغربي بالمذهب المالكي، والدليل عليه ما صنعه الفاطميون الذين حاولوا فرض مذهبهم على النَّاس، فحاربوه وناصره العدا، وفي هذا السياق يُمكن أن نفهم كلمة ابن حزم المشهورة: «مذهبنا انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفيّ بالمشرق والمالكي بالمغرب»<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن القاضي عياضاً يسير مع رأي ابن حزم فيستفاد من كلامه أن هشام بن عبد الملك ثاني خلفاء بني أمية في الأندلس أخذ النَّاس جميعاً بالتمسك بمذهب مالك، وصير القضاء والفتيا عليه... فالتزم النَّاس به، وحموه بالسيف عن غيره»<sup>(3)</sup>، وقد رُدَّ عليه بأموور منها:

- 
- (1) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي - عمر الجيدي - ص: 29.
  - (2) إحكام الأحكام - ابن حزم - ج: 1 - ص: 567، ونفح الطيب - المقرئ - ج: 2 - ص: 218.
  - (3) ترتيب المدارك - ج: 1 - ص: 26، والمعيار للونشريسي - ج: 6 - ص: 356.

منشور الحكم الذي تقرّر فيه وجوب التمسك بمذهب مالك كان بعد البحث والتنقيب والإطلاع على مآخذه وبعدهما تبين له أنه الحق والصواب، والجدير بالاتباع والتقليد<sup>(1)</sup>، فهو لم يَحْتِزْه طلباً للدنيا، وإنما كان تديناً، وردّ الشيخ النيفر أن ما ذكره ابن حزم لا يعدو أن يكون تصرف أفراد مغدودين... (2).

### 3. 9 - صلابة القضاة في تنفيذ أحكام الشرع:

إنّ تولّي المالكية حُطّة القضاء وصلابتهم في تنفيذ أحكام الشرع - خاصة إذا تعلّق الأمر بالأمراء والخلفاء - كان له أثر كبير على انتشار المذهب المالكي من حيث قبول الناس له ومن حيث قسّر الناس على التعامل وفق أحكامه.

ونُمثّل لذلك بما قاله سحنون للأمير محمد بن الأغلب لما ولاه القضاء مكرهاً: أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك، فإنّ قبلهم ظلّمت الناس وأموالهم منذ زمان طويلٍ إذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي، ولما قيل لسحنون هذا منصور دخل من تونس بالحرائر فركب وانتزع ما بيده فدخل منصور على ابن الأغلب وقد شقّ ثوبه وذكر ما جرى له مع القاضي وكان أن غضب الأمير وأرسل فتاه إليه قائلاً له:

ازدّد السّبي على منصور وإلاّ فأتيني برأسه، وبعد قصّة طريفة.

قال الأمير لمنصور: سلني عمّا شئت عن حوائجك وأعرض عن خبر سحنون.

(1) ينظر منشور الحكم في المدارك للقاضي عياض - ج: 1 - ص: 22، والمعيار - ج: 12 - ص: 26.

(2) مقدمة لكتاب موطأ زياد - تحقيق: الشيخ النيفر - ص: 28.

وفي قصّة أُخرى دخل ابن طالبٍ مع الأميرِ جناناً قد طاب ثمره  
فناولهُ ثمراً منه.

ثمّ قال ابن طالب: أيّها الأمير يجب لله الشُّكر أنْ بلغك غرسه ثمّ  
أكلت ثمرته.

فقال الأمير: ما هذا الشُّكر؟

قال: أنْ تُصَلِّيَ ركعتين.

فأمر الأمير بحصيرين فبَسِطَا ثمّ صلّيا.

ثم قال ابن طالب: وبقي آخر.

قال: وما هو؟

قال: تبعت بصدقةٍ إلى أهل الدّمنة، فإنّهم أهل زمانةٍ وضعف، ففعل.

ثمّ قال: وبقي آخر.

قال: وما هو؟

قال: تغزل من عمّالك من كان جائراً وتجعل مكانه من يغدل في

الرعيّة، فأمر الأمير بذلك<sup>(1)</sup>.

### 3. 10 - مناهضة مذهب مالك لمذهب الخوارج:

اصطدم مذهب مالك في القيروان بمذهب أبي حنيفة، ودار صراع  
بين المذهبين. ومما ساهم في تفضيل مذهب مالك على مذهب أبي  
حنيفة، كون الأخير قد استولى عليه (بعد وفاة القاضي السلفي أبي يوسف)  
طائفة من المعتزلة القائلين بخلق القرآن من أمثال ابن أبي داؤود وأضرابه.

---

(1) مقدمة حول انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب - طاهر نابي - ص: 5 و6 مقالة  
مقدمة ندوة التقريب بين المذاهب بتاريخ: 2003/10/14م



حيث «كان فقهاء المالكية في جميع أقطار الشمال الإفريقي وقفوا ضد تسرب مبادئ المعتزلة. بل إنهم اتخذوا موقف عداء من الدولة الأغلبية لانحيازها لفقهاء أهل العراق ومبادئ المعتزلة»<sup>(1)</sup>.

حتى جاء العبيديون الراضية فاستولوا على تونس. وبعد أن استقل عنهم المعز بن باديس، قضى على المذهب الحنفي، وفرض المذهب المالكي فقط. قال المؤرخ ابن خلكان «وكان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية (يقصد تونس) أظهر المذاهب. فحمل المعز بن باديس الصنهاجي جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وحسم مادة الخلاف في المذاهب! واستمر الحال في ذلك إلى الآن»<sup>(2)</sup>.

هذه هي الأسباب التي قيل إنَّها كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار المذهب المالكي، وهي وإن كانت من العوامل التي ساعدت - في الجملة - على انتشار المذهب في هذه الربوع، إلا أنها لا تعدُّ أسباباً حقيقية وتنهض حجة على ذلك، والذي نميل إليه كما يقول عمر الجيدي هو: أن المذهب قدّر له أن ينتشر في هذه الربوع، ويقاوم الزمان، كما انتشرت بقية المذاهب الأخرى في غيرها، اللهم إلا ما كان من سبب حمل سلاطين المغرب رعاياهم على الالتزام به، والهجرة التي كانت مستمرة بين المغرب والمدينة المنورة...<sup>(3)</sup>.

---

(1) عباس الجراري - ندوة القاضي عياض (1 | 180).

(2) "وفيات الأعيان" (5 | 233)، و محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي - عمر الجيدي - ص: 37، اصطلاح المذهب عند المالكية - محمد إبراهيم علي - ص: 75 و 76.

(3) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي - عمر الجيدي - ص: 38.

#### 4 - أثر هذه المدرسة في تطور المذهب

شاركت كل مدرسة بدورها المؤثر في تأسيس المذهب، ولعل أبرز المدارس المالكية تأثيراً في هذه المرحلة في تطور المذهب هما مدرستا مصر وتونس - أو إفريقيا بتعبير عام - مجتمعتان، ومنفردتان، فقد تداخلت عوامل التأثير والتأثر تداخلاً امتزاجياً، ففي تونس ترأس مدرسة المالكية - ومالك ما زال حياً - ابن زياد تلميذ مالك، الذي تلقى عنه، كما تلقى عن العراقيين: فقهاء ومحدثين، فكان مالكي المذهب على نهج العراقيين في الفقه الفرضي<sup>(1)</sup>.

وتتلمذ عليه نابغتان: أسد بن الفرات، وسحنون بن عبد السلام، وظهر تأثير ابن زياد عليهما بمظهرين مختلفين. ولعل أهم المؤلفات في هذه المرحلة بهذه المدرسة ما يلي:

##### أ - الآثار الفقهية لعللي بن زياد

وتتمثل في تعليقاته الفقهية على الموطأ ومخالفته للإمام مالك في بعض المسائل التي وردت في روايته للموطأ، ولا شك أن هذه الآراء تمثل بداية التأليف الفقهي في المدرسة المالكية بالقيروان وظهر عليه تحرره إذ خالف إمامه مالك على الرغم من تقفيه لقواعده الأصولية<sup>(2)</sup>.

##### ب - كتاب: خير من زنته

لم يقتصر على ترجيحاته واختياراته على موطأ إمامه بل تعداه إلى التأليف الفقهي فصنّف المسائل الفقهية وبوبها وخرّجها كتباً على مواضع الأحكام الفقهية وسمى كتابه: "خير من زنته" وهو ثلاثة كتب

(1) أعلام الفكر الإسلامي - الشيخ الطاهر بن عاشور - ص: 25.

(2) مقدمة تحقيق الشيخ النيفر لموطأ علي بن زياد.

بيوع ونكاح وطلاق، ويعدّ أول من كتب مسائل الفقه والفتاوى التي تكلم فيها مالك بن أنس<sup>(1)</sup>.

### ج . كتاب الأسدية لأسد بن الفرات

نرح أسد بن الفرات بتوجيه من ابن زياد إلى المدينة ليستزيد من علم مالك، وليدرس عليه شخصياً، وهنا يلمس مالك تأثير منهج ابن زياد في أسد، حيث تبين له من نمط أسئلته ميله إلى الفقه الفرضي، وما كان مالك ميالاً إلى هذا المنهج، ولهذا فقد نصح أسد: «هذه سلسلة بنت سلسلة، إن أردت ذلك فعليك بالعراق»<sup>(2)</sup>، واستجاب أسد لنصيحة مالك، لا رغبة عن مذهبه، بل رغبة في التعمق في منهج أهل العراق، وهو مع ذلك متعلق بمالك ومذهبه.

درس أسد في العراق، وعاد إلى مصر بعد وفاة مالك، وقد نضجت في ذهنه فكرة سعى إلى تحقيقها وعرضها على أكابر تلاميذ مالك في مصر واحداً بعد الآخر وهي قوله: «هذه كتب أبي حنيفة، وسأله أن يجيب على مذهب مالك».

واستطاع أن يقنع عبد الرحمن بن القاسم بالتجاوب معه في صياغة أول مشروع فقهي يجمع آراء مالك وترجيحاته في القضايا التي دوّنها أسد ابن الفرات عن محمد بن الحسن على مذهب أبي حنيفة<sup>(3)</sup>، فجعل أسد يسأل مسألة، وابن القاسم يجيب عليه: «فما كان عنده فيها سماع من مالك

---

(1) اصطلاح المذهب عند المالكية - ص: 97، وتراجم أغلبية - ص: 22، ويقول سحنون: " كتاب خير من زنته لابن أشرس إلاّ إنا سمعناه من ابن زياد وكان يقرأه على المعنى وكان أعرف من ابن أشرس بالمعنى" تراجم أغلبية - ص: 22.

(2) المرجع نفسه - ص: 26.

(3) ترتيب المدارك - ج: 3 - ص: 296 - 301، ورياض النفوس - ج: 1 - ص: 261 وغيرها.

قال: سمعت مالكا يقول كذا وكذا، وما لم يكن عنه من مالك إلا بلاغا  
قال: لم أسمع من مالك في ذلك شيئا، وبلغني عنه أنه قال كذا وكذا، وما  
لم يكن عنه سماع ولا بلاغ، قال: لم أسمع من مالك في ذلك شيئا، ولا  
بلغني، والذي أراه كذا وكذا - وما شك فيه قال فيه: أخال، وأحسب،  
وأظن... حتى أكملها ستين كتابا وسماها الأُسدية<sup>(1)</sup>، فهو عمل مؤسس  
على المنهج العراقي والمادة الحجازية

#### د - كتاب المدونة لسحنون عبد السلام بن سعيد:

مدونة أسد وإن كانت فقها مالكيًا إلا أن منهجها الحنفي يختلف  
عن منهج مالك الأثري، فنصدي سحنون لهذه الثغرة فعاد بالمدونة إلى  
ابن القاسم مقترحا عليه إعادة النظر فيها تصحيحا وترجيحا: «وما  
وقفت عليه من قول مالك كتبه، وما لم تقف عليه تركته، وتكلمت  
فيها بما يظهر لك من ذلك»<sup>(2)</sup>، ورجع سحنون إلى تونس يحمل بين  
يديه مدونة: مالكية الفقه والمنهج، فكان سحنون بهذا الصنيع هو الذي  
ردّ الفقه المالكي إلى طريقته المدنية الأولى، مع الحفاظ على ما أفاده  
من لقاح جديد بطريقة العراق<sup>(3)</sup>.

أسفر التعاون الثلاثي المالكي: ابن القاسم، وأسد، وسحنون، عن  
ولادة أكثر الكتب الفقهية اعتمادا عند المالكية منذ تأليفها إلى زماننا،  
وأصبح الثنائي: ابن القاسم، وسحنون حجري الزاوية في مدرسة مالك

(1) أعلام الفكر - ص: 27، واصطلاح المذهب عند المالكية - ص: 84 و85.

(2) رياض النفوس - ج: 1 - ص: 263.

(3) أعلام الفكر الإسلامي - الطاهر بن عاشور - ص: 28، و، واصطلاح المذهب عند المالكية -  
ص: 78.

الكبرى قديما وحديثا، حتى إن القول بأنهما مهندسا المذهب ومرسحا أصوله بعد مؤسسه، لا يعدو الحقيقة بحال.

وتتمثل جهود القرويين خاصة في خدمة المدونة في:

1. شرح محمد بن سحنون ( 256هـ) لأربع كتب منها.
- 2 . شرح محمد بن إبراهيم بن عبدوس(260هـ) المسمى: شرح مسائل المدونة.
- 3 . اختصار ابن أبي زيد القيرواني لها(386هـ) في كتابه: مختصر المدونة، وخدمته لها من خلال كتابه: النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات.
- 4 . تهذيب البراذعي لها (430هـ) وكتابه: الشروح والتتمات لمسائل المدونة.
- 5 . تعليق أبي عمران عليها (430هـ).
- 6 . تعليق عبد الرحمن بن محرز القيرواني عليها(450هـ) الذي أسماه التبصرة.
- 7 . كتاب في بسط المدونة والتفريع عليها لأبي القاسم عبد الرحمن ابن أحمد الحصري المعروف بالليدي (466هـ).
- 8 . التبصرة على المدونة للخمى علي بن الربعي(478هـ).
- 9 . تعليق أبي محمد عبد الحميد بن أحمد المقرئ المعروف بابن الصائغ(486هـ).
- 10 . تكملة كتاب التونسي على المدونة لمحمد بن سعدون بن بلال القيرواني(486هـ)<sup>(1)</sup>.

---

(1) دراسات في تاريخ المذهب المالكي - خليفة بابكر الحسن - ص: 39.

## الخاتمة

لا يملك الباحث الذي يتابع سيرة الفقه المالكي في مدرسة القيروان - إفريقيا - إلا أن يشيد بدور فقهاءها في تطوير الفقه المالكي، وأن هذه المدرسة كانت السابقة التي تورد الطريق وتمهّد السبيل وتضع الأسس الكفيلة بنجاح كل جهد آخر متمم لما بداته.

رحم الله أساطين الفقه المالكي في مدرسة القيروان وتونس الذين جعلوا خدمة المذهب همّهم وشاغلهم، ووقفوا حياتهم له، بل ودافعوا عنه في ظروف سياسية ومذهبية عصبية في بعض الأحوال.



# المدرسة الفقهيّة المالكيّة بالقيروان

## نشأتها وتطورها

كلمة الدكتور محمد الرئيس

جامعة الزيتونة، تونس

الحمد لله ربّ العالمين، وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيّين والمرسلين وعلى آله وصحابه أجمعين.

أما بعد،

فسأستهلّ بحثي هذا بمقدمات مختصرة تبرز مكانة القيروان ووضعها قبل ظهور المذهب المالكي، ثم بعد أن أصبحت المركز الثاني للمذهب بعد المدينة المنورة.

### أولا - مكانة القيروان

تبوّأت القيروان منزلة عالية لدى المسلمين في المشرق والمغرب، ونالت كثيرا من الاحترام والتعظيم في نفوسهم، لتأسسها على يد الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وكونها منطلق جيوش الفتح، وقاعدة الإسلام في إفريقية والمغرب والأندلس، بالإضافة إلى تشرفها بأول مسجد بني في تلك الديار، فقصدها الناس من آفاق بعيدة، وكثر فيها الفقهاء والمحدثون والقراء والمفسرون، وسرعان ما أصبحت عاصمة بلاد المغرب السياسية والعلمية والدينية بلا منازع.

بهذا وغيره تهيّأت القيروان لدور الريادة، ووصف المؤلّفون القدامى منزلتها بعبارات ندية، وأساليب بليغة، من ذلك قول عبد الرحمن الأنصاري الدبّاغ عنها:

«أما القيروان فهي البلد الأعظم، والمصر المخصوص بالشرف الأقدم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب، وقطرهم الأخر الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يعرب، وبشرفه يغرب، قرارة الدين والإيمان، والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان، قبلتها أول قبلة رسمت في بلاد المغرب، وسجد لله فيها سرًا وعلانية، وناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبينا ﷺ ومحط رحالهم...مصرًا مؤسسًا على التقوى إلى يوم الدين...»<sup>(1)</sup>.

تعتبر القيروان ثمرة طيبة ونتاجا حسنا لجهود عقبة بن نافع<sup>(2)</sup> والصحابة الذين كانوا معه، واستجابة لدعائهم، فقد طاف بهم عقبة حول "القيروان" داعيا وهم يؤمنون على دعائه الذي قال فيه: «اللهم املأها علما وفقها، وأعمرها بالمطيعين والعابدین، واجعلها عزًا لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعزّ بها الإسلام، وامنعها من جبايرة الأرض<sup>(3)</sup>، من كل ذلك تكوّن نسيج اجتماعي راق بالقيروان سمته النزوع الى الخير، والوفاء بالعهد، والتخلّي عن الشبهات واجتناب المحارم»<sup>(4)</sup>.

ولا شك أن مجتمعا هذه صفته، وتلك سمته لا بدّ أن يهتم بالعلوم والمعارف الإسلامية لضبط حركته، وللمحافظة على ما يريد له لنفسه من السلامة وحسن المنقلب، ولهذا كان اهتمام القيروانيين مبكرا بالقرآن والحديث والتفسير والرقائق والفقهاء.

---

(1) الدباغ، معالم الإيمان: 6/1.

(2) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، ولد قبل الهجرة بسنة كان قائدا شجاعا، وعبدا صالحا، اشتهر بحملاته على إفريقية وبتأسيسه القيروان (ت 63 هـ).

(3) محمد بن أحمد القيرواني، طبقات علماء إفريقية وتونس: 56 تقديم وتحقيق د. علي الشابي ونعيم حسن اليافي.

(4) راجع وصف الإدريسي لها في مدرسة الحديث: 47/1



وسأقتصر في هذا البحث على ابراز دور القيروان في الحفاظ على المذهب المالكي، ومساهمتها في نشره سليما من التزييف والتحريف، ولكن سأتبين قبل ذلك كيف كانت القيروان قبل ظهور مالك؟ في العنصر الموالي.

### ثانيا - القيروان قبل ظهور مذهب مالك

كان أهل القيروان قبل ظهور مذهب مالك - من حيث الجملة - يستمدون فقههم من علوم الرواية، حيث تلقوا ذلك ابتداءً على أيدي الصحابة والتابعين الذين علموهم القرآن واللغة العربية ومبادئ الإسلام ولقنوهم أحكام الدين رواية عن النبي ﷺ<sup>(1)</sup> أو اجتهادا منهم<sup>(2)</sup>.

وقبل نهاية القرن الأول كثر المسلمون بأفريقية، وأشكلت عليهم عدة أمور، فجمعوا مسائلهم، وأرسلوا بها خالد بن أبي عمران (المتوفى حوالي 125هـ) ليسأل عنها التابعين في المشرق، فدون عنهم كتابا كبيرا رواه أهل القيروان، ثم أرسل عمر بن عبد العزيز التابعين العشرة سنة 99هـ لتفقيه أهل إفريقية، فأشاعوا بالقيروان رواية علوم الكتاب والسنة، وكثر أتباعهم الذين تضافرت جهودهم مع هؤلاء العشرة على نشر العلم، فتخرج على أيديهم أفواج من العلماء...<sup>(3)</sup>.

إذن فقد كان الدين في المرحلة الأولى يؤخذ بالرواية المتعلقة بعلوم الكتاب والسنة، وفتاوى الصحابة والتابعين، فكان المغاربة في صدر الإسلام على مذهب جمهور السلف من الأئمة واعتقادهم، وهو المذهب الحق<sup>(4)</sup>.

(1) انظر المالكي، رياض النفوس: 1781 - 124، الدباغ: المعالم: 123/1.

(2) انظر: المالكي، الرياض: 124/1.

(3) انظر: د الحسين شواط، مدرسة الحديث في القيروان: 505/2.

(4) السلاوي، أحمد بن ناصر، الاستقصاء: 136/1.

وعلى هذا تربي أهل القيروان، فكانوا شديدي التعلق بالنصوص، بعيدين كل البعد عن إعمال الرأي، خاصة وقد رأوا المزالق التي أدى إليها التأويل وما ساقه للبلاد من فتن وقد دخل القيروان مذاهب أخرى، ولكنها سرعان ما اندثرت، ولم يكثر الآخذون بها مثل: مذهب أبي عمر الأوزاعي (ت157هـ)، وقد روى عنه بعض أهل القيروان<sup>(1)</sup>.

ومذهب سفیان الثوري (ت161هـ)، وقد روى عنه كثير من أهل القيروان، وسمعوا منه جامعيه الكبير والصغير، وكان بعضهم يميل إلى رأيه<sup>(2)</sup>.

أما مذهب محمد بن إدريس الشافعي (ت204هـ)، فكان حظه بالقيروان أكثر من سابقه حيث مال إليه مجموعة من أهلها<sup>(3)</sup> ويعتبر المذهب الحنفي أسبق المذاهب المشتهرة دخولا إلى القيروان، وكان هو الغالب على أهلها قبل دخول المذهب المالكي<sup>(4)</sup>، وأول من أدخل مذهب أبي حنيفة عبد الله بن فروخ (115هـ - 176هـ)، فإنه دَوّن عن أبي حنيفة نحو عشرة آلاف مسألة قبل أن يصنف أبو حنيفة كتبه<sup>(5)</sup> ودخل بها القيروان، وسمعها منه الناس، ثم كان عبدالله بن غانم (128هـ - 190هـ)، وقد لقي أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، وكان يخصص يوما في الأسبوع لتدريس كتب الأحناف رغم أنه مالكي المذهب<sup>(6)</sup> وبذلك شاع المذهب الحنفي وانتشر.

---

(1) انظر المالكي، رياض النفوس: 247/1 - 301، حسن حسني عبد الوهاب، ورقات: 73/1

(2) انظر المالكي، رياض النفوس: 201/1 حسن حسني عبد الوهاب، ورقات: 73/1

(3) عياض ترتيب المدارك: 54/1، 415/4، المجدوب، الصراع المذهبي: 87، عبد المجيد

بن حمدة، الحياة الاجتماعية: 72

(4) عياض ترتيب المدارك: 54/1، محمد بن الخوجة، تاريخ معالم التوحيد: 88 - 89

(5) المالكي / رياض: 180/1

(6) الأندلسي، الحلل السندسية: 247/4

وقد وجدت بعض المناظرات، وظهرت بعض المشاحنات بين أتباع المذهبين ( المالكي والحنفي )، ولكنها تلاشت مع الزمن، بل تحولت آخر القرن الرابع إلى ألفة وتعاون، فقد قال المقدسي واصفا القيروان في هذه الفترة: «ليس فيها غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة بلا شغب بينهم ولا عصبية، لا جرم أنهم على نور من ربهم، قد أقبلوا على ما يعينهم وارتفع الغلّ من قلوبهم»<sup>(1)</sup>.

ثم زالت أسباب وجود المذهب الحنفي في مطلع القرن الخامس، وخاصة بعدما ألزم المعز بن باديس (407 هـ/449 م) الناس بمذهب مالك حسماً لمادة الخلاف في المذاهب<sup>(2)</sup>.

### ثالثاً: القيروان: المركز الثاني للمذهب المالكي

لقد تلقى أهل القيروان مذهب السلف على يد الصحابة والتابعين، وشاهدوا بأعينهم الفتن التي أدّى إليها التأويل والبعد عن النصوص، ولذلك فإنه ما إن أدخل علي بن زياد (ت183هـ) الموطأ إلى إفريقية وفسّر لهم قول مالك<sup>(3)</sup> ولم يكونوا يعرفونه، حتى أقبلوا عليه إقبالا منقطع النظر، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة لجمعه بين الأصالة والبساطة، واعتماده على الحديث، فأن صاحب هذا المذهب يدرس في مدينة رسول الله ﷺ، ويلتزم النص من الكتاب والسنة، ولا يأخذ إلاّ عن الثقات، وبرع في السنة حتى سمي أمير المؤمنين في الحديث، وهو الى جانب ذلك شديد الورع لا يفتي إلاّ بحذر شديد، وينفر من الرأي والتأويل<sup>(4)</sup>.

(1) أحسن التقاسيم: 224

(2) السلاوي، الاستقصاء: 137/1

(3) المالكي، رياض النفوس: 234/1

(4) الحجوي، الفكر السامي: 383/1، مؤنس، مقدمة رياض النفوس: 11/1

وهذا ما ذهب اليه الشيخ محمد الشاذلي النيفر فإنه عللّ اتباع الأفرقة لمذهب مالك بأنه «مذهب بني علي حديث أهل الحجاز»<sup>(1)</sup> وهم الصفوة والكثرة من الصحابة والتابعين...<sup>(2)</sup>.

وهناك أمر آخر يجدر التنبيه إليه، وبه يكتمل هذا التعليل، وهو التقدم الزمني للمذهب المالكي على غيره من المذاهب الأخرى المشتهرة بالاعتماد على الحديث، وبخاصة مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أحمد، فكان الخيار أمام القيروانيين محصورا في المذهبين الحنفي والمالكي، فتجنبوا الأول لاشتهاره بالميل الى الرأي، وأقبلوا على الثاني لاعتماده على الحديث، وموافقة ذلك ما في نفوسهم من التعطش الى السنة.

ويأتي في الدرجة الثانية من التعليل ما ذهب إليه ابن خلدون: من أنّ رحلة أهل إفريقية كانت غالبا إلى الحجاز، فاقترضوا على الأخذ عن علماء المدينة<sup>(3)</sup> وكذلك لمناسبة البداوة بين الشعبين،

#### رابعا . أعلام المدرسة المالكية بالقيروان

تخرجت الطبقة الأولى من علماء المالكية بالقيروان على يد علي بن زياد مثل أسد الفرات والبهلول بن راشد، وعبد الله بن غانم وغيرهم، ثم تسارع أهل الطبقة للأخذ مباشرة من الإمام مالك، حتى زاد الرواة عنه من أهل القيروان على الأربعين<sup>(4)</sup>، وبذلك كثر رواة الموطأ، وانتشر علم

---

(1) الأولى التعميم لأنّ الإمام مالكا لم يقتصر على حديث أهل الحجاز، بل حدث من طريق المصريين، انظر: الرازي، الجرح والتعديل: 31/1

(2) موطأ ابن زياد: 31

(3) هذا الكلام ليس على إطلاقه، فقد رحل أهل القيروان منذ وقت مبكر إلى العراق وخراسان والشام وغيرها انظر: الحسين شواط، مدرسة الحديث في القيروان: 2670/1

(4) انظر المالكي، معالم: 83/2، شواط، مدرسة الحديث في القيروان: 2670/1

مالك، فأقبل عليه الناس ووجدوا فيه الحصن الواقي من الاتجاهات الخارجية الخطرة التي كانت تجتاح البلاد.

ثم جاء الإمام سحنون فجمع في مدونته علم مالك وفقهه، واستشهد لمسائلها بالآثار، فأصبحت عمدة المذهب، والكتاب الثاني بعد الموطأ، وقد أخذها عنه أهل إفريقية والمغرب والأندلس حتى بلغ تلاميذه نحو السبعمائة<sup>(1)</sup> نشروا علم مالك في هذه البلاد.

قال الخشني: ثم قدم سحنون بذلك المذهب، وجمع مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف، فبارك الله تعالى فيه للمسلمين، مالت إليه الوجوه وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ، وقد محي ما قبله فكان سراج القيروان<sup>(2)</sup>.

وأقبل تلاميذ سحنون ومن بعدهم على التصنيف في المذهب، واهتموا بالمدونة خاصة، ما بين شارح ومختصر ومعلق.

ثم جاء ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ) الملقب بمالك الصغير وعلى يديه استقرّ المذهب، فهو الذي «لخص المذهب، وضمّ نشره، وذبّ عنه، وملأت البلاد تأليفه<sup>(3)</sup>».

واستمر المذهب في نموّ حتى صار في مطلع القرن الخامس هو المذهب الوحيد بإفريقية، وهكذا أصبحت القيروان هي المركز الثاني للمذهب المالكي بعد المدينة المنورة، وقد وجد أهل إفريقية في علماء هذا المذهب المثال الصادق للالتزام بالإسلام، من التقوى والورع والقيام

---

(1) مخلوف، الشجرة: 69/1

(2) المالكي، معالم الإيمان: 83/2

(3) ابن فرحون، الديباج: 137

بالحق، فهم كإمامهم مالك يتعففون عن عطايا الأمراء، ويقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(1)</sup>، فارتفعوا في أعين الناس إلى مقام الأولياء<sup>(2)</sup>، وقد بلغ فقهاء المالكية بالقيروان عدّة مئات في كل طبقة، فالذين تتلمذوا على سحنون وحده زادوا على السبعمئة<sup>(3)</sup>، وكان لأحمد ابن عبد الرحمان الخولاني (ت432هـ) مائة وعشرون صاحباً كلهم من أئمة المذهب<sup>(4)</sup>.

وعلى أيدي هؤلاء تكونت مدرسة القيروان المالكية وبرزت وسمت، وأصبحت بحقّ في الدرجة الثانية بعد المدينة المنورة في خدمة مذهب مالك، وكانت محط أنظار الدارسين في مختلف بلاد المغرب والأندلس الذين وفدوا عليها للأخذ عن شيوخها<sup>(5)</sup>.

وبلغت هذه المدرسة درجة عظيمة غطت على بقية العلوم التي ظهرت بالقيروان، حتى ساد في الأذهان أن حذاق القيروان لا عناية لهم إلاّ بتحقيق الفقه<sup>(6)</sup>، وأن إفريقية ذات ثقافة فقهية خالصة<sup>(7)</sup>، والواقع أن مختلف العلوم قد ازدهرت بالقيروان وخاصة الحديث الذي كان وثيق الصلة بالفقه، ومادة لمعظم العلوم لدى القيروانيين<sup>(8)</sup>.

---

(1) ابن فرحون، الديباج: 447/1

(2) مؤنس، مقدمة رياض النفوس 14/1م

(3) ابن فرحون، الديباج: 164، مخلوف: شجرة: 69/1 الذهبي، سير اعلام: 18/12

(4) المالكي، معالم: 165/3

(5) انظر المطوي محمد العروي سيرة القيروان: 33

(6) نظر المقرئ التلمساني، أزهار الرياض: 26/3

(7) انظر ابن حمدة: المدارس الكلامية 7

(8) شواط: مدرسة الحديث في القيروان: 176/1

## خامسا - تزويد القيروان للأقطار الإسلامية بالعلماء

لم يزل المسلمون في حاجة عظيمة إلى العلماء، ولا يزالون كذلك ما بقي للناس دين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٣٣) ﴿١﴾.

وقال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» (٢).

ومن هنا نفر طلاب علوم الدين وجعلوا يفتنون على منابع المعارف، وكان حظ القيروان من أولئك الوافدين حظا عظيما، فقد تخرج من علمائها المئات من النوابغ الذين ازدهرت بهم الحياة، وتأيد الحق والعدل.

فمن الذين ازدانت بهم الأندلس من أولئك المتخرجين من القيروان:

- أبو سعيد عثمان بن ابي الصلت (ت246هـ) وكان أول من أدخل المدونة إلى الأندلس (٣).

- أبو القاسم أصبغ بن خليل (ت273هـ) (٤).

- أحمد بن الوليد، قاضي طليطلة (٥).

- أبو عبد الله محمد بن أحمد العتبي (ت255هـ) (٦).

وغيرهم ممن تطول القائمة بتعدادهم، وتراجمهم موجودة في الديباج، وفي ترتيب المدارك، وفي جذوة المقتبس، وفي بغية الملتمس،

(1) التوبة: 122

(2) رواه البخاري عن عبدالله بن عمرو

(3) انظر: عياض: المدارك: 245/4

(4) ابن فرحون، الديباج: 301/1

(5) بغية الملتمس: 209

(6) عياض المدارك: 252/4

وفي الصلّة، وتكملة الصلّة، هذا، مع العلم أن المتخرجين على علماء القيروان لم يكونوا من الأندلس فقط، بل هناك من أهل سبتة أبو عبد الرحمن ابن العجوز، وأبو محمد ابن غالب، وخلف بن ناصر.

ومن أهل المغرب أبو علي بن أمدكثو السلجماسي<sup>(1)</sup> ومن شيوخ القيروان الذين أخذ الناس عنهم بكثرة أبو عمران الفاسي (ت430 هـ) وأبو بكر الخولاني المعروف بحافظ المذهب (ت432 هـ) على ما أورد ذلك الحجوي في ترجمتهما في كتابه (الفكر السامي).

وبعد فهذه لمحة عن "المدرسة المالكية بالقيروان" لعلها تساعد في جلاء جوانب الفقه المالكي في القيروان التي التزمت هذا المذهب وطوّرتة في إطار منهجيتها وطريقتها وهي منهجية حافظت على صورته السنّية والأثرية الأصيلة.

وأخيرا فإنني أسأل الله تعالى أن يوفق دولة الجزائر الشقيقة في جهودها لخدمة الفقه الإسلامي من خلال وزارة الشؤون الدينية والأوقاف. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



---

(1) ابن فرحون: نفس المصدر: 173



# القاضي أبو بكر بن العربي وإسهامه الفقهي

كده الدكتور وثيق به مولود

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر

الحمد لله الذي بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وحفظها بأساطين الحفاظ وجهابذة الأئمة، يحوطون هذه الملة بتدعيم أركانها، وتبيين أحكامها.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي يحمل علمه من كل خلق عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بنصرة دينه فكانوا من الفائزين.

أما بعد،

ففي أواخر القرن الرابع دهى الفقه المالكي في المغرب والقيروان داهية دهماء أدهى وأمر من كل ما مر به، وهي ظهور الشيعة الذين قتلوا أعيان علماء الملة الذين كانوا حاملين لواء العلم والدين، وحملوهم على الرجوع عن مذهب الإمام مالك رحمه الله وعن السنة، والتمسك بالرفض فأبوا فقتلوهم شر تقتيل. وانظر إن شئت في ترتيب المدارك للقاضي عياض ترجمة أبي بكر بن هذيل، وأبي إسحاق ابن البرذون ومن عاصرهما كيف قتلا وسجنا في أذنان الدواب لعدم إفتائهما بمذهب جعفر بن محمد الذي سموه مذهب أهل البيت، كسقوط طلاق البتة، وإحاطة البنات بالميراث من أجل أن تكون سيدتنا فاطمة أحاطت بإرث أبيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأي فائدة في هذا بعد ذهاب أربعة قرون حتى يضرب العلماء ويقتلوا لأجله، وكم فعلوا من أفاعيل في

القيروان، ثم بمصر لما غلبوا عليها، قتلوا العلماء ومنعوا من أبقوه حيا من التحليق في المساجد، ونشر العلم والفتيا إلا بمذهبهم.

وقد قتلوا في وقعة أبي زيد مخلد بن كيداد خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان حول المهديّة عليهم رحمة الله<sup>(1)</sup>. وجعلوا دعاة لمذهبهم فرقوهم في الآفاق، كل ذلك توطيدا للسياسة والرئاسة، فكان من يأخذ عن العلماء إنما يأخذ سرًا، وعلى حال رقبة وخوف، ومع هذا الضغط لم يقضوا على المذهب المالكي، بل بقي سرًا ينتشر، لأن إرادة الشعب كانت خلاف إرادة الدولة، ولما تمكنت الأمة من المناهضة، محت دولة الرفض مرة واحدة، وظهر المذهب المالكي أتم ظهور، لكن بعد مرور نصف قرن وهو في التأخر والنقصان وفي طي إطفاء، وهكذا كل شيء تلقته الأمة عن كره لا يكون له دوام ولا قرار، فالانتصار والانتشار إنما هو في حرية الأفكار.

وفي أول القرن الخامس الهجري كانت الدولة الإسلامية في حال افتراق، فبنو العباس وخليفتهم القادر بالله بن المقتدر ببغداد تحت سيطرة الديلم من بني بويه وسلطانهم بهاء الدولة، وبجانبها دولة السلجوقيين الأتراك الذين تغلبوا فيما بعد على بغداد سنة 447هـ وعلى كثير من بلاد الإسلام والروم ما بين البحر المتوسط إلى بلاد الهند<sup>(2)</sup>.

وكان في مصر الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي ادعى الألوهية وكانت أحواله متناقضة وهو الذي أسس المكتبة الشهيرة بمصر، دعاها دار العلم،

---

(1) الفكر السامي للحجوي: 148/2.

(2) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي: 164/2، تاريخ الفقه الإسلامي للسايس: 111 وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير: 70/8 فما بعدها، العالم الإسلامي في العصر العباسي - حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: 538، 563، تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك "الدولة العباسية" ص 417 - 422.

واستجلب لها الكتب الثمينة من خزائن قصور المعمورة، عوض مدرسة بغداد، وبنى مدارس كثيرة، ثم خربها<sup>(1)</sup>.

وكان في الأندلس آخر الدولة الأموية سليمان المستعين، ثم المهدي محمد بن هشام، ثم هشام المؤيد ثلاثة من الخلفاء تولوا في سنة واحدة، والدولة الأموية في النزاع في آخر رفق بعد تغلب الدولة العامرية عليها، كما فعل الديلم في بغداد.

وأعقب ذلك فتنة البربر في الأندلس التي أهلكت الحرث والنسل، وأخنت على ما كان تأسس هناك من معاهد علمية، وتقدم عظيم<sup>(2)</sup>.

وأعقبها ملوك الطوائف وافتراق الأمة حتى صارت كل مدينة لها متغلب سمي نفسه ملكا أو خليفة، وكان هذا الداء قد تأصل في الممالك الإسلامية في ذلك القرن الخامس، سواء في الأندلس أو الممالك الإفريقية والشرق بما يطول سرده. فعرف عصر ملوك الطوائف بالاضطراب وعدم الاستقرار، فقد كانت تحكم البلاد طوائف أو دويلات كان هدفها الأول الاستيلاء على المناصب بكل الوسائل المتاحة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة ونشب بينهم العداوة حتى أصبحوا يستنجدون على بعضهم بالنصارى أعداء الأمة.

ثم أحيا الله الدولة الإسلامية في المغرب الأقصى والأندلس بدولة المرابطين 484هـ - 541هـ بزعامة الخليفة الأعظم يوسف بن تاشفين 500هـ الذي جمع شمل تلك الممالك.

إذ بعد أن بدأ النصارى يستولون على ممالك الطوائف الواحدة تلو الأخرى ولما آلت قيادة الجيش النصراني إلى القائد "الفونس السادس" قام

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه.

بجمع جيش عظيم من مختلف الدول النصرانية، وبدأ يطوف بدويلات ملوك الطوائف يقتل ويسبي ويفسد.

وفي خضم هذه الظروف استولى الفرنج لعنهم الله، وحقق الملك الفونس السادس نصرا كبيرا باحتلاله طليطلة تحتل رقعة واسعة وسط الأندلس، واعتبر سقوط طليطلة كارثة كبرى على المسلمين لأنها شطرت الأندلس إلى قسمين.

وخيّل لبعض أهل الأندلس أن بلادهم على وشك السقوط وأن العالم على وشك الزوال، وبات المسلمون في حال من الضياع التام، وقد وصل التخاذل ببعض ملوك الطوائف إلى حد إرسال الرسل لتهنئة الفونس السادس على احتلاله طليطلة<sup>(1)</sup>.

وفي هذا الوقت كان "المرابطون" في أوج قوتهم، فاستنجد بهم ملوك الطوائف لدفع شر النصارى، ويعتبر مؤتمر قرطبة أول اجتماع شعبي للخروج بالأندلس من محنتها بزعامة الفقهاء. ملاذ الأمة في الظروف الصعبة. بعدما وجدوا المدينة بدون حامية، وهي على وشك السقوط على غرار سائر مدن الأندلس، واقترح المؤتمرون على قاضي المدينة عبيد الله بن أدهم (ت486هـ) الاستنجد بالمرابطين، لأنهم أصلح وأقرب إلى الأندلس ففوضوه باستدعاء الأمير يوسف بن تاشفين<sup>(2)</sup>.

وكان الفقهاء هم المدافعون عن حقوق الناس العاملين على رد الظلم عنهم، ولما وضحت خيانة ملوك الطوائف، وتنكرهم لمعركة الجهاد، كانوا أول من أفتى بخلعهم وظاهرهم يوسف بن تاشفين ووقفوا بجانبه<sup>(3)</sup>.

---

(1) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير: 138/8.

(2) انظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين لسعدون عباس نصر الله ص 67 والكامل في التاريخ لابن الأثير: 141/8 . 142.

(3) انظر: المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنبهاني ص 97.

فاستجاب لندائهم القائد العظيم "يوسف بن تاشفين" بعد استنجد المعتمد بن عباد صاحب اشيلية وقرطبة . وكان أقوى ملوك الطوائف . ورأى المعتمد في يوسف بن تاشفين الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه في مواجهة الصليبيين الذين أنهكوا الدولة الإسلامية بغزواتهم المتوالية، وكان هذا سنة 479هـ وطلب إليه الحضور لنجدة المسلمين والجهاد ضد المسيحيين في الأندلس. فلبى يوسف بن تاشفين النداء وعبر البحر إلى الأندلس والتقى بالقائد النصراني الفونس السادس في معركة الزلاقة يوم الجمعة في العشر الأول من رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة 479هـ.

فكانت موقعة الزلاقة بحق من المواقع الحاسمة في التاريخ على غرار اليرموك والقادسية، وكان النصر حليف الجيش الإسلامي على النصارى، إذ فيها انكسر جيش الفرنجة الكافرة الزاحف من طليطلة كسرة شديدة سنة 479هـ<sup>(1)</sup>.

ولا غرو أن يثير هذا الانتصار الباهر إعجاب ملوك الأندلس بالقائد يوسف بن تاشفين.

فأحيا الله به الدولة الإسلامية في المغرب الأقصى والأندلس. وانتظمت بلاد الأندلس في ملكه، وتوحدت كلمتهم تحت لوائه، وتوالت هزائم النصارى على يده، وخاطب الخليفة العباسي "المستنصر" ببغداد ليعقد له الولاية على المغرب والأندلس وكل ما يفتحه فعقد له<sup>(2)</sup>.

فأقام العدل، ونصر الدين، وأظهر الفقه، وأحب الفقهاء، وكان مالكي المذهب، فصارت للفقهاء في وقته ووقت ولده "علي" (ت 537هـ) من

---

(1) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير: 142/8، والأندلس من الفتح العربي المرصود إلى الفردوس المفقود للدكتور عصام محمد شبارو ص 227.

(2) المرجع نفسه، الكامل في التاريخ: 75/8 الأندلس من الفتح المرصود إلى الفردوس المفقود، د عصام شبارو، ص 234.

نصف القرن الخامس إلى الربع الأول من السادس الكلمة النافذة، وعاد للمذهب للمالكي هناك شبابه. بعد المحنة التي ألتمت به بظهور الشيعة الذين قتلوا أعيان علماء الملة الذين كانوا حاملين لواء العلم والدين، وحملوهم على الرجوع عن مذهب مالك رحمته الله وعن السنة، والتمسك بالرفض فأبوا فقتلوهم شر تقتيل<sup>(1)</sup>، لعدم التزامهم الإفتاء بمذهب جعفر بن محمد الذي سموه مذهب أهل البيت<sup>(2)</sup>.

وحرصت دولة المرابطين على سياسة المذهب الواحد، وهو المذهب المالكي، مما قد يحفظ للمغرب وحدته الدينية في نظرهم، وأصبح المغرب وحدة سياسية ودينية قوية في الوقت الذي كان فيه الأندلس منقسما تحت حكم ملوك الطوائف وتجارهم الممالك المسيحية، والتي اتبعت بدورها سياسة المذهب الواحد، باعتبارها ثغرا للمسيحية، فاقتصرت على المذهب الكاثوليكي<sup>(3)</sup>.

لقد ازدهرت الحركة العلمية في عهد المرابطين ازدهارا عظيما، وانتشرت مدارس العلم وحلقات الفقه في ربوع الأندلس في قرطبة وغرناطة ومرسية وإشبيلية، وأصبحت بلاد الأندلس قبلة لطلاب العلم يقصدونها من كل فج عميق، وكانت منبع الحضارة الأوروبية والحديثة.

---

(1) وانظر إن شئت في ترتيب المدارك للقاضي عياض: ترجمة أبي بكر بن هذيل أبي إسحاق ابن البرذون ومن عاصرهما كيف قتلا وسحبا في أذنان الدواب لعدم إفتائهما بمذهب جعفر بن محمد الذي سموه مذهب أهل البيت، كسقوط طلاق البتة، وإحاطة البنات بالميراث من أجل أن تكون سيدتنا فاطمة أحاطت بإرث أبيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي: 148/2.

(2) انظر: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للحجوي: 148/2.

(3) انظر: الأندلس من الفتح المرصود إلى الفردوس المفقود، للدكتور عصام محمد شبارو ص 234.

لقد كان لما اتصف به ملوك الدولة من تقوى وورع وخشوع وإقبال على التفقه في الدين والإلمام بدقائقه سببا في تقريب الفقهاء والعلماء وإدناء مجالسهم والوثوق بهم.

وأدى الفقهاء "المالكية" في العصر المرابطي بالأندلس دورا هاما للتقاليد الأندلسية للسلطات السياسية العليا التي كانت تقرب رجال الفقه، ومكانة فقهاء الأندلس لها جذور قديمة إلى غاية سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وطموح الفقهاء في المشاركة السياسية وتأكيد حضورهم الفقهي والعلمي والسياسي ظاهرة أصبحت مؤكدة منذ أن شكلوا أهل الرأي، وباركوا قدوم نجدة الملتزمين للأندلس منذ قيام تحالف قبائل "أهل اللثام" أقصى جنوب الغرب الإسلامي، وقيام الفقهاء بهذا الدور في القرنين الخامس والسادس الهجريين أصبح ظاهرة علمية مشرقا ومغربا.

إذ شكل الفقهاء قوة جديدة لا يطعن في ولائها ونجاعته التي تفوق نجاعة الأسلحة، هذا الدور الذي اطلع به أهل الفقه "المالكية" بالغرب الإسلامي في دولة المرابطين وهو نفس الدور الذي يقوم به رجال الدين المسيحيين في دولة الشمال الإسباني رواد حركة "الاسترداد المسيحي" للأندلس، وظاهرة "الحروب الصليبية" مشرقا ومغربا أهلت أهل الشريعة ورجال الفقه إلى المكانة التي وصلوا إليها، فدور الكنيسة الأوروبية ورجالها في تلك الفترة هو من الشهرة بمكان حتى لا نحتاج إلى التأكيد عليه أو إبرازه، فهم يقفون وراء حركة الاسترداد بالأندلس، ووراء الحروب الصليبية، فالصراع إلى جانب كونه سياسي كان كذلك صراعا دينيا ولا يمكن بالتالي لرجال الشريعة من الجانب الإسلامي إلا أن يكونوا فيه في مقدمة الصف على جميع المستويات، خاصة دولة أخذت على عاتقها أعباء مواجهة المسيحيين في أقرب المناطق إليهم وأكثرها حساسية وهي الأندلس<sup>(1)</sup>.

---

(1) انظر: المعجب " للمراكشي " ص 253، قيام دولة المرابطين حسن أحمد محمود ص 329، الحياة الفكرية في عصر المرابطين محمد الأمين بلغيث: 209/1.

ومن هؤلاء الفقهاء ذوي الضمائر الحية "أبو الوليد الباجي (ت474هـ)، وهو أستاذ جيل المرابطين الذي استفرغ كل وسعه لأحياء الرابطة التي انفكت بين ملوك الطوائف، واعتبره الدارسون في هذه المرحلة واحدا من فقهاء الأندلس الذين دعوا للاستنجد بالمرابطين من أجل الوقوف في وجه نصارى الشمال، واشتغل ﷺ بالمهام القضائية وحفظ الأمانات والسفارة بين ملوك الطوائف لإصلاح ذات البين، فإن هذا الجهد الكبير لم يمنعه من بث العلم والمعرفة وتأليف الكتب والنصح للخاصة والعامة من المسلمين حكاما ورعية، ودعا للتأزر ضد الخطر المحدق بالأندلس في دروسه ومواعظه.

ولم يكن الباجي وحيدا في هذه المهام بل كان إلى جانبه الحافظ أبو عمرو بن عبد البر (ت463هـ)، وأبو الوليد بن رشد الجد (ت520هـ)، والقاضي أبو بكر بن العربي (ت543هـ) وغيرهم كثير.

ويبدو أن المرابطين قد نجحوا في الحصول على تأييد النخبة الفقهية والقطاع الأكبر من الرعية للطرح الإسلامي للدعوة المرابطية حيث كان العلم أساس دعوتهم الإصلاحية وعلى العلم قامت دولتهم، كما أن فقهاء الأندلس وجدوا ضالتهم في الدعوة الجديدة لتحقيق طموحاتهم العلمية والسياسية، كما هو مفصل في حوليات التاريخ وكتب الطبقات<sup>(1)</sup>.

وشكل فقهاء المالكية طبقة خاصة مقربة من الأمراء لمعرفتهم وإمامهم بأحكام الغنائم والخراج والجزية وغيرها من الأحكام الفقهية، وهم الذين يفتون بشرعية توجهات الأمراء " المرابطين " في الغزو والإنفاق

---

(1) انظر الأثر السياسي للعملاء في عصر المرابطين لمحمد محمود عبد الله بن بيه، ص 97  
فما بعدها، الفكر السامي للحجوي: 174/2.



وقد أجرى عليهم يوسف بن تاشفين (ت500هـ) الأرزاق من بيت المال طول أيامه، فكان لا يسير إلا وهم في ركابه، ولا يجلس إلا وقد حفوا به، ولا يكاد يقطع برأي إلا بعد استشارتهم<sup>(1)</sup>، كما أن ابنه علياً (ت537هـ) كان أكثر من أبيه انصرافاً إلى مخالطة الفقهاء ومجالستهم، وكان أميراً ورعاً تقياً زاهداً متبحراً في الدين حتى لقب بـ "ولي الله" شديد التقدير والتعظيم والإجلال للفقهاء والصالحين.

وكان من الطبيعي أن يعتمد الحكام الذين يتطلعون لنشر رسالة الإسلام على الفقهاء والعلماء ويدنونهم منهم، كي يحركوا فيهم وفي جندهم بواعث الجهاد المقدس حتى إنهم "أي الفقهاء" أفتوا يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بـ «جواز خلع ملوك الطوائف وقتالهم إن امتنعوا»<sup>(2)</sup>.

لقد تمتع علماء الشريعة عامة والفقهاء - من المالكية - خاصة بمكانة عالية عند المرابطين، فشاركوا في السلطة مشاركة فعالة، حتى أدى هذا الجو إلى ظهور أعلام جهابذة في الحديث والفقہ والتفسير وغيرها من الفنون منهم في الحديث:

1 - الحافظ أبو علي الحسين بن محمد الغساني (ت498هـ) تصدر جامع قرطبة وأخذ عنه الأعلام.

2 - الحافظ القاضي أبو علي الحسين بن محمد بن خيرة الصدفي (ت514هـ).

---

(1) انظر: نهاية الأرب للنويري: 180/22، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: 121/1 يوسف أشاخ.  
(2) انظر: نفح الطيب للمقري: 373/4.

## في الفقه:

1 - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (ت520هـ) زعيم فقهاء وقته بالأندلس والمغرب كان مقدما في الفقه على جميع أهل عصره عارفا بالفتوى على مذهب مالك رحمته الله وأصحابه بصيرا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم وقاضي قرطبة.

2 - القاضي أبو القاسم أحمد بن محمد بن ورد التميمي ت 540هـ الفقيه الأصولي المفسر الحافظ العالم المتفنن في كثير من العلوم، إليه انتهت رئاسة الأندلس في مذهب مالك بعد أبي الوليد بن رشد وشاركه في هذه الرتبة القاضي أبو بكر بن العربي (ت543هـ).

3 - القاضي أبو بكر بن العربي (ت543هـ) الفقيه المحدث المفسر اللغوي، الحاذق الأديب البارع، الأصولي المقتدر، المفتي المجتهد، فهو خليق الإعجاب جدير بالإعظام صاحب التصانيف الكثيرة قاضي إشبيلية.

## في التفسير:

1 - القاضي أبو بكر العربي (ت543هـ).

2 - القاضي الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عطية المحاربي الغرناطي (ت541هـ) صاحب كتاب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، كان إماما في الفقه والتفسير ولي القضاء بمدينة المرية.

3 - القاضي أبو بكر محمد بن إبراهيم بن احمد بن أسود الغساني (ت536هـ) الفقيه المحدث استقضي بمرسية.

وغيرهم كثير مليئة بهم صفحات كتب التراجم في مختلف المعارف والفنون.

## حالة الفقه في هذه الحقبة

في هذا الدور الذي انقسمت فيه الرقعة الإسلامية أقساماً عدة، قام على كل قسم منها وال تسمى بأمر المؤمنين، فأصاب الأمة جراء هذا، التفكك والضعف والانحطاط إذ تناحرت هذه الدول، وكثرت بينها الفتن، وتلاحقت المحن، وتقطعت الأوصال وانفصمت العرى، وحل العداة والفرقة محل الإخاء والألفة. وحسبك نظرة ما كان بين العباسيين والفاطميين، وانظر ما كان من تغالب الدول، وقيام بعضها على أنقاض بعض، فالسلجوقيون بعد بني بويه، والأيوبيون بعد الفاطميين، وفي أوائل القرن الخامس تحركت ريح الصليبيين وتجللت بلهيب النزعة الصليبية الحاقدة التي أصابت أوروبا المسيحية، وكانت تلك الحروب الكبرى والفتن العظيمة<sup>(1)</sup>.

وفي هذا الجو الذي تلبدت غيومه، وتعكر صفوه، واشتدت أعاصيره، بلغ العلماء رسالتهم، وأدوا أمانتهم، واضطلعوا بما حملوا، ونبغ كثير من كبار العلماء وأساطين المفكرين. إلا أن تلك الظروف السيئة وعوامل الاضطراب القوية أثرت في نشاط الحركة العلمية، فأبدلتها من القوة ضعفاً، ومن التقدم تأخراً، ومن النشاط فتوراً، ومن الشباب شيخوخة، وأماتت في العلماء روح الاستقلال الفكري وقصرت الهمم عن الاجتهاد إلى الاقتصار على الترجيح في الأقوال المذهبية، والاختيار منها، وتخرج في كل مذهب فقهاء عظام تناولوا المذهب بالتدوين والتنقيح والترتيب<sup>(2)</sup>.

واقترضوا على النقل عن تقدم فقط، وانصرف الهمم لشرح كتب المتقدمين وتفهمها، ثم اختصارها، ثم انتشرت فكرة الاختصار ثم التباري فيه

---

(1) تاريخ الفقه الإسلامي محمد علي السائس ص 111.

(2) انظر: المرجع نفسه ص 111.

مع جمع الفروع الكثيرة في اللفظ القليل وهو الذي أوجب الهرم . للفقهاء .  
وأفسد الفقه في بعض رأي العلماء. وصاروا قراء كتب لا محصلي علوم،  
ثم في الأخير اقتصروا على التحشية والقشور.

والتزم كل منهم مذهبا معينا لا يتعداه، ويبدل كل ما أوتي من قوة في  
نصرة ذلك المذهب جملة وتفصيلا، وصار لفظ الإمام . كما قال القاضي  
عياض في المدارك . ينزل عند مقلده منزلة ألفاظ الشارع.

وصار في هذا الدور من يريد الاشتغال بالفقه يتلقى كتب الإمام  
ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دونه من الأحكام، فإذا أتم ذلك صار  
من العلماء الفقهاء، وصارت مؤلفاتهم لا تعدو أن تكون اختصارا لمؤلف  
سبق أو شرحا له، أو جمعا لما تفرق في كتب شتى، ولا يستجيز أحدهم  
لنفسه أن يفتي في مسألة بما يخالف ما استنبطه إمامه.

وأصبحت الشريعة هي نصوص الفقهاء وأقوالهم وصار مبلغ جهدهم  
أن يفهموا كلام الأئمة، أو يقعدوا على قواعدهم، أم الاجتهاد فقد تناسوه  
حتى قالوا . أي علماء المذاهب الأربعة . بانسداد بابه على رأس المائة  
الرابعة وما جاء بعدها لما رأوه من إقدام بعض الأدعياء بالاجتهاد الذين لم  
تتوفر لهم أسبابه، ولم تتحقق فيهم أهليته على القول في الدين بغير علم.

ويرى المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة أن من العوامل الفعلية التي  
وجهت أفكار علماء المذاهب إلى الإفتاء بإغلاق باب الاجتهاد الأسباب التالية:

**1 . التعصب المذهبي:** إذ تعصب علماء هذا العصر لآثار أساتذتهم  
من الأئمة المجتهدين وصرفوا جهدهم في دراسة تلك الأقوال ونشرها  
ودعوة الناس إلى الأخذ بها دون سواه بدلا من السير على مناهجها، وبلغ  
اعتقادهم في أساتذتهم إلى حد بما أن أفتى به إمامه هو الحق ولو كان  
خطأ، وبمثل هذا الاعتقاد يفقد المرء ملكة الابتكار والتجديد .

2 . ولاية القضاء: فقد كان الخلفاء يختارون القضاة أول الأمر من المجتهدين لا من مقلديهم، ولكن الحالة الاجتماعية قد تغيرت بمرور الزمن فأثر الخلفاء اختيار قضاتهم من المقلدين وقيدوهم باتباع مذهب معين، وعينوا لهم ما يحكمون على أساسه، فكان هذا سببا في إقبال من يرغبون في مناصب القضاء على المذهب الذي يرتضيه الخليفة، يقلدونه ويقفون عند نصوصه.

3 . تدوين المذهب: فإن العصر السابق على هذا الدور كان حافلا بالتدوين والتصنيف فأصبح تناول العلم سهلا يسيرا، ولقد كان يدفع الناس إلى الاجتهاد في العصور السابقة ضرورة ملجئة إلى تعرف أحكام الحوادث والنوازل الجديدة التي لا يعرفون أحكامها، فلما دون المجتهدون السابقون الحوادث والنوازل التي عرضت عليهم وحتى التي يحتمل عروضها، صار الناس كلما عرضت لهم مسألة، وجدوا السابقين قد تعرضوا لها فأفتوا بمقالهم في شأنها، ولم يوجد ما يحفزهم إلى بحث جديد.

واقصر عمل العلماء في تلك المرحلة على التقليد والدوران في فلك الأئمة المجتهدين واتخذ كل منهم لنفسه مذهبا معيناً بيني على أصوله. ومع ذلك كان لأولئك العلماء من الفضل على الفقه ما يرفع شأنهم ويعلي من مكانهم فقد حفل ذلك الدور بطائفة من العلماء كان لها كبير الأثر في تنمية الفقه الإسلامي عموما والمذاهب الفقهية خصوصا ويمكن أن نحصر عمل العلماء في هذه المرحلة في ثلاثة أمور

### الأمر الأول

تعليل الأحكام إذ كان من أبرز ما أسهم به العلماء في هذا الدور هو استنباط علل الأحكام التي نقلت عن الأئمة، وترك الأئمة تعليل

أحكامها، فقام علماء هذا الدور باستنباط العلل، وبمعرفة هذه العلل أمكنهم الحكم في النوازل والواقعات التي لم يرد فيها حكم عن الأئمة السابقين<sup>(1)</sup>.

وظهرت الحاجة في هذا العصر الذي نحن بصدده إلى تعليل الأحكام لسببين:

1 - شيوع الجدل والمناظرات بين أتباع المذاهب كان يقصد كل فريق من وراء الغلبة وإقامة الحججة أن رأي إمامه هو الصواب ورأي غيره خطأ محض. وهذا بعكس المناظرات العلمية قبل هذا الدور كان يراد بها الوصول إلى الحق والصواب، ولذا كان من المتعين أن يبحث كل فريق عما يدعم إمامه من الأدلة.

2 - وكذلك لم يكن من السهل التعرف على أحكام ما لم يتعرض له الأئمة من الحوادث والنوازل تخريجاً على فروعهم إلا إذا ردت تلك الفروع إلى الأصول وعرفت مصادر طرق استنباطها.

### الأمر الثاني

الترجيح بين الآراء المنقولة عن الإمام مع الآراء المروية عن تلاميذه، والسبب في ذلك أنه قد يكون للإمام رأي في مسألة ثم يظهر له دليل على خلافه فيرجع عن الرأي الأول، فينقل بعض أصحابه الرأي الأول حيث لم يُعلم برجوعه عنه ومن علم برجوعه ينقل عنه الرأي الأخير، وقد يكون له عدة آراء صحيحة فيكتفى بالموازنة بين هذه الآراء الثابتة<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد علي السائيس: 144.

(2) انظر: تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد علي السائيس: ص 114 - 115.

### الأمر الثالث

الانتصار للمذاهب بطريق المقارنة كان من آثار شيوع المناظرة ومحاولة كل فريق من أتباع المذاهب نصرته المذهب الذي ينتسبون إليه، إن كثيرا من المؤلفات الفقهية التي وضعت في هذا العصر جاءت على طريقة الفقه المقارن، يحاول كل فريق ترجيح مذهب إمامه، على أن الانتصار للمذاهب قد أدى إلى وضع أتباع المذاهب المختلفة كتباً في مناقب أئمتهم، وقد أفادت هذه الكتب الوقوف على العوامل التي أثرت في اتجاهات الأئمة والقواعد العامة التي ساروا عليها في استنباطهم ما لم يرد ذكره في كتب الأصول<sup>(1)</sup>.

ولئن كان علما هذا الدور قد حجروا على أنفسهم، وألزموها اتباع إمام معين في قضاياها وفتاويها، فقد كان لهم من جليل الأعمال ما يرفع شأنهم، ويعلي قدرهم فإنهم لم يقفوا عند حد التقليد المحض، بل جمعوا الآثار ورجحوا بين الروايات وخرجوا علل الأحكام، واستخرجوا من شتى المسائل والفروع أصول أئمتهم وقواعدهم التي بنوا عليها فتاويهم، وخاضوا مسائل الحجاج والمناظرة، وأدلوا بالبرهان والحجج، وألفوا كتب الخلافات، جمعوا فيها أحكام الأئمة وأدلتهم، ونصر كل مذهب إمامه ودعم رأيه، وزيف أدلة مخالفيه، وأزالوا بذلك كل لبس وخفاء، وأفتوا في مسائل كثيرة لم يكن لأئمتهم فيها نص، فهم مكملون لمذاهب أئمتهم بما قاموا به من النظر في ترجيح الأقوال، والتنبيه على مسالك التعليل ومدارك الأدلة وبيان تنزيل الفروع على الأصول، وإيضاح المشكل وتقييد المطلق، ومقابلة بعض الأقوال ببعض والنظر في تمييز قوياها من ضعيفها<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد علي السائس: 116.

(2) المرجع نفسه ص 113.

## المراجع:

- الأندلس من الفتح المرصود إلى الفردوس المفقود، للدكتور عصام محمد شبارو، دار النهضة العربية بيروت، 1423هـ/2002م
- تاريخ الأمم الإسلامية "الدولة العباسية"، محمد الخضري بك.
- تاريخ الأمم الإسلامية للخضري بك، دار الفكر العربي
- تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد علي السائس، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.
- الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين، محمد الأمين بلغيث، رسالة دكتوراه الدولة 2003/2002، تحت إشراف الدكتور عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، جامعة الجزائر.
- العالم الإسلامي في العصر العباسي، حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريق، دار الفكر العربي.
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد بن الحسن الحجوي، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
- قيام دولة المرابطين حسن أحمد محمود
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي بيروت.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا علي بن عبد الله النبھاني، دار الكتاب المصري القاهرة.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء المغرب، ط7: 1978م.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1997م.





## ثورة الفقهاء

# وأَسباب سيادة المذهب المالكي بالأندلس

الدكتور حوالف عكاشة

كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامية، جامعة وهران

### تمهيد

لقد كانت إمارة عبد الرحمن وابنه هشام الأساس في ظهور المذهب المالكي بالأندلس وانتشاره، وهذه المرحلة التي تمتد من (138 - 180هـ)، هي الفترة كان الفقهاء يتمتعون فيها بالسيادة والاتفاق التام مع السلطة الحاكمة، خاصة في عهد هشام بن عبد الرحمن (172 - 180هـ) الذي كان مساندا لفقهاء المالكية مكرما لهم، لما يحملونه من علم مالك رحمته الله، حيث أنه أصدر مرسوما رئاسيا أقرَّ فيه بالتزام المذهب المالكي في القضاء والفتيا، وعدم الخروج عنه بحال من الأحوال.

إلا أن هذا الاتفاق بين الفقهاء والأمراء لم يدُم طويلا، فسرعان ما انقلبت الأحوال بتولي الحَكَم بن هشام السلطة، ووقعت الصاعقة على هذا البلد الذي عاش في استقرار، وأعلن الفقهاء الثورة على الأمير الحَكَم بن هشام، وبدوره قام الحَكَم بإبادة هؤلاء الفقهاء والقضاء على ثورتهم.

فما سبب هذا التَّحَوُّل، وما قِصَّة هذه الثورة، هذا ما سنعرفه في المبحث اللاحق.

### المبحث الأول: ثورة الفقهاء (هَيْجُ الرِّبْض)

إذا أردنا أن نعرف سبب هذا التحول، فلا بد من معرفة زمن هذا التحول، وهذا يدلنا على أن تولي الحَكَم بن هشام الإمارة هو التوقيت

الذي انقلبت فيه الأمور وتحولت من المودة والمحبة إلى الكراهية والعداء وقيام الثورة. ومن هنا نسأل: ما الذي فعله الحَكَم بن هشام حتى جعل الفقهاء ينقلبون عليه؟ ولمعرفة ذلك، لا بد من الرجوع إلى سيرة الحَكَم كما ذكرها علماء التاريخ والتراجم.

### أولاً: سيرة الحَكَم بن هشام

ذكر الحُمَيْدِيُّ في الجذوة ترجمة للحكم فقال: «ثم ولي بعده ابنه الحَكَم، وله اثنتان وعشرون سنة، يكنى أبا العاص، أمه أم ولد، اسمها زخرف، وكان طاعياً مُسْرِفاً، وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض الواقعة المشهورة، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم، وكان الربض مَحَلَّةً متصلة بقصره، فاتهمهم في بعض أمره، ففعل بهم ذلك، فسَمِّي الحَكَم الربضي لذلك، واتصلت ولايته إلى أن مات في آخر ذي الحجة سنة ست ومائتين»<sup>(1)</sup>.

وقال ابن حزم في حقه: «إنه كان من المجاهرين بالمعاصي، السافكين للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء»<sup>(2)</sup>.

وقد وصفه المقرئ بقوله: «وهو أول من جند الأجناد، واتخذ العُدَّة، وكان أفحل بني أمية بالأندلس، وأشدهم إقداماً ونجدة، وكان يُسَبَّهُ بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العباس في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء»<sup>(3)</sup>.

(1) جذوة المقتبس: 16. وهي نفس الترجمة كما ذكرها الضبي في كتابه بغية الملتبس: 14.

ينظر ترجمته كذلك في: تاريخ علماء الأندلس: 12، الأعلام للزركلي: 267/2، 268.

(2) نفح الطيب، المقرئ: 269/1.

(3) المصدر نفسه: 267/1.

ثم يذكر ما حدث له مع أهل الرِّبْض<sup>(1)</sup>: «وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة، لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته»<sup>(2)</sup>.

«وكان من جبروته أنه كان يُخْصِي من اشتهر بالجَمَال من أبناء رعيته ليدخلهم إلى قصره ويصرفهم في خدمته»<sup>(3)</sup>.

وقال ابن الأثير في تاريخه: «كان الحَكَمُ في صدر ولايته يُظَاهِرُ بشرب الخمر والانهماك في اللذات، وكانت قرطبة دار علم وبها فضلاء في العلم والورع، منهم يحيى بن يحيى الليثي راوي موطأ مالك عنه، وغيره، فثار أهل قرطبة وأنكروا فعله، ورجموه بالحجارة وأرادوا قتله...»<sup>(4)</sup>.

لقد ظَنَّ الحَكَمُ أن القوة العسكرية هي التي توطن ملكه، وتجبر الناس على طاعته وامتثال أمره، خاصة بعد انتصاره على عَمِيهِ المنافسين له في الحكم وهما سليمان وعبد الله المعروف بالبلنسي، ثم قضائه على أهل طليطلة الذين خرجوا عليه، وإنزاله مذبحه شنيعة بهم، وإرغامهم على طاعته بالقوة.

لقد فتح الحَكَمُ على نفسه جهات كثيرة، كان من الممكن اتقاء الكثير منها «فكانت في أيامه حروب وفتن مع الثوار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم»<sup>(5)</sup>.

---

(1) الرِّبْض: ضواحي المدينة و ما حولها من مساكن.

(2) نفع الطيب: 1 / 266.

(3) المصدر السابق: 1 / 269.

(4) الكامل في التاريخ، لابن الأثير: 6 / 188.

(5) نفع الطيب: 1 / 267.

وبعد هذه الانتصارات، اهتم الحَكَمُ بجنده اهتماما خاصا واختارهم من المماليك، وكان يسميهم الحُرْسَ لِعُجْمَتِهِمْ من جهة، ولشدتهم على الناس من جهة أخرى، فهم لا يخالفون للحكم أمرا، وقد بلغوا خمسة آلاف، منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل، وقد جعلهم على بابه ليخيف بهم رعيته، وكانت له عيون (الجواسيس) ينقلون له أخبار الناس لانعدام الثقة بينه وبين رعيته<sup>(1)</sup>.

حتى بلغ به الأمر أن اتخذ لنفسه حرسا من الصَّقَالِيَّةِ، وجعل رئيسا لهم هو ربيعا القَوْمَس من المعاهدين النصارى، وكان ربيعا بدوره يعين أعوانه من النصارى خاصة في جمع الضرائب من الناس والتي فرضها الحَكَمُ على رعيته، فكان هذا الأمر مثيرا لغضب أهل الأندلس، فهم لم يقبلوا دفع الضرائب فكيف يقبلون بأن يكون الذي يقوم بجبايتها من النصارى.

أضف إلى ذلك أن الحَكَمَ لم يستشر فقيها أو شيخا أو رجلا من أعيان البلد وصلاحائهم، بل لم يكن يعير اهتماما لهؤلاء، ولا لمكانتهم بين الناس، فهم رؤساء ومرشدون لهم في كل شيء، فلا طاعة لحاكم إذا كان مخالفا لطاعة الفقهاء.

لم يفهم الحَكَمُ هذه المعادلة إلا بعد فوات الأوان، وقيام الثورة ضده، وبالتالي فإن سيرة الحَكَمِ السيئة، وتعامله القاسي والمتهور هو الذي أثار غضب رعيته، فحول الاستقرار الذي كان في عهد أبيه هشام إلى ثورة اجتهد فيها نفر من الفقهاء، حيث ألَّبوا عليه الناس، وشككواهم في استحقاقه للإمارة، ودعوا إلى عزله عن الحكم.

---

(1) المصدر نفسه: 268 / 1.

ولأهمية هذه الحادثة التي كان لها الأثر الكبير في وجهة حُكْم بني أمية في الأندلس من جهة، وفي تثبيت والمذهب المالكي وسيادته في الأندلس، وفي بسط دور فقهاء مالكية الأندلس من جهة أخرى، سأتناولها بشيء من التفصيل حسبما وردت في كتب التاريخ و التراجم.

### ثانيا: حادثة هيج الرَبَض

قال ابن القوطية في كتابه تاريخ الأندلس، متحدثا عن هذه الحادثة: «ثم حدث بقرطبة حادث الهيج، وذلك أن قوما من أعلام قرطبة أنكروا عليه أشياء رابتهم، فأرادوا خلعه وقصدوا إلى ابن عم له يعرف بابن الشَّمَّاس، من ولد منذر بن عبد الرحمن بن معاوية، فخاضوا معه في ذلك وأرادوا تقديمه وخلع الحَكَم فأظهر لهم الإجابة، وقال لهم: عرفوني بمن معكم في هذا الأمر، فأوعدوه ليوم بعينه.

ثم قصد بنفسه إلى الحَكَم وأعلمه بذلك، فقال له: أردت أن تغري بأعلام بلدي، والله لتصححن هذا عندي أو لأضرب رقبتك، فقال له: ابعث إلي أمينك ليلة كذا، فبعث إليه فتات "برت" وكاتبه ابن الحذاء، جد بني الحذاء، فأقعدهم بمكان يسمعون ما يدور بينه وبينهم، فأتوه وأرادوا الأمر، فقال لهم: من معكم في هذا الرأي؟ فقالوا: فلان، والكاتب يكتب خلف الستار، فأملوا عددا كثيرا، حتى خشي الكاتب أن يُسَمَّى.

فصوت بالقلم في الرِّق، فثار القوم، وقالوا: فعلتها يا عدو الله ! فمن خرج من وقته ذلك فَرَّ ونَجَا، ومن توقف قبض عليه، فكان فيمن فَرَّ عيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى وغيرهما، وقبض على ستة من أعلام القوم المآخِر، فَضَلِبَ منهم يحيى بن مُضِر اليحصبي<sup>(1)</sup> من ساكني شَقْنَدَة،

(1) هكذا أثبت اسمه ابن القوطية، ولعله يحيى بن مضر القيسي الذي صلب.

وموسى بن سالم الخولاني، وولده، فثار أهل الربض بسبب ذلك وشهروا السلاح ودارت الحرب بينهم و بين الجند»<sup>(1)</sup>.

وذكر القاضي عياض هذه الحادثة، وهو يترجم للفقير يحيى بن مضر الذي كان من بين الذين أرادوا خلع الحَكَم بن هشام، قال: «فأرادوا خلعه و كانوا عدة من أعيان الفقهاء وأكابر العلماء والصلحاء وأكابر الناس وبياضهم، ولقوا فتى من بني عمه، عزموا على القيام معه وتقديمه، فوشى بهم إلى الأمير وأوقفه على صحة الحال بأن أدخل كاتبه وثقتة قبة له وأسبل عليه سترا، في يوم وعدهم الاجتماع فيه معهم، فلما حضروا، أقبل يسألهم عنم معهم في هذا الأمر، والكاتب يكتب إلى أن استراب بعضهم بكثرة سؤاله، وقيل: بل سمع صرير القلم وراء الستر، فكشفوه فوقفوا على الأمر، فسقط في أيديهم، وبادروا الخروج، فنجى من بادر، وقبض على من بقي، فكان ممن نجا يحيى بن يحيى، وعيسى بن دينار، وقبض على يحيى بن مضر فيمن قبض، فأمر الأمير بصلبهم على شط نهر قرطبة، وكانوا اثنين وسبعين رجلا من الفقهاء وأهل الصلاح، وقيل كان عدة من صلب مائة وأربعين، وقيل في شرح هذه القصة غير هذا، فعظم ما فعل في قلوب الناس وغدوا على جدة لم يزالوا متربصين للوثوب به، إلى أن أقاموا القيامة المشهورة بوقعة الربض، اصطلحوا فيها سنة اثنين ومائتين»<sup>(2)</sup>.

لقد تركت هذه المذبحة التي ارتكبها الحَكَم بن هشام سخطا وغضبا في نفوس العامة والخاصة، وأشعلت نار الثورة في مدينة قرطبة كلها، واستمرت من سنة 189هـ إلى يوم الثالث عشر من رمضان سنة 202هـ، حيث زحفت جموع الثوار من كل ناحية وتأهب الحَكَم في حرسه وجنده

(1) تاريخ افتتاح الأندلس: 51، 52. و ينظر: الكامل في التاريخ: 6/ 188، 189.

(2) ترتيب المدارك: 1/ 355، 356.

لردها، فتغلب الحَكَمُ عليهم وأمعنوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقا كثيرا، طاردوهم في كل مكان واستمر القتل والنهب ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق، وصلب الحَكَمُ على شاطئ النهر تجاه قصره ثلاث مائة رجل من الثوار صفوفًا منكسة، إرهابا لأهل قرطبة، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت، وقضى الحَكَمُ بإخلاء الرض من سكانه، فخرجوا ألوفًا استقر بعضهم بفاس، وسارت بقيتهم في البحر ونزلوا الإسكندرية، واستولوا عليها، ثم انتقلوا إلى جزيرة إقريطش ففتحوها<sup>(1)</sup>.

لقد أذاق الحَكَمُ رعيته ألوانا من العذاب والقهر ولكنه لم يستطع أن يخمد نار هذه الفتنة التي لم تزد شعبه إلا كرها وبغضا له، ولم يهنا بالعيش معهم في أمن وأمان، بل ظل عامة أهل قرطبة يتحدّونه ويتغامزون عليه، ويقدحون في سيرته، حتى رجع عن موقفه تجاههم، وندم أشد الندم على ما فعل برعيته، وأصدر عفوه الشامل، فعاد معظمهم، وعلى رأسهم يحيى ابن يحيى الليثي، وطالوت بن عبد الجبار، وأصبحوا من أهل شوره لا يخرج عن رأيهم، ولا يستشير غيرهم<sup>(2)</sup>.

ولقد أصيب الحَكَمُ بمرض لم ينفع معه الدواء لدعوات الفقهاء والمظلومين من رعيته.

قال ابن الأبار: «ولم ينل الحَكَمُ بعد وقية الرض حلاوة العيش، وامتحن بعلة صعبة طاولته أربعة أعوام، فلّت غربه وأطالت ضنائه، واحتجب فيها آخر مدته، واستتاب ولده عبد الرحمن في تدبير ملكه، فمات على توبة وندم على ما اقترف منها، بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين»<sup>(3)</sup>.

(1) المصدر نفسه: 1/ 266، 267. تاريخ المسلمين و آثارهم في الأندلس: عبد العزيز سالم:

24 ، 25. شيوخ العصر: 24، 25. المدرسة المالكية الأندلسية: 57، 58.

(2) شيوخ العصر: 26.

(3) الحُلَّةُ السِّيَرَاءُ، ابن الأبار: 1/ 46، 47.

وقال ابن القوطية: «وطاولت الحَكَمَ بعد هذا علة صحبته سبعة أعوام مات في آخرها على ندم و توبة، مما جرى على يده، وأخذته في العلة رقة، فكان يسهر بالقرآن إلى أن توفي ﷺ»<sup>(1)</sup>.

ومما يدل على أن الحَكَمَ قد تاب فعلا مما فعله مع الفقهاء وأهل الربض، ما حدث للفقير طالوت بن عبد الجبار المعافري الذي فرَّ من بطش الحَكَمَ، واستخفى عند يهودي قرابة العام حتى ظفر به الحَكَمَ عن طريق وزيره أبي بسام.

ولأهمية هذه القصة، وما فيها من فوائد وعبر سأذكرها كما أوردها ابن القوطية في تاريخه.

قال ابن القوطية: «وكان في من جلب عليه الربض طالوت بن عبد الجبار المعافري، وهو أحد من روى عن مالك ونظرائه من أهل العلم، فلما وقعت الواقعة فرَّ عن داره، وكان مسكنه بالمدينة يجاور المسجد والحفرة المنسوبة إليه، فاستتر عند رجل من اليهود عاما حتى سكنت الأحوال، وذهبت الثائرة، وكانت بينه وبين أبي بسام الوزير وَضَلَّة، وهو جد بني بسام الهرائين، فطال عليه الكون عند اليهودي، فقصد أبا بسام الوزير بين العشائين، فلما وصل إليه، قال له: أين كنت؟ قال له: عند رجل من اليهود، فَأَمَّنَّه وسكنه.

وقال له: الأمير - أبقاه الله - نادى على ما كان منه. وبات عنده، فلما أصبح قصد أبو بسام القصر بعد أن وَكَّلَ عليه من يحرسه، فلما وصل إلى الحَكَمَ، قال له: كيف رأيتك في كبش سمين على مِدْوَدَةٍ<sup>(2)</sup> اليوم سنة؟

فقال له الحَكَمَ: اللحم المشبع ثقيل، واللحم الصحراوي أخف وأعذب.

---

(1) تاريخ افتتاح الأندلس: 54.

(2) المِدْوَدَةُ: مَعْلَفُ الدَّابَّةِ.



فقال له أبو بسام: غير هذا أريد، طالوت عندي.

قال له الحَكَمُ: وأين ظفرت به؟

قال له: إني لطفنت عليه، فأمر بإحضاره، ووضع له كرسي، وجيء

بالشيخ يزعج إزعاجا شديدا، فلما مثل بين يديه.

قال له: يا طالوت، أخبرني لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر،

فكان يزيدك في البر والإكرام على ما كنت أفعله بك؟ هل أوردت قط عليّ

حاجة لنفسك أو لغيرك إلا سارعت على إسعافك فيها؟ ألم أعدك في

علتك مرات؟ ألم تتوف زوجتك فقصدتك إلى بابك، ومشيت في جنازتها

راجلا من الربض، ثم انصرفت معك راجلا حتى أدخلتكَ منزلك؟ فما بلغ

بك؟ وأي عندك إن لم ترض إلا بسفك دمي، وهتك ستري، وإباحة

حرمتي؟ قال له طالوت: ما أجد لنفسي في هذا الوقت مقالا خيرا إليّ من

الصدق، نشدتك الله؟ فلم ينفعك عندي كل ما صنعتَه فيّ شيئا.

فأخذت الحَكَمُ وجهة، ثم قال: والله لقد بعثت فيك وما في الأرض

عقاب إلا وقد مثلته بين يدي لأوقعه بك، فأنا أعلمك أن الذي أبغضني

لك، قد صرّفني عنك، فانصرف في حفظ الله آمنا، والله لا تَرَكْتُ بِرَّكَ، وما

كنت عليه في جانبك حياتي إن شاء الله، فليت الذي كان لم يكن. قال له:

لو لم يكن كان خيرا لك.

ثم قال له: أين ظفر بك أبو بسام؟

قال: والله ما ظفر بي، أنا ظفرتَه بنفسِي، وقصدته بوصلة كانت بيني وبينه.

قال: فأين كنت في عامك هذا؟

قال له: عند رجل من اليهود، فقال الحَكَمُ للوزير: يا أبا بسام، رجل

من اليهود حفظ فيه مَحَلَّةَ مِنَ الدِّينِ والعِلْمِ، وخاطر بنفسه وأهله وولده

معِي، وأردت أن تُنْشِبَنِي فيما أنا نادم عليه، ثم قال لأبي بسام: اخرج عني!

و الله لا رأيت لك وجها أبدا، وأمر برفع فراشه وعزله<sup>(1)</sup>.

(1) تاريخ افتتاح الأندلس: 53، 54.

نستخلص من هذه القصة فوائد وعبر، منها:

1 . أن الحَكَمَ ندم على ما فعل بالفقهاء ندما شديدا، ولهذا لما اكتشف بأن وزيره أبا بسام أراد أن يؤلِّبه على الفقيه طالوت، قال له: «وأردت أن تنشبنى فيما أنا نادم عليه»، ثم أصدر قراره بعزل وزيره أبي بسام.

2 . عقوبة من أنكر فضل شيخه في التعليم، وهذا ما حدث للوزير أبي بسام الذي جلس في حلقة شيخه طالوت وتعلم منه، ولكن أبا بسام لم يحفظ هذا الجميل، ولم يراع في شيخه فضل تعليمه، فوشى به عند الأمير الحَكَمَ، وكان ما كان من عاقبة هذا العقوق، أن عزل من منصبه، وأصبح في ذل وهوان، وانتكاسة وخذلان، ولعقبه من بعده، حيث يحدثنا ابن القوطية عن ذلك قائلا: «ولم تزل ورثته في ارتكاس وسفال إلى وقتنا هذا، وبقي طالوت مبرورا محفوظا على ما شرط له إلى أن توفي، فحضر جنازته الحَكَمَ»<sup>(1)</sup>.

3 . نستنتج كذلك أن الحَكِيمَ كان عادلا في أحكامه لا يحب الظلم، خاصة في مثل هذه المواقف التي تظهر فيها شهامته، وبره وتقديره للفقهاء، وقد ذكر ابن خلدون بعض خصاله الجليلة، فيما نقله عنه المقري، حيث قال: «وكان يباشر الأمر بنفسه، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين»<sup>(2)</sup>.

ومن الفقهاء الذين كان يقربهم الحَكَمُ ويأخذ برأيهم، الفقيه زياد بن عبد الرحمن، حيث يقول عنه المقري: «وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد

---

(1) المصدر نفسه: 54.

(2) نفح الطيب: 1 / 268.

الرحمن، وحضر يوما عنده، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله إليه كتابا كره وصوله، فأمر بقطع يده، فقال له زياد: أصلح الله الأمير! فإن مالك ابن أنس حدثني في خبر رفعه أن «من كظم غيظا يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمنا وإيمانا يوم القيامة»<sup>(1)</sup>، فأمر أن يمسك عن الخادم ويعفى عنه، فسكن غضبه، وقال: آله إن مالكا حدثك بهذا؟ فقال زياد: آله إن مالكا حدثني بهذا»<sup>(2)</sup>.

فهذه القصة كذلك تدلنا على أن الحَكَمَ كان يملك من الخصال الحميدة ما جعلته يكبح جماح غضبه، ثم يرجع عن حكمه، ليعفو عن الخادم، لأنه سمع من زياد حديثا رغبه في ثواب الله، فترك عقاب العبد طمعا في ثواب المعبود، وهذه الصفة لا تكون إلا للمؤمنين الذين قال فيهم المولى عز وجل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(3)</sup>.

لكن ما حدث في هيج الربض ومع الفقهاء مَحَى كل هذه الخصال الحسنة، ولهذا سمي بالحَكَمِ الرَّبْضِي لفعلة الشنيعة التي قام بها مع أهل الرَّبْضِ.

إلا أنه من الإنصاف أن نذكر ما حفظه لنا التاريخ من خصاله الحميدة، وأعماله الجليلة التي قام بها، والتي جعلته حقا من الأمراء

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الآداب، باب من كظم غيظا، 248 / 4، رقم: 4778. وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر و الصلة، باب في كظم الغيظ، 326 / 4، رقم: 2021، بلفظ: «من كظم غيظا و هو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء» قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(2) نفع الطيب: 267 / 1.

(3) آل عمران: 134.

الذين وُطدوا دولة الإسلام في الأندلس «وهو أول من جعل للملك بأرض الأندلس أُبُهَّة»<sup>(1)</sup>، وقد تركها لعقبه قوية حصينة مهابة الجانب لكل عدو يريد أن يقتحم شبرا من أرضها وينتهك حرمتها، ولهذا لما استنجدته تلك المرأة التي أغار العدو على قومها بوادي الحجارة، هَيَّبَ مسرعا بجيش عظيم «فغزا تلك الناحية، وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرّب الديار، وقتل عددا كثيرا، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أُبتدِرَ له أحد من تلك البلاد، فأحضر فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها»<sup>(2)</sup>.

ولما سأل الحَكَمُ المرأة وكانت نبيلة، هل أغثتك؟ قالت: والله لقد شفيت الصدور، وأنكيت العدو، وأغثت الملهوف، ثم دعت له بأن يغيثه الله وأن ينصره، حتى بدا السرور في وجه الحَكَمِ<sup>(3)</sup>.

ثم إنه لما وقعت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة، أكثر فيها مواساة أهل الحاجات، فغمر جوده هذه المأساة التي حلت ببلده، فكان هذا من خصاله الحسنة<sup>(4)</sup>.

ثم إن سيادة المذهب المالكي كانت في عهده بعد حادثة هيج الربض، وقد تصالح مع الفقهاء وأذن لهم بمشاركته في إدارة شؤون ملكه؛ حتى قال بعض الباحثين: إن الحَكَمَ هو الذي وَطَّدَ المذهب المالكي وسمح لفقهاء المالكية أن يسودوا على غيرهم.

---

(1) المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.

(2) المصدر نفسه: 270 / 1.

(3) المصدر السابق و الصفحة السابقة.

(4) المصدر نفسه: 268 / 1.

## المبحث الثاني: سيادة المذهب المالكي بالأندلس و أسبابها

يعتقد بعض الباحثين<sup>(1)</sup> أن سيادة المذهب المالكي في الأندلس، لم تتحقق إلا بعد حادثة هيج الربض، أي بعد تراجع الأمير الحَكَم عن موقفه من الفقهاء وإصداره العفو الشامل، بما فيهم الفقهاء الذين اشتركوا في الثورة، حيث قَرَّبَهُمْ إليه وشاورهم في كل ما يعرض عليه من القضايا السياسية والاجتماعية والدينية.

والحقيقة أن سيادة المذهب المالكي لم تأت بقوة السلطان فقط، وإنما جاءت عن طريق المجتمع الأندلسي الذي كانت له السيادة في اختيار المذهب المالكي، ولفقهائها القيادة والصدارة في المجتمع، ولهذا استطاعوا أن يعلنوا الثورة ضد السلطة حينما مَسَّ كيانهم المترابط.

لقد جاءت هذه الثورة لتؤكد سيادة المذهب المالكي على المجتمع الأندلسي، ولتقضي على أوهام الأمير الحَكَم الذي ظن بأنه سيقضي على ثورة الفقهاء وأهل الربض عن طريق القوة العسكرية، ولهذا تراجع عن معاداته للفقهاء وقربهم منه وشاورهم، لأنه أدرك أن رعيته يطيعون الفقهاء في كل ما يقولونه لهم، وكل من يعتدي عليهم فهم ضده، حتى ولو كان من السلطان نفسه.

وبهذا عَيَّرَ الحَكَم سيرته بأن قرب إليه الفقهاء لينال رضاهم، وليكسب تأييد رعيته، وليستعيد أهليته للحكم في نظر رعيته، فقد أصبحت حاجته إلى الفقهاء لا تنفصل عن حاجته للملك، وهو استمرار بني أمية في حكم الأندلس.

---

(1) من الباحثين الذين ذهبوا إلى هذا الرأي هو الدكتور محمود علي مكي، كما أشار إليه في بحثه المنشور بالإسبانية بعنوان "التأثيرات المشرقية في الأندلس ومدى أثرها في تكوين الثقافة الأندلسية".

ينظر: شيوخ العصر، حسين مؤنس: 12. وهو كذلك يميل إلى هذا الرأي كما صرح به في هذا الكتاب.

ومن هنا أستطيع أن أقول: إن ما طرأ على موقف الحَكَم بعد ثورة أهل الربض في الأندلس لم يكن بداية لسيادة المذهب المالكي، وإنما كان دعماً لهذه السيادة، وتأكيداً لاستمرارها فيما بعد، وهو ما نلمسه جلياً في إمارة عبد الرحمن<sup>(1)</sup> بن الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (206 - 238هـ)، حيث استفاد مما وقع لأبيه الحَكَم في بداية حكمه من اضطرابات ومشاكل بسبب ابتعاده عن الفقهاء، فعزم وبادر إلى بسط يده إلى الفقهاء، فأخذ بيدهم وقربهم منه، ورفعهم إليه، ثم أشركهم في كل صغيرة وكبيرة، وبهذا يكون قد اعترف بمكانة الفقهاء في المجتمع، ودورهم في استتباب الأمن وبسط النظام، وإضفاء الشرعية على الحكم.

لقد أصبح نفوذ الفقهاء بالأندلس في إمارة عبد الرحمن بن الحَكَم أوسع وأشمل، فقد أشركوا في إدارة شؤون البلاد من الوظائف العامة والخاصة، وأنشأ منهم جماعة رسمية للمشاورة عُرفت بالفقهاء المشاورين، وكان زعيم هؤلاء الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، الذي صار من أكثر الفقهاء المُقربين إلى عبد الرحمن بن الحَكَم، وكان يعظمه ويكرمه ويُدني منزلته، ويَبْرُهُ بِرَّ الابن لأبيه.

وفي هذا يقول ابن القوطية: «ثم ولي عبد الرحمن بن الحَكَم، فسار بخير سيرة،.... وكان يلتزم من إعظام يحيى بن يحيى وبِرِّه ما يلتزم الابن البار بالأب الحاني، وكان لا يولي القضاء أحد إلا عن رأيه»<sup>(2)</sup>.

وقد وصف القاضي عياض مكانته عند الأمير عبد الرحمن بقوله: «وكان الأمير عبد الرحمن بن الحَكَم يبجله، بتبجيله الأب، ولا يرجع

---

(1) ويسمى كذلك عبد الرحمن الأوسط، للتفريق بينه وبين عبد الرحمن الداخل، مؤسس دولة بني أمية في الأندلس، وعبد الرحمن الناصر الذي جاء بعده (300 - 350هـ).

(2) تاريخ افتتاح الأندلس: 55، 56.

عن قوله، ويستشيريه في جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله، فلذلك كثر القضاء في مدته»<sup>(1)</sup>.

لقد أضفى عاقل الأندلس - كما سماه شيخه مالك - يحيى بن يحيى الليثي على فقهاء المالكية بالأندلس صفة الشرعية والسيادة، فكان لا يعين من القضاة والمفتين والمشاورين وغيرها من الوظائف، إلا من كان مالكي المذهب، ولهذا احتاج إليه العامة والخاصة، وهو كما قال عنه ابن عبد البر رحمته الله: «انتهى السلطان والعامة إلى رأيه»<sup>(2)</sup>.

إن هذا النفوذ لفقهاء المالكية، وهذه السيادة للمذهب المالكي لها أسباب سأحاول تلخيصها فيما يلي:

### السبب الأول: دعم السلطة للمذهب المالكي

ويتجلى ذلك في سيرة أمراء بني أمية الذين حكموا الأندلس، حيث ورد في بعض الكتب التي نقلت لنا أقوالهم وتقريباتهم وأحكامهم وتصريحاتهم التي أصدروها، ما يدل على هذا الدعم والمساندة للمذهب المالكي، وسأعرض بعضها فيما يلي:

ما ورد عن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، حيث كان من أكثر الأمراء ميلا إلى فقهاء المالكية، وكان يجلبهم ويكرمهم ويعلي من شأنهم، ومن هؤلاء الفقهاء الذين كان يقربهم ويستمع إلى رأيهم زياد بن عبد الرحمن الملقب بشبظون. قال ابن القوطية: «كان الأمير هشام يؤثر زيادا ويكرمه، ويستنيم إليه، ويخلو به، ويسأله عمّا يعرض له من أمور دينه، فيأخذ برأيه»<sup>(3)</sup>.

---

(1) ترتيب المدارك: 1 / 537.

(2) الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء، ابن عبد البر: 106.

(3) ترتيب المدارك: 1 / 351.

ولقد «أخذ أمير الأندلس إذ ذاك هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الناس جميعا بالتزام مذهب مالك، وصير القضاء والفتيا عليه، وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة، في حياة مالك رحمه الله... وقد لحق به من أصحاب مالك عدة، فالتزم الناس بها من يومئذ هذا المذهب وحموه بالسيف<sup>(1)</sup> عن غيره جملة»<sup>(2)</sup>.

وقال الونشريسي في المعيار: «فأخذ هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس حينئذ جميع الناس بإلزامهم مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه... فالتزم الناس بهذا المذهب من يومئذ وحموا بالسيف عن غيره جملة، وما تدين بغيره أحد من حينئذ إلا من لا يؤبه به، فمضى أمر الأندلس على ذلك»<sup>(3)</sup>.

أما الحَكَمُ بن هشام فقد بدأ صدر إمارته بمعاداته للفقهاء، لأنه كان مجاهرا بالمعاصي سفاكا للدماء، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء، لكن بعد أن تاب ورجع، فقد تغيرت سيرته وكان ممن ساهم ولو في آخر حياته في سيادة المذهب المالكي، فقرب إليه يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت بن عبد الجبار من فقهاء المالكية، وكان يؤثر زياد بن عبد الرحمن ويأخذ برأيه<sup>(4)</sup>.

وفي إمارة عبد الرحمن بن الحَكَم، كانت لمجموعة الفقهاء المشاورين - وكلهم من المالكية - الصدارة والسيادة على المجتمع الأندلسي، فقد أولاهم الأمير عبد الرحمن من العناية والإكرام والتعظيم،

---

(1) لا يقصد بالسيف هنا القوة، وإنما المقصود السلطة التي تبنت المذهب المالكي ونشرته برغبة أهل الأندلس الذين التزموا به عن طواعية.

(2) المصدر نفسه: 55 / 1.

(3) المعيار المعرب للونشريسي: 356 / 6، 357.

(4) نفع الطيب: 1 / 266، 267، 268.



ولم يكن يخرج عن رأي يحيى بن يحيى الليثي في تعيين القضاة والمفتين والمشاورين، وهذا ما زاد المالكية تدعيما ونصرة لمذهبهم.

ثم تولى الأمراء من بعد هؤلاء كُلُّهُمْ على رأي واحد في تأييد فقهاء المذهب المالكي، وأبرز هؤلاء الأمراء الذين شَدُّوا على المخالفين لمذهب مالك، الحَكَمُ المستنصر (350 - 366هـ) الذي أصدر في عهده مرسوما يمنع مخالفة المذهب المالكي، وأن كل من يخالف هذا المرسوم ينزل به أشد العقاب.

لقد نقل لنا الونشريسي هذا المرسوم الذي أصدره الحَكَمُ المستنصر، حيث جاء فيه: «وكل من زاغ عن مذهب مالك فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله...ومن خالف مذهب مالك بالفتوى وبلغنا خبره أنزلنا به من النكال ما يستحقه، وجعلناه عبرة لغيره... فليتمسك الناس بهذا ولينها أشد النهي عن تركه، ففي العمل بمذهبه جميع النجاة»<sup>(1)</sup>.

ومن الأدلة التي توضح وتؤكد دور السلطة في سيادة المذهب المالكي في الأندلس، تَبَيَّنَ أمراء وخلفاء بني أمية المذهب المالكي، وهذا ما صرح به فقهاء المالكية بالأندلس أمام الخليفة الناصر ولم ينكر ذلك.

وفي هذا الشأن يحدثنا القاضي عياض عما وقع لفقهاء مالكية الأندلس عندما عارضوا فتوى الفقيه محمد بن يحيى بن لبابة التي خالف فيها قول مالك «فقال له الفقهاء: سبحان الله، نترك قول مالك الذي أفتى به أسلافنا، واعتقدناه بعدهم، وأفتينا به لا نحيد بوجه عنه، وهو رأي أمير المؤمنين ورأي الأئمة آبائه»<sup>(2)</sup>.

(1) المعيار المعرب: 26 / 12. و ينظر: ترتيب المدارك: 51 / 1.

(2) ترتيب المدارك: 401 / 2.

أما الخليفة الحَكَمُ المستنصر فكان متعصبا للمذهب المالكي، ولهذا كان شديدا على المخالفين منهم، ويتضح ذلك من خلال كتابه الذي أرسله إلى الفقيه أبي إبراهيم محمد بن إسحاق بن مسرة، ومما جاء فيه: «وكل من زاغ عن مذهب مالك فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله»<sup>(1)</sup>.

ومما يشير إلى أن السلطة تَبَنَّت المذهب المالكي، إلزامها القضاة الذين تعينهم بأن يحكموا بالمذهب المالكي، وهذا ما نلاحظه من خلال هاذين المثالين.

**المثال الأول:** للفقيه قاسم بن محمد بن سيَّار (ت 277هـ)، وكان شافعي المذهب، وقد صحب الأمير محمد بن عبد الرحمن (238هـ - 273هـ) زمنا طويلا، وكان صاحب وثائقه، لكنه كان «يفتي بمذهب مالك، وكان يتحفظ كثيرا من مخالفة المالكية»<sup>(2)</sup>.

قال أحمد بن خالد: «قلت له: أراك تفتي الناس بما لا تعتقد؟ وهذا لا يحل لك. قال: إنما يسألونني عن مذهب جرى في البلد يعرف فأفتيهم به، ولو سألوني عن مذهبي أخبرتهم»<sup>(3)</sup>.

**المثال الثاني:** للفقيه منذر بن سعيد البلوطي، قاضي القضاة بقرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ)، فقد «غلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري، فكان منذر يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته، ويأخذ به في نفسه وذويه»<sup>(4)</sup>.

ومع ذلك كان إذا جلس للقضاء حكم بمذهب مالك الذي هو مذهب الدولة المعتمد، قال المقري: «فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب

---

(1) المصدر السابق: 51 / 1.

(2) الديباج المذهب لابن فرحون: 320.

(3) المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

(4) نفح الطيب: 2 / 195.

الإمام مالك وأصحابه، وهو الذي عليه العمل بالأندلس، وحمل السلطان أهل مملكته عليه»<sup>(1)</sup>.

وإذا علمنا أن الفقهاء المشاورين الذين كانت تعينهم الدولة، من شروطهم أن يكونوا من فقهاء المالكية، والقاضي لا يرجع إلا إلى هؤلاء المشاورين، أدركنا أن القاضي ملزم بأن لا يخرج على أقوال الإمام مالك وأصحابه.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تبني السلطة الحاكمة بالأندلس للمذهب المالكي، كان موافقا لرغبة الأغلبية من المجتمع الأندلسي، ولقد أدرك أمراء بني أمية أن مساندة المذهب المالكي والحفاظ عليه دون غيره، يحقق لها وحدتها المذهبية، وبالتالي يؤدي إلى ضمان وحدتها السياسية، وهو ما يعني الاستقرار والأمن والأمان.

### السبب الثاني: دور فقهاء الأندلس في توطيد المذهب المالكي

وذلك من خلال استلامهم للوظائف الدينية، كالتقضاء والفتيا والمشاورة وغيرها، ونشاطاتهم العلمية المتمثلة في التدريس، والتأليف والشرح والاختصار والجمع والتبويب لأهميات كتب المالكية، وكل هذا ما كان يخرج عن أقوال مالك وأصحابه.

لقد أصبح المذهب المالكي هو النظام الذي يقوم عليه المجتمع الأندلسي، ويُسَيَّر حياتهم اليومية في معظم ميادينها المختلفة، وإن المَسَاس بهذا النظام هو المَسَاس بحياتهم، والمحافظة عليه هو المحافظة على حياتهم، ولهذا كان دور فقهاء المالكية بالأندلس في الحفاظ على هذا المجتمع، هو توطيد المذهب المالكي بما قدموه من جهود في شتى الميادين حتى يحافظون على سيادة المذهب المالكي.

---

(1) المصدر السابق و الصفحة السابقة.

السبب الثالث: وقوف فقهاء المالكية بالأندلس ضد المبتدعة  
والعابثين بالدين، ومن خالفوهم في المذهب

لقد شدد فقهاء مالكية الأندلس على كل مبتدع ومخالف للدين،  
وأصدروا فيهم الفتاوى بالتنكيل بهم وقتلهم، وقد ساندت السلطة هؤلاء  
الفقهاء، وقامت بتنفيذ هذه الأحكام على هؤلاء.

من هذه الأحكام ما حُكِمَ به على ابن أخي عَجَبٍ<sup>(1)</sup> الذي تلفظ  
بكلام يُمَسُّ لفظ الجلالة، فتدخلت عَمَّتُهُ عَجَبٌ، وكلمت الأمير عبد  
الرحمن بن الحَكَمِ ليعفو عنه، وكانت مُدَلِّلة عليه لمكانها من أبيه الحَكَمِ،  
فقال لها: «مهلا يا أماه! فلا بد أن يكشف أهل العلم عما يجب عليه في  
لفظه ذلك الذي شهد به عليه ثم يكون الفصل بعد في أمره، فإننا معشر بني  
مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم، وما نرى أن الله رفع ملكنا وجمع في  
هذه الجزيرة فلنا وأعلى فيها ذكرنا إلا بإقامة حدوده وإعزاز دينه وجهاد  
عدوه مع مجانبة الأهواء المضلة والبدع المروية»<sup>(2)</sup>.

ثم رفع عبد الرحمن أمره إلى القاضي محمد بن زياد اللخمي،  
وحضر من الفقهاء عبد الملك بن حبيب، وأصبع بن خليل، وعبد الأعلى  
ابن وهب، وأبو زيد بن إبراهيم، وأبان بن عيسى بن دينار، فشاورهم في  
أمره، وأخبرهم بما كان من لفظه<sup>(3)</sup>، «فأجاب ابن حبيب وأصبع بن خليل  
بقتله، وأجاب أبو زيد صاحب الثمانية، وعبد الأعلى بن وهب، وأبان بن  
عيسى بأن هذا عبث من القول، يكفي فيه الأدب وتوقفوا عن سفك دمه،  
وبمثلته أفتى القاضي حيثنذ محمد بن زياد، فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، أيشتم  
ربا عبدناه ثم لا ينتصر له، إنا إذا لعبيد سوء، ما نحن له بعبادين؟ وبكى ورفع  
المجلس إلى الأمير بها، عبد الرحمن بن الحَكَمِ الأموي، وكانت عَجَبٌ عمه هذا

(1) عَجَبٌ: وهي مَحْظِيَّةُ الحَكَمِ بن هشام.

(2) شيوخ العصر: 32.

(3) قال حينما أخذه المطر: «بدأ الخراز يرش جلوده». ينظر: المعيار المعرب: 2 / 362.

المطلوب من حظاياه، وأعلم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه وأمر بقتله، فقتل وصلب بحضرة الفقيهين، وعزل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القضية، ووبَّخَ بقية الفقهاء»<sup>(1)</sup>.

فهذه القصة تدلنا على شدة الفقهاء وعدم التهاون أمام من أراد أن يعبث بالدين، وكذلك موافقة الأمراء ومساندتهم لهم ضد هؤلاء حتى ولو كان من أقرب الناس، فلا شفاعة في حد من حدود الله، وهذا ما عبر عنه الأمير عبد الرحمن بقوله: «فإننا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم»<sup>(2)</sup>.

وفي مسألة قتل الزنديق، شاور الأمير عبد الله بن محمد (275 . 300هـ) الفقهاء، فأفتاه بقي بن مخلد بقتله ولكن بعد الاستتابة، ووافق على ذلك محمد بن سعيد الملون، وخالفهما قاسم بن محمد حيث أمر بقتله دون استتابة<sup>(3)</sup>.

وهذا ما يدل على أن كل الفقهاء متفقون في حكمهم على الزنادقة بالتشديد عليهم، وذلك بقتلهم، سواء قبل أو بعد الاستتابة.

وكان يذهب إلى هذا الرأي ابن لبابة، حيث كان يحتج بحديث رسول الله ﷺ، ومما جاء فيه: «أولئك الذين نهاني الله عنهم»<sup>(4)</sup>، ويقول بقتله لكن بعد استتابته<sup>(5)</sup>.

وكان بعض المتعصبة لمذهب مالك يلجؤون إلى رمي كل مخالف لمذهبهم بالبدعة والزندقة والإلحاد، ليؤلبوا عليه العامة، ويوغروا به

---

(1) المعيار المعرب: 362 / 2. و ينظر القصة كاملة في: قضاة قرطبة: 59، 60.

(2) شيوخ العصر: 32.

(3) جذوة المقتبس: 55.

(4) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، في كتاب المرتد، باب ما يحرم به الدم من الإسلام زنديقا كان أو غيره، 8 / 340، رقم: 16825. وأخرجه مالك في الموطأ، 1 / 171، رقم: 413.

وأخرجه الإمام أحمد في المسند، 5 / 432، رقم: 2372.

(5) جذوة المقتبس: 55.

السلطان لسفك دمه، وهذا ما وقع لبقي بن مخلد حين خالف الفقهاء، أغروا به السلطان وأخافوه به، وكانوا عازمين على سفك دمه وقطع أثره، لولا أن الأمير محمد بن عبد الرحمن تثبت في الأمر، ولم يسمع لمقاتلتهم واتهامهم، لكان ممن سينفذ فيه حكم القتل.

ولكن الأمير استدعاه مع الفقهاء وسمع منه، وبعد أن ظهرت له الحقيقة، قال لبقي بن مخلد: «انشر علمك وارو ما عندك من الحديث، واجلس للناس حتى ينتفعوا به أو كما قال، ونهاهم أن يتعرضوا له»<sup>(1)</sup>.

وكان موقف فقهاء الأندلس أمام الفرق الضالة، سواء من المعتزلة أو الجهمية أو الخوارج أو المرجئة أو الشيعة أو القدرية، كلهم كانوا يناصرونهم العدا، ويتشددون معهم وينكرون عليهم ويعاقبونهم، وقد ذكر المقدسي في القرن الرابع الهجري أن أهل الأندلس «إن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه»<sup>(2)</sup>.

ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن الفرضي أن خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الفضة، وكان في بداية أمره صديقا لمحمد بن وضاح، فلما جاهر بالقدر هجره، وكان ذلك بعد عودته من رحلته إلى المشرق، وقد أحرقت كتبه بعد موته إلا ما كان فيها من كتب المسائل»<sup>(3)</sup>.

وكذلك الفقيه أبي وهب عبد الأعلى بن وهب الذي كان ينسب إلى القدر، «وكان قد طالع في كتب المعتزلة ونظر في كلام المتكلمين، وكان يحيى بن يحيى، وابن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، يطعنون عليه بذلك أشد الطعن»<sup>(4)</sup>.

(1) جذوة المقتبس: 13. و ينظر: قضاة قرطبة: 72، تاريخ علماء الأندلس: 83.

(2) دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، خليل إبراهيم الكبيسي: 88.

(3) تاريخ علماء الأندلس: 120.

(4) ترتيب المدارك: 2/ 138. و ينظر: تاريخ علماء الأندلس: 129.

إن محاربة فقهاء مالكية الأندلس لهذه الفرق الضالة، ووقوفها ضد كل من يمس بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ جعلت الأندلسيين يختارون المذهب المالكي ويتمسكون به، لأنهم أدركوا أن مذهب مالك هو مذهب أهل السنة والجماعة، وأقواله من أقوال الصحابة والتابعين، وهذه الاعتبارات كلها مكنت للمذهب المالكي أن يسود على غيره.

وهذا ما جعل الفقهاء يبايعون الأمراء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومذهب مالك، كما رأينا ذلك سابقا عندما صرَّح ابن لبابة قائلا: «وهو رأي أمير المؤمنين ورأي الأئمة آبائه».

### خلاصة

يتضح لنا مما سبق من النصوص أن سيادة المذهب المالكي استمرت في الأندلس دون انقطاع للأسباب التي ذكرناها، وما عدا ذلك من المذاهب والأفكار لم يكن لها تأثير يذكر في الحياة الأندلسية، إلا ما نذرَ منها.

### المصادر و المراجع

- 1/ أخبار الفقهاء و المحدثين، محمد بن حارث الخشني القيرواني، وضع حواشيه سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1420هـ - 1999م).
- 2/ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة (1410هـ - 1990م).
- 3/ الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، ابن عبد البر، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، طبعة دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1417هـ - 1998م).
- 4/ بُغْيَةُ الْمُتَمَسِّسِ فِي تَارِيخِ رِجَالِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ، الضُّبِّي، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، طبعة (1967م).
- 5/ تاريخ افتتاح الأندلس، أبو بكر بن القوطية، تحقيق و تعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، طبعة (1989م).

- 6/ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، تحقيق روية عبد الرحمن السويقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1417هـ - 1997م).
- 7/ تاريخ المسلمين و آثارهم في الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة، الدكتور عبد العزيز سالم، بيروت، لبنان، طبعة (1962م).
- 8/ ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض، تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (بدون رقم و تاريخ طبع).
- 9/ جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الحُمَيْدي الأندلسي، تحقيق الدكتورة روية عبد الرحمن السويقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1417هـ - 1997م).
- 10/ الديق المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، القاضي إبراهيم بن فرحون المالكي، دراسة و تحقيق مأمون بن محيي الدين الجَّان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1417هـ - 1996م).
- 11/ دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، الدكتور خليل إبراهيم الكبيسي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، (بدون رقم و تاريخ طبع).
- 12/ شيوخ العصر في الأندلس، الدكتور حسين مؤنس، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة (1986م).
- 13/ قضاة قرطبة، أبو عبد الله الخشني القيرواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، مصر، طبعة (1966م).
- 14/ الكامل في التاريخ، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة (1402هـ - 1982م).
- 15/ المعيار المعرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، تحقيق بإشراف الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة (1401هـ - 1981م).
- 16/ المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري (نشأة وخصائص)، الأستاذ مصطفى الهروس، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، طبعة (1418هـ - 1997م).
- 17/ نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقرري التلمساني، تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (1419هـ - 1998م).





# ملامح الحياة الفقهية في عصر السعديين

الدكتور محمد أو إدير مسنان

نائب مدير التعليم القرآني، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

أستاذ - كلية العلوم الإسلامية - جامعة الجزائر

أصبحت الحياة العلمية ومعها الحالة الفقهية بنوع من الضعف في العهد المريني الأخير، بسبب ما اعترى المجتمع من ضعف سياسي واقتصادي واجتماعي ورثه الوطاسيون الذين أخفقوا في تحسين الأوضاع.

وكان قيام دولة السعديين بعثا جديدا للحركة العلمية<sup>(1)</sup>، فهي لم توجد «من عدم ولا بداية من فراغ، وإنما كانت نهوضا من عثار وصحوا من غشاوة»<sup>(2)</sup>، بيد أنها نهضة غلب على نشاط علمائها تحصيل ما وصل إليه السابقون وشرحه وتقرير مسأله<sup>(3)</sup>، ولم يخل الأمر من محاولات تهدف إلى تجاوز مرحلة استيعاب ما قرره السابقون إلى تقديم الإضافات وإعطاء الجديد.

## المبحث الأول: وسائط الحياة الفقهية في العصر السعدي

### المطلب الأول: عوامل النهضة العلمية في عصر السعديين

استعادت الحياة العلمية نشاطها وحيويتها في الحواضر والبوادي، وسارت جنبا إلى جنب مع نفوذ دولة السعديين وقوتها، خاصة وأن السمة

---

(1) انظر: النبوغ المغربي لعبد الله كنون (239/1)، الحياة الفكرية لمحمد حجي ص 54 - 55.

(2) الحياة الفكرية لمحمد حجي ص 62.

(3) انظر: النبوغ المغربي لعبد الله كنون (239/1).

البارزة لرواد ملوك الدولة السعدية أنهم جمعوا بين مواصفات رجال الدولة من حيث الحكمة في السياسة وتسيير دواليب الحكم، ومواصفات رجال العلم من حيث متانة التكوين العلمي والثقافي، فقد كان محمد الشيخ المهدي ذا ثقافة عالية مع ولوع بالشعر والأدب وعناية بكتب التفسير، وكان حفيده محمد بن عبد القادر فقيها وشاعرا وناثرا، وكان أبو مروان عبد الملك المعتصم يجيد عدة لغات كالإيطالية والإسبانية والتركية فضلا عن العربية<sup>(1)</sup>.

أما أحمد المنصور فقد اتفقت كلمة المؤرخين على مكانته العلمية الراقية وسعة باعه في التفسير والحديث، والأصول والفقه والسياسة الشرعية، والمنطق والبلاغة والأدب والتاريخ والتراجم، والرياضيات والفلك<sup>(2)</sup>، وترك بعض المؤلفات منها "المعارف" في السياسة الشرعية، و"العود أحمد" في الأذكار والأدعية<sup>(3)</sup>، وقيل فيه بأنه «خليفة العلماء وعالم الخلفاء»<sup>(4)</sup>، وعرف بعطفه على العلماء وتشجيعه لهم<sup>(5)</sup>، حتى قال فيه المنجور: «ما عهدنا بذل المثين في الصلات إلا في أيام الشرفاء، ولا عهدنا بذل الألوفاً إلا في أيام أمير المؤمنين المنصور أيده الله»<sup>(6)</sup>.

---

(1) انظر: الاستقصاء للناصرى (239/5)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 375.

(2) وقد كتب المنجور فهرسه بناء على استجازة أحمد المنصور، وقال في مقدمته ص 9: «...فلما تاقته الهمة العالية والنفس الكريمة المنصورية من مولانا أمير المؤمنين... خليفة العلماء وعالم الخلفاء، وحافظ المؤرخين وفائق الأدباء... والضارب بحظ وافر في كثير من العلوم... أبي العباس المنصور مولانا أحمد...».

(3) انظر: السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 376 - 377.

(4) فهرس المنجور ص 9.

(5) قال المقري في روضة الآس ص 14: «ومن مآثره:...إكرامه للفقهاء».

(6) الحياة الفكرية لمحمد حجي ص 55، النبوغ المغربي لعبد الله كنون (239/1).

وممن عرفوا بسعة العلم في الأسرة السعدية محمد المتوكل الجامع بين الفقه والأدب، ونجل المنصور أبو فارس عبد العزيز الأديب الشاعر الناثر، وكان زيدان أوسع ملوك السعديين ثقافة بعد والده المنصور، وله كتاب في التفسير جمع فيه بين آراء ابن عطية والزمخشري<sup>(1)</sup>.

ولا يخفى ما لهذه السمة من أثر بارز في ترقية الحركة العلمية الثقافية واستعادة حيويتها، إذ تنافس هؤلاء الملوك في تقريب العلماء وتشجيعهم، بل كانوا قدوة للرعية في طلب العلم، والناس على دين ملوكهم، وإضافة إلى ما ذكر يمكن إرجاع النهضة العلمية في عصر السعديين إلى عوامل ومؤثرات منها:

#### الفرع الأول: الظروف الاجتماعية والوظيفية الحسنة للفقهاء

حظيت العلماء والفقهاء بمكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع، وفتحت أمامها سبل الرزق والعيش الكريم، وشغل أهل العلم وظائف محترمة مناسبة لتكوينهم، منها:

#### أولا - القضاء والفتيا

كان منصب القاضي والمفتي في عصر السعديين خاصا بالمدن وبعض القرى المهمة، ويختار لهاتين الخطتين أكابر الفقهاء ويعينون بظهير (مرسوم) ملكي. ولئن كانت أجور القضاء والمفتين غير معروفة لدينا، فإن القرائن تدل على مدى رخاء عيشهم وسعة رزقهم، حيث كانوا يسكنون الدور الفخمة، ويملكون المزارع والحقول، ويقدمون الهبات والمساعدات للطلبة<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 377-378.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (116/1-117)، فاس وباديتها لمحمد مزين (559/2-560).

## ثانيا . الانتصاب للشهادة

تُرك للقضاة مهمة تعيين العدول المنتصبين للشهادة، ممن عرفوا بالكفاية والعدالة، ويضطلع هؤلاء العدول بتلقي الشهادات، ويتلقون أجورهم من الزبائن بحسب ما يحررونه من وثائق البيوع والأنكحة والمواريث ونحوها ممّا يضمن لهم كفاف العيش بل اليسار، مع ذلك فإنهم لم ينقطعوا عن مجالس التدريس في المساجد والمدارس<sup>(1)</sup>.

## ثالثا . الإمامة والخطابة

وهي وظيفة ذات أهمية بالغة، يختار للمساجد الكبرى نخبة العلماء والفقهاء، وأجور الأئمة والخطباء متفاوتة تبعا لأهمية المسجد والأوقاف المخصصة له، فمثلا أجره إمام جامع القرويين أكبر من أجره إمام جامع الأندلس، وكلاهما أقل من أجره خطيب مسجد فاس الجديد الذي يصلي فيه نائب السلطان وولي عهده، ومثل هذا يقال في مساجد المدن الأخرى، وحظي معظم الأئمة والخطباء بامتياز آخر يتمثل في السكنات الوظيفية التابعة للأوقاف<sup>(2)</sup>.

## رابعا . التدريس

اشتغل الكثير من الفقهاء بالتعليم في المدارس والزوايا، وكانوا يتقاضون على ذلك أجره، قال عنها الحسن الوزان (ليون الإفريقي): «أما الأساتذة ففيهم من يتقاضى مائة دوكة ومنهم من يتقاضى مائتين حسب الدروس التي يتعين عليهم القيام بها»<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (118/1)، فاس وباديتها لمحمد مزين (560/2).

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (118/1)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 406، فاس وباديتها لمحمد مزين (560/2 - 561).

(3) انظر: السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 398، 406.

وعُرفت الكراسي العلمية منذ عصر المرينيين، وازدادت العناية بها في عصر السعديين كما وكيفا، وخصصت لها الدولة وخاصة الناس وعامتهم أوقافا لضمان استمرارها، وهذه نماذج لأهم الكراسي العلمية:

- ففي القرويين نجد: كرسي البخاري بشرح فتح الباري، أنشأه أحمد الوطاسي في القرويين، وكرسي الموطأ وعمدة الأحكام في الحديث من إنشاء خطيب القرويين عبد العزيز الورياغلي، وكرسي محصل المقاصد في التوحيد<sup>(1)</sup>، ولعل منشئه هو أحمد المنصور.

- وعرف في جامع الأندلس بفاس كرسي الموطأ وعمدة الأحكام في الحديث من إنشاء خطيب القرويين عبد العزيز الورياغلي.

- واشتهر في مسجد الشرفاء بمراكش كرسي حرز الأمان في تجويد القرآن أنشأه أبو القاسم الكوش الدرعي، وكرسي البخاري، وكرسي مختصر خليل، لعلهما من إنشاء السلطان عبد الله الغالب.

- وفي مسجد أبي العباس السبتي في مراكش أنشأ أبو فارس بن أحمد المنصور كرسي التفسير.

- وانتظم جامع باب دكالة في مراكش كراسي علمية متعددة خصصت لها الحرة مسعودة الوزكيتية والدة أحمد المنصور أوقافا عديدة.

- وأقبل اطلبة العلم في الجامع الكبير بالمحمدية على كرسي البخاري، وكرسي الرسالة، وكرسي مختصر خليل، الظاهر أنها من إنشاء محمد الشيخ المهدي مجدد معالم هذه المدينة.

- وحفل الجامع الكبير في القصر الكبير بكرسي تفسير ابن عطية أنشأه أبو المحاسن الفاسي في حدود عام 1000هـ/1592م، وكراسي علمية أخرى.

---

(1) من تأليف أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني (ت899هـ)، وشرحه أحمد المنصور.

وتراعى في تسيير هذه الكراسي العلمية شروط الواقفين، ولم تكن تسند إلا للعلماء البارزين، وقد ضمنت لأصحابها فضلا عن المكانة والجاه موردا معاشيا معتبرا<sup>(1)</sup>.

#### خامسا . نساخة الكتب

ازدهرت نساخة الكتب في العصر السعودي تبعا للإقبال على العلم، واشتغل بذلك نساخ محترفون، كما لجأ بعض العلماء في كسب عيشهم إلى نسخ الكتب لأنهم عزفوا عن المناصب الرسمية والأخذ من الأموال الوقفية.

فمن العلماء النساخ الفقيه الحسن بن عثمان الجزولي الذي كان يتعيش من نسخ توضيح خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وشيخُ القراء بفاس محمد العدي الأندلسي الذي اشتهرت مصاحفه بجودة الرسم والضبط، فتنافس الناس عليها وبذلوا فيها أغلى الأثمان، وشيخُ المحدثين والصوفية أبو النعيم رضوان الذي انقطع لتدريس الحديث ونسخ كتبه، وتصدر الإشارة إلى أن الكثير من المخطوطات العلمية في العصر السعودي بقيت محفوظة إلى اليوم<sup>(2)</sup>.

#### سادسا . الهبات والصلات المالية

خاصة من الملوك والسلاطين، ولم تكن محدودة بمقدار ولا مضبوطة بزمان، بل كانت تعطى في المناسبات المختلفة كشهر رمضان والأعياد، والمولد، والحفلات، وكان أحمد المنصور أشهر من عرف بذلك

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (119/1 . 121)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 406 . 408.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (121/1).

حتى قال عنه المنجور: «ما عهدنا بذل المئين في الصلوات إلا في أيام الشرفاء، ولا عهدنا بذل الألوفاً إلا في أيام أمير المؤمنين المنصور أيده الله»<sup>(1)</sup>.

ومن نماذج ذلك أنه أعطى الفقيه الزموري الذي صلى به التراويح حوالي خمسة آلاف أوقية من ذهب، وجنانا، وأرضا للفلاحة بمراكش<sup>(2)</sup>.

### سابعاً - وسائل أخرى

إلى جانب الوسائل المذكورة سابقاً، اشتغل بعض العلماء ببعض الحرف والمهن لكسب عيشهم، منهم إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي الذي اشتغل بالصيد، ومحمد بن علي الشطبي الذي قسم أيامه بين التدريس والفلاحة والصيد، وأبو القاسم الكوش الذي يتقن حرفاً متعددة، والشيخ ميارة الذي اعتمد في معاشه على حلي من لباس النساء يكرهه للناس في الأعراس<sup>(3)</sup>.

والخلاصة أن أبواب الرزق والخير كانت واسعة متعددة أمام العلماء، وكان هذا سبباً في ترقية الحياة العلمية والفكرية، رغم بعض الاضطرابات السياسية والاجتماعية<sup>(4)</sup>.

### الفرع الثاني: الاستفادة من العناصر الثقافية المختلفة

رغم الانسداد السياسي الذي عرفه المغرب في العصر السعدي مع الضفة الشمالية بعد سقوط دولة الأندلس، ومع الضفة الشرقية بسبب النزاعات مع العثمانيين في الجزائر، فقد عرف تفتحاً على عناصر ثقافية متنوعة وثرية، تفاعلت مع العناصر المغربية فأنتجت نشاطاً فكرياً معتبراً، ويمكن عرض دور هذه العناصر فيما يلي:

(1) مناهل الصفا للفشتالي ص 175.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (123/1)، فاس وباديتها لمحمد مزين (561/2).

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (122/1).

(4) انظر: المرجع نفسه (124/1).

## أولا - العنصر المغربي

كانت بلاد المغرب زاخرة بما لا يعد من الشخصيات العلمية المنتشرة في مختلف المراكز الثقافية الموزعة على معظم مناطق البلاد، فمنهم من اكتفى بالدراسة في ربوع المغرب، ومنهم من كانت له رحلة في طلب العلم<sup>(1)</sup>، فأثرى الحياة العلمية بتجربة إضافية وملح ثقافي جديد<sup>(2)</sup>.

## ثانيا - العنصر الأندلسي

يمثل علماء الأندلس أهم العناصر الوافدة على أرض المغرب، وخاصة بعد انهيار مملكة غرناطة ومطاردة الموريسكيين، وحمل العنصر الأندلسي قيمة مضافة للثقافة المغربية<sup>(3)</sup>.

## ثالثا - العنصر الجزائري - التونسي

دخل المغرب في العصر السعدي علماء كثيرون من تلمسان ووهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وتونس، واستقروا في مناطق مختلفة من المغرب وخاصة في مدينة فاس، ورغم التشابه الثقافي في كل أقطار المغرب، فإن هؤلاء العلماء القادمين الوافدين قد أثروا الحياة العلمية بفضل تفوقهم في الدراسات الكلامية والعقلية والبلاغية، إضافة إلى دورهم البارز في علوم الشريعة الأخرى<sup>(4)</sup>.

---

(1) ومنهم: محمد بن محمد بن سليمان الروداني، وعبد العزيز بن عبد الواحد المراكشي، وعلي بن ميمون الغماري، واليسيتني، وأحمد بن القاضي، وسعيد المغوسي، وأبو بكر بن يوسف السكتاني...  
انظر: السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 409-410، رحلة العياشي ص 115.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/64-65).

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/65-67)، فاس وباديتها لمحمد مزين (2/576).

(4) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/68-69)، فاس وباديتها لمحمد مزين (2/577).



## رابعاً - العنصر المشرقي

بلغت أخبار دولة السعديين إلى أقطار المشرق، فانطلقت أقلامهم بالكتابة لملوك السعديين، وراحوا يرسلون هدايا تتضمن مؤلفاتهم المختلفة، وقابلهم السعديون بجوائز سنوية وهدايا ثمينة، وشد جماعة من علماء المشرق الرحال إلى أرض المغرب قادمين من مكة والمدينة والشام ومصر وبلاد الترك وفارس، فأثروا دراسات التفسير والحديث والأدب، وأتوا بمناهج جديدة في هذه العلوم والفنون<sup>(1)</sup>.

## خامساً - العنصر السوداني

امتد نفوذ السعديين إلى أرض السودان في مطلع القرن الحادي عشر الهجري، وكان من أثر ذلك انتقال نخبة من علماء هذه البلاد إلى مراكش وسوس وإليغ، وازدحم الطلبة على دروسهم في المواد اللغوية والشرعية، وكان لهم إسهام معتبر في التراجم والسير بفضل جهود أحمد بابا التنبكتي<sup>(2)</sup>.

## الفرع الثالث: تعدد المراكز الثقافية وانتشارها في الحواضر والبوادي

تعددت المراكز العلمية والثقافية في العصر السعدي، واستعادت المؤسسات العلمية كالزوايا والكتاتيب والمساجد والمدارس والمعاهد والمكتبات حيويتها ونشاطها بعد الركود الذي أصابها في أواخر العهد المريني والعهد والوطاسي، وخرّجت شخصياتٍ علميةً بارزةً أثرت الحياة الفكرية والعلمية، والجدير بالتّنويه والإشادة أن هذه المراكز لم ينحصر وجودها في الحواضر والمدن الكبرى فقط، بل اتسع مجالها ليشمل البوادي والأرياف، شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، ويمكن تقسيم هذه المراكز إلى ما يلي:

(1) انظر: روضة الآس للمقري ص 14، الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/69-70).

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/70-71).

## أولا - المراكز الحضرية الكبرى

عَرَفَ العصر السعودي ثلاثة حواضر كبرى، كانت مركز ثقل الحياة العلمية والثقافية هي:

أ . فاس: أخذت مكان الصدارة، خاصة خلال سنوات (915 - 984هـ/1509 - 1578م)، وذلك بسبب الهيئة العلمية الراقية التي أقامت فيها<sup>(1)</sup>.

ب . مراكش: تراجع المستوى العلمي لهذه المدينة خلال بعض الفترات، ولكنها استرجعت مكانتها خلال سنوات (968 - 1012هـ/1578 - 1603م)، واتخذها السعديون عاصمة لهم، فاستقطبت كفاءات علمية عديدة من المشرق والمغرب<sup>(2)</sup>.

ج . المحمدية (ترودانت): أقام فيها محمد المهدي الشيخ زهاء ثلث قرن، وعني بها السعديون فاكتملت مكانة عمرانية وسياسية وعلمية، واستقر فيها عدد من العلماء والمثقفين<sup>(3)</sup>.

## ثانيا - المراكز الحضرية الصغرى:

أذكر منها على الخصوص تطوان، وشفشاون، والقصر الكبير، ووجدة، ومكناس<sup>(4)</sup>.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (2/340، 345)، وراجع: السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 386 - 388.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (2/340، 375)، وراجع: السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 384 - 386.

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (2/403).

(4) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (2/417 - 437)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 393 - 394.

### ثالثا - المراكز القروية

وهي كثيرة سأكتفي بتعدادها وتقسيمها حسب الجهات، ومن أراد الاطلاع على تفاصيلها وأسماء علمائها فليرجع إلى الدراسات التاريخية التي عنيت بهذا الجانب<sup>(1)</sup>.

أ - ففي الشمال نجد بَطُوِيَّة، وبني زيان، وبني زُجَل، وبني حَسَّان، وجبل العَلَم، وجبل الأشهب، وغُصَاوَة، ووزَّان، وبني زروال، وبني دركول، وتَلُوغُرَّاس، وتازغَرْدَة، وورغَة، وسلاس، وبني وَزْيَاكَل - بالكاف المعقودة -، وفشتالة، وزرهون، وغمارة<sup>(2)</sup>.

ب - وفي الوسط اشتهرت زاوية الدِّلاء (الزاوية الدلائية)، والصُّومعة، وزاوية آيْث عياش (الزاوية العياشية)، وفجيج<sup>(3)</sup>.

ج - وفي الجنوب انتعشت مراكز رئيسة تشعبت عنها فروع كثيرة، من هذه المراكز:

- تَفِيْلَات تشمل مُدغَرَة، وكُلْمِيْمَة - بالكاف المعقودة -، وفركلة، وسجلماسة.

- درعة التي انتظمت تحتها مراكز فرعية مثل دادس، وزاوية ابن مهدي، وأَعْلَان، وتَكْمَدَارْت - بالكاف المعقودة -، وزاوية سيد الناس، وزاوية سيدي علي، وزاوية تَمَكْرُوت - بالكاف المعقودة -، ولكِنَّاوَة.

- سوس: يمثل العهد السعودي بالنسبة لهذا الأقليم عصر النهضة العلمية الكبرى، وتتوزع مراكزها العلمية الثقافية إلى ثلاث مجموعات:

---

(1) تتبعها الدكتور محمد حجي في الحياة الفكرية (2/454 - 639).

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (2/454 - 496)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 392 - 393.

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (2/499 - 516)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 394.

- ففي سفح الأطلس الكبير نجد زاوية زُدَاغَة، وزاوية ابن وَيَسْعَدَنْ.  
- وفي السهل عُرِفَت تَبِيوْت، وماسّة، وأَكْلُو - بالكاف المعقودة ..  
- وفي الأطلس الصغير اشتهرت تَزْمُوت، وآيْت الطَّالِب، وَأَفْلَأْ وَكُنْس -  
بالكاف المعقودة ،، وويجَان، وتَلْكَاتُ - بالكاف المعقودة ،، وَأَزْرِيْف، وعين  
الطُّلْبَة، وزاوية سيدي أحمد بن موسى، وإِبْلِيْع، وأَكْرَسِيْف - بالكاف  
المعقودة ،، وَأَمْلُنْ، وأَقَا، وتَمْنَازْت، وَأَسْرِيْر.  
د - وفي الصحراء والسودان التي كانت وقتئذ تحت عصر السعديين  
نجد: بني عَبَّاس، وتِيكُوْرَارِين - بالكاف المعقودة ،، ووَلاَنَة، وتنبكتو(1).

### المطلب الثاني: المؤسسات العلمية

أولى السعديون للحركة التعليمية مكانة خاصة، وذلك تلبية لإقبال المجتمع المتزايد على طلب العلم، فاجتهدت الجهات الرسمية والشعبية في استغلال المؤسسات التعليمية القديمة، وإحياء ما اندثر منها، وإنشاء مؤسسات جديدة، ويمكن تصنيف هذه المؤسسات كما يلي(2):

### الفرع الأول: المؤسسات التعليمية

#### أولا - الكتابات

ويطلق عليها في الحواضر المغربية اسم "مسيد" أخذنا من كلمة "مسجد"، وفي البوادي "جامع"، وهي المؤسسة التعليمية التي تتكفل بمرحلة التعليم الأولى، يقرأ فيها الأطفال من سن الرابعة إلى العاشرة، هدفها الرئيس هو تحفيظ القرآن الكريم باستعمال طريقة اللوح، إضافة إلى تعليم مبادئ

---

(1) توسع فيها الدكتور محمد حجي في الحياة الفكرية لمحمد (519/2 . 639).  
وانظر: السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 388 . 394.  
(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (81/1 . 84).

القراءة والكتابة، وأحياناً يحفظون الكراريس، وهي أراجيز وامتون صغيرة تتعلق برسم القرآن ووقفه وتجويده، ومبادئ التوحيد والفقه والنحو.

ولم تخلُ بادية أو حاضرة من الكتابيب القرآنية التي بُني جُلُّها من الأموال الخاصة، وعددها كبير يتعذر استقصاؤه أو تحديده بالضبط<sup>(1)</sup>، ومع ذلك يمكن الاستئناس بالحسن الوزان (ليون الإفريقي) الذي تحدث عن كتابيب فاس في العصر المريني وذكر أن عددها بلغ مائتين (200)<sup>(2)</sup>.

ومن البديهي أن هذه الكتابيب يشرف عليها معلمون ذوو تكوين دراسي لا بأس به، ويتقاضون أجره يتكفل بها عادة أولياء التلاميذ<sup>(3)</sup>.

### ثانياً - المدارس والزوايا

انتشرت المدارس العامة في كل المدن الرئيسة والمتوسطة، يرجع معظمها للعصر المريني، وكانت خاضعة لرقابة دقيقة من الهيئات الوقفية لأن معظمها تابع لها، وأنشئت أيضاً مدارس خاصة على شكل زوايا. ولم تكن تتجاوز هذه المؤسسات المستوى الدراسي المتوسط<sup>(4)</sup>، أما التعليم العالي فكان يتلقى في المدارس الكبرى بفاس التي يقصدها طلبة الشمال، ومراكش التي يؤمها طلبة الجنوب، ثم أنشأ السعديون مؤسسات أخرى في المحمدية وسوس صارت تضاهي نظيراتها في فاس ومراكش<sup>(5)</sup>.

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجّي (339/2)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 395، 397.

(2) انظر: وصف إفريقيًا للحسن الوزان (ليون الإفريقي) (261/1)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 395.

(3) انظر: السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 396 - 397.

(4) يعادل الآن المستوى الثانوي.

(5) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجّي (125/1)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 398.

وليس في المصادر المتاحة إحصاء لعدد المدارس والطلبة، ولكن أحد خريجي القرويين في القرن 13هـ/19م قدر عدد طلبة هذه المؤسسة بين سبعمائة وألف، ولعلّ هذا العدد لا يختلف كثيرا عما كان عليه في عهد السعديين.

وكثر الإقبال على مدارس مشهورة، كمدرسة باب الجيسة، ومدرسة العطارين، ومدرسة الصغارين، والمدرسة المصباحية في فاس، ومدرسة ابن يوسف في مراكش، والمدرسة البونعمانية في جنوب سوس، ومدرسة سكتانة بالأطلس الكبير، ومدارس أخرى في المحمدية<sup>(1)</sup>.

وأولت الدولة عناية كبيرة بهذه المدارس أيام ازدهارها واستقرارها، ووفرت للطلبة سكنات مجانية يراعى في توزيعها ما يضمن راحتهم وتحصيلهم<sup>(2)</sup>.

وساهمت الطبقات الاجتماعية المختلفة في دعم هذه المدارس وتجهيزها وتسييرها والإنفاق عليها<sup>(3)</sup>.

### ثالثا - المساجد

كانت المساجد المنتشرة في كل ربوع البلاد قلاعا علمية حافلة بالدروس العلمية، وهي بمثابة معاهد متوسطة وعالية تنتظم مستويات تعليمية متوسطة وعالية يكمل بعضها بعضا، ولذلك فإن متابعة الدروس بها لا تتاح إلا لمن اجتاز المرحلة الابتدائية في الكتابيب.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/126 - 127)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 398.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/126 - 127).

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/128 - 129).

وطريقة الدراسة تعتمد نظام الحلقات والكراسي العلمية التي يؤطرها أكابر العلماء، وهو نظام مفتوح حيث يمكن للطالب أن يحضر - مثلا - درسا فقهيا من شرح متن ابن عاشر، ثم يحضر درسا فقهيا آخر في شرح مختصر خليل مع تفاوت المستويين، وهكذا في بقية العلوم، كما كانت له حرية اختيار الأستاذه<sup>(1)</sup>، إلا أن الطلبة أدركوا سنة التدرج في التحصيل، فكانوا لا ينتقلون إلى مستوى حتى يفرغوا من الذي قبله<sup>(2)</sup>.

ولا تسعفنا الكتابات التاريخية بمعلومات إحصائية حول عدد المساجد، ولكن الأکید أنها كثيرة ومنتشرة في كل ربوع البلاد، ففي مدينة فاس اشتهر جامع القرويين، وجامع الأندلس، وجامع فاس الجديد. وفي مراكش عرف جامع الشرفاء، وجامع باب دكالة، ومسجد أبي العباس السبتي، وجامع المنصور. كما اشتهر الجامعان الكبيران في المحمدية (تروانت)، والقصر الكبير<sup>(3)</sup>.

#### الفرع الثاني: المكتبات (الخزائن)

ترجع جذور اهتمام المجتمع المغربي بالمكتبات والخزائن العلمية إلى عصر الأدارسة والمرابطين من خلال العناية بالمكتبات الخاصة، وتطور الأمر أيام الموحدين والمرابطين بفتح المكتبات العامة. وعمل السعديون على إحياء ما اندرس من الخزائن والمكتبات في سياق بعث المؤسسات العلمية، وتنافس عامة الناس وخاصتهم والجهات الرسمية في تكوين مكتبات جديدة وتزويدها بالنفائس والذخائر<sup>(4)</sup>.

---

(1) ومتى اختار الطالب أستاذه والتزم معه، فإنه من غير اللائق بعد ذلك العدول عنه إلى حلقة أستاذ آخر.

(2) انظر: السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 398 - 400.

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/118 - 120)، روضة الآس للمقري ص 20.

(4) انظر: لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى للمنونني صفحة: أ. د، الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/182)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 379.

وشهد السعدي عشرات المكتبات العامة، ومئات المكتبات الخاصة في الحواضر والبوادي، وفيما يلي عرض أهمها:

### أولا - المكتبات العامة

لم تخل المساجد الكبرى من مكتبة عامة تحوي عددا من المصاحف والكتب الدينية واللغوية، وهي مفتوحة للقراء وفق نظام يشرف عليه قيم المكتبة. ومن أشهر هذه المكتبات العامة: مكتبة القرويين بفاس، ومكتبة جامع الأندلس بفاس، ومكتبة ابن يوسف، ومكتبة جامع الشرفاء بمراكش، ومكتبة الحرم العباسي بمراكش، ومكتبة جامع الحرة بمراكش، ومكتبة الجامع الكبير بالمحمدية، ومكتبة المسجد الأعظم بمكناس، ومكتبة جامع قصبه الرباط، ومكتبة الجامع الأعظم بأسفي، ومكتبة الجامع الكبير بالدلاء<sup>(1)</sup>.

### ثانيا - المكتبات الملكية

عني أفراد العائلة الملكية السعدية بالكتب، فظهرت على أيديهم خزائن ملكية عديدة منها: خزانة الأميرة مريم بنت السلطان محمد الشيخ الأول، وخزانة الأمير محمد بن عبد القادر بن السلطان محمد الشيخ الأول، وخزانة السلطان عبد الله الغالب بن السلطان محمد الشيخ الأول، وخزانة السلطان أبي العباس أحمد المنصور، وخزانة أبي فارس عبد الله الوائق، وخزانة محمد الشيخ المأمون، وخزانة أبي المعالي زيدان، وخزانة أمير إيليغ قرب تزرwalt بسوس<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (184/1 - 187)، السياسة والمجتمع في العصر السعدي لإبراهيم حركات ص 378 - 380 روضة الآس للمقري ص 22.

(2) انظر: لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى للمنونني صفحة: هـ. ي.



### ثالثا . المكتبات الخاصة

لم تخل منازل علماء العصر السعودي في الحواضر والبوادي من مكتبة صغيرة أو كبيرة، وشاركهم في هذا بعض الملوك والأمراء وأعيان الدولة وفئة من التجار، وجرت عادة أصحاب هذه المكتبات بفتحها للقراء.

وأشهر المكتبات الخاصة التي ذاع صيتها هي: مكتبة آل الغرديس بفاس<sup>(1)</sup>، مكتبة بني الملجوم بفاس، ومكتبة آل ابن القاضي بفاس، ومكتبة الهبطيين بالريف، ومكتبة الصومعيين بتادلا، والمكتبة الملكية بمراكش<sup>(2)</sup>، ومكتبة تمكروت بدرعة، ومكتبة المزوار بالأطلس الكبير<sup>(3)</sup>، ومكتبة الزاوية العياشية بوسط الأطلس، ومكتبة آل ابن طاهر بتفيلالت، إضافة مكتبات خاصة أخرى في مناطق مختلفة...<sup>(4)</sup>.

- 
- (1) قال المنجور عن صاحب المكتبة: ((..فكان لا يضمن بكتاب علم عن طالب، فلكم أعاني . ﷺ . بكتبه العلمية)). راجع الحياة الفكرية لمحمد حجي (188/1).
- ومن هذه المكتبة استقى الونشريسي مادته العلمية التي ضمنها كتاب المعيار، كما جاء في فهرس المنجور ص 51.
- (2) تذكر الكتابات التاريخية أن زيدان بن المنصور إثر هزيمته أمام ابن أبي محلي عمل على إنقاذ جزء من رصيد هذه المكتبة يتكون من ثلاثة آلاف مخطوط، واستنجد ببحارة فرنسي لنقلها إلى أغادير، لكن ربان السفينة فر بحمولة السفينة نحو مرسيليا، فتعرض في الطريق لقرصنة إسبانية تم على إثرها السطو على ذلك المخزون المهم من الكتب، الذي شكل فيما بعد رصيد مكتبة الإسكوريال من المخطوطات الإسلامية.
- انظر: الاستقصا للناصرى (276/5)، الحياة الفكرية لمحمد حجي (183/1)، لمحة عن تاريخ الخزائن الملكية بالمغرب الأقصى للمنونى صفحة ح.
- (3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (191/1).
- (4) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (188/1 . 193)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 381 . 382، وتحدث القادري عن مكتبة الصومعيين في نشر المثاني (1137/3).

## المبحث الثاني: النشاط الفقهي ونتائجه

تعددت جوانب النشاط الفقهي في هذا العصر تعليماً وتأليفاً، وكثرت الهيئة العلمية الفقهية، وأثيرت بعض القضايا الفقهية المطروحة وقتئذ كنتيجة وإفراز لهذا النشاط الفقهي.

### المطلب الأول: حركة التعليم

نشطت الحركة التعليمية في هذا العصر بفضل الهيئة العلمية الكبيرة التي توسعت في ربوع البلاد، وشملت المواد الدراسية مجالات متعددة متنوعة، وشاعت طريقة المختصرات والامتون<sup>(1)</sup>، وسأعالج هذا الموضوع من خلال النقاط التالية:

### الفرع الأول: الهيئة العلمية الفقهية

تكوّنت الهيئة العلمية للعصر السعودي من مئات الشخصيات التي تضلعت في علوم عصرها أو بعضها، وكانت لها مشاركة في التأليف والتعليم والقضاء والفتوى والجهاد والإصلاح الاجتماعي والعمل السياسي.

وسأركز على أعيان القرن الحادي عشر فقط، مكتفياً بإشارات وجيزة عنهم نظراً لكثرتهم، سالكا الترتيب الزمني لوفياتهم.

- أبو القاسم بن علي الشاطبي قاضي الجماعة بمراكش (ت1002هـ)<sup>(2)</sup>.

- عبد الواحد بن أحمد الحسني السجلماسي شيخ الجامع الكبير بمراكش

(ت1002هـ)<sup>(3)</sup>.

- أبو القاسم قاسم بن سودة، الفقيه الأصولي المتكلم (ت1004هـ)<sup>(4)</sup>.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/81-84).

(2) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (3/1067)، طبقات الحضيكي (1/177).

(3) انظر ترجمته في: طبقات الحضيكي (2/517)، لقط الفرائد لابن القاضي (3/1078).

(4) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (3/1079)، الفكر السامي للحجوي ص 604.

- . أبو زكريا يحيى بن محمد السراج الفاسي، المحدث الفقيه المفتي (ت1008هـ)<sup>(1)</sup>.
- . محمد بن يوسف الترغي، استوطن مراكش، المقرئ المحدث المفسر الفقيه (ت1009هـ)<sup>(2)</sup>.
- . أحمد المنصور الملك السعودي خليفة العلماء وعالم الخلفاء (ت1012هـ)<sup>(3)</sup>.
- . أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار، الفقيه المحدث النسابة الخطيب (ت1012هـ)<sup>(4)</sup>.
- . أحمد بن محمد الغرديس من عائلة توارثت العلم والجاه (ت1020هـ)<sup>(5)</sup>.
- . أبو العباس أحمد بن يوسف الفهري الفاسي ذو الباع في الحديث (ت1021هـ)<sup>(6)</sup>.
- . أبو علي الحسن بن يوسف الزياتي، المقرئ النحوي (ت1023هـ)<sup>(7)</sup>.
- . أحمد بن علي العلمي من علماء شفشاون البارزين (ت1027هـ)<sup>(8)</sup>.
- . علي بن يوسف الفاسي من علماء القصر الكبير الذين درسوا في فاس (ت1030هـ)<sup>(9)</sup>.
- . أبو القاسم بن محمد بن أبي النعيم الغساني الفاسي (ت1032هـ)<sup>(10)</sup>.

- 
- (1) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (1079/3)، النبوغ المغربي لعبد الله كنون (248/1).
- (2) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (1009/3)، طبقات الحضيكي (290/1).
- (3) انظر ترجمته في: درة الحجال لابن القاضي (106/1)، نشر المثنائي للقادري (1125/3).
- (4) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (1114/3)، النبوغ المغربي لعبد الله كنون (246/1).
- (5) انظر ترجمته في: طبقات الحضيكي (77/1)، نشر المثنائي للقادري (1195/3).
- (6) انظر ترجمته في: طبقات الحضيكي (53/1)، النبوغ المغربي لعبد الله كنون (247/1).
- (7) انظر ترجمته في: النبوغ المغربي لعبد الله كنون (254/1).
- (8) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (1236/3)، الحياة الفكرية لمحمد حجي (425/2).
- (9) انظر ترجمته في: نشر المثنائي للقادري (1249/3)، طبقات الحضيكي (475/2).
- (10) انظر: نشر المثنائي للقادري (1263/3)، سلوة الأنفاس للكتاني (116/2)، شجرة النور لمحمد مخلوف (298/1).

- . أحمد بابا بن أحمد التنبكتي العالم المشهور (ت1036هـ)<sup>(1)</sup>.
- . أبو زيد عبد الرحمن بن محمد العارف الفاسي (ت1036هـ)<sup>(2)</sup>.
- . أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الدكالي (ت1036هـ)<sup>(3)</sup>.
- . أبو الحسن علي بن قاسم بن عمر البطوي (ت1039هـ)<sup>(4)</sup>.
- . أبو مالك عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الفاسي (ت1040هـ)<sup>(5)</sup>.
- . أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ)<sup>(6)</sup>.
- . أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي، (ت1046هـ)<sup>(7)</sup>.
- . علي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي، أقام بسلا ورحل إلى الجزائر (ت1054هـ)<sup>(8)</sup>.

- 
- (1) انظر: طبقات الحضيكي (30/1)، خلاصة الأثر للمحبي (170/1)، التقاط الدرر للقادري ص 86.
- (2) انظر: نشر المثنائي للقادري (1036/3)، طبقات الحضيكي (406/2)، شجرة النور لمحمد مخلوف (299/1).
- (3) انظر: نشر المثنائي للقادري (1282/3)، التقاط الدرر للقادري ص 68، طبقات الحضيكي (302/1)، (362/2)، سلوة الأنفاس للكتاني (362/3).
- (4) انظر: نشر المثنائي للقادري (1285/3)، طبقات الحضيكي (487/2)، سلوة الأنفاس للكتاني (219/3)، شجرة النور الزكية (299/1)، زهرة الآس في بيوتات أهل فاس لعبد الكبير الكتاني (140/1).
- (5) انظر: نشر المثنائي للقادري (1287/4)، التقاط الدرر للقادري (91/1)، طبقات الحضيكي (512/2)، سلوة الأنفاس للكتاني (310/2)، شجرة النور لمحمد مخلوف (299/1)، خلاصة الأثر للمحبي (96/3).
- (6) انظر: نشر المثنائي للقادري (1294/3)، التقاط الدرر للقادري ص 94، طبقات الحضيكي (57/1)، خلاصة الأثر للمحبي (302/1)، شجرة النور الزكية (300/1).
- (7) انظر: نشر المثنائي للقادري (1333/3)، طبقات الحضيكي (343/2)، فهرس الفهارس للكتاني (394/1).
- (8) انظر: نفع الطيب للمقرئ (478/2)، خلاصة الأثر للمحبي (173/3)، تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي (73/1).

- . عبد الرحمن بن محمد التمنارتي قاضي المحمدية ومفتيها  
(ت1060هـ)<sup>(1)</sup>.
- . أحمد بن محمد العربي الغماري الفقيه الأصولي من علماء مكناس  
(ت1063هـ)<sup>(2)</sup>.
- . عيسى بن عبد الرحمن السكتاني الذي ملأ أرجاء مراكش علما  
(ت1062هـ)<sup>(3)</sup>.
- . أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف البوعناني (ت1063هـ)<sup>(4)</sup>.
- . محمد بن أبي بكر العياشي والد أبي سالم العياشي صاحب الرحلة  
(ت1067هـ)<sup>(5)</sup>.
- . أحمد بن موسى المعروف بحمدون الأبار، الإمام الفقيه المدرس  
(ت1071هـ)<sup>(6)</sup>.
- . أبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي (ت1072هـ)<sup>(7)</sup>.
- . عبد الله بن المجاهد محمد العياشي (ت1073)<sup>(8)</sup>.

- 
- (1) انظر: طبقات الحضيكي (399/2)، اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة للأزهري للأزهري ص 143.
- (2) الإعلام بمن غير من أهل القرن الحادي عشر لعبد الله الفاسي (1455/4)، الحياة الفكرية لمحمد حجي (441/2).
- (3) انظر: طبقات الحضيكي (469/2)، نشر المثاني للقادري (1447/4).
- (4) انظر: نشر المثاني للقادري (1452/3)، التقاط الدرر له ص 133، طبقات الحضيكي (301/1)، سلوة الأنفاس (199/1).
- (5) انظر: رحلة العياشي ص 103، طبقات الحضيكي (310/1).
- (6) انظر: رحلة العياشي ص 113، نشر المثاني للقادري (1490/4).
- (7) انظر: سلوة الأنفاس للكتاني (178/1)، الفكر السامي للحجوي ص 611، فهرس العياشي ص 114.
- (8) انظر: نشر المثاني للقادري (1513/4)، طبقات الحضيكي (394/2)، الحياة الفكرية بالمغرب لمحمد حجي (509/2).

- محمد بن ناصر الدرعي المفسر الفقيه الصوفي اللغوي (ت1085هـ)<sup>(1)</sup>.

- عبد القادر بن علي الفاسي المفسر المحدث الفقيه النحوي (ت1091هـ)<sup>(2)</sup>.

هذه أسماء بعض العلماء المشهورين في المراكز الحضرية، ذكرتهم على سبيل المثال لا الحصر، وثمة عدد هائل من الشخصيات العلمية في هذه الحواضر وفي المراكز القروية أيضا<sup>(3)</sup>.

### الفرع الثاني: المواد الدراسية في الفقه وما يتصل به

إن تتبع كتب التاريخ والتراجم والرحلات والأثبات والإجازات التي عنيت بالعصر السعدي<sup>(4)</sup>، يمكّن من معرفة المواد الدراسية المقررة، ومعظمها يعتمد على المتون والمختصرات المثورة والمنظومة وشروحها، إضافة إلى بعض المصادر والأمهات. وفيما يلي تصنيف المواد والمقررات الدراسية:

#### أولا - علوم الشريعة

أ - ففي التفسير والحديث نجد كتب التفسير، ومتون الحديث وشروحها، وكتب أحاديث الأحكام كالعمدة وشروحها.

ب - وفي أصول الفقه والقواعد الفقهية نجد كتب الباجي والغزالي والآمدّي والرازي والبيضاوي وابن الحاجب والسبكي والقرافي، وقواعد الونشريسي ونظمها لابنه، والمنهج المنتخب للزقاق ونحو ذلك.

---

(1) انظر: رحلة العياشي ص 116، نشر المثاني للقادري (1583/4).

(2) انظر: رحلة العياشي ص 110، طبقات الحضيكي (506/2).

(3) انظر: الحياة الفكرية (452/2 - 639)، فقد استقصى الدكتور محمد حجي المراكز القروية، وذكر عددا هائلا من أعلامها المشهورين.

(4) راجع مثلا: فهرس ابن غازي، وفهرس المنجور، ورحلة العياشي، فمنها استقيت الكتب المعتمدة في المواد الدراسية.

ج - أما دراسة الفقه، فقد غلب فيها الالتزام بالمذهب المالكي، حيث تدرس أمهات كتب المذهب كالمدونة وتهذيبها للبراذعي، والعتبية، والجامع لابن يونس، والتبصرة للخمّي، وكتب ابن رشد الجد، ولكن الغالب هو دراسة المتون والمختصرات، مختصر خليل، وجامع الأمهات لابن الحاجب والرسالة لابن أبي زيد، وتحفة الحكام لابن عاصم، ولامية الزقاق، والمرشد المعين لابن عاشر وشروحها، وكتب الفرائض كالحوفي، والتلمسانية، ورجز الونشريسي في الفرائض وشروحها وغيرها كثير<sup>(1)</sup>.

### الفرع الثالث: الطرق التعليمية

ليست طرق التعليم في العصر السعودي إلا امتدادا لتلك التي سادت في العصر السابق، والمرتكزة أساسا على المختصرات وشروحها وحواشيها، مع بعض الاجتهادات التي تكونت بتراكم التجارب، واتسمت الدروس العلمية والدرس الفقهي خصوصا بالاعتماد على مقررات يتناولها الأساتذة بالدراسة الموضوعية، مع الاهتمام بالألفاظ والنصوص والروايات وإيراد الوجوه والاحتمالات، وهي طريقة تزاوج بين المدرسة العراقية التي تعنى بموضوع الكتاب دون تقييد بحرفية نصوصه، وبين مدرسة القيروان التي ينصب غالب اهتمامها على نصوص الكتاب شرحا وتحقيقا وتصحيحا للروايات وبيان الإشكالات ونحو ذلك<sup>(2)</sup>.

أما تفصيل الطرق التعليمية فيمكن إرجاعها إلى ما يلي:

---

(1) انظر: النبوغ المغربي لعبد الله كنون (1/240 - 241)، الحياة الفكرية لمحمد حجي. (85/1، 88، 136 - 139)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 400 - 402.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/93 - 94).

## أولا - طريقة حل المتن

وهي طريقة بسيطة يشرح فيها الأساتذة المتون المقررة بعباراتهم الخاصة، غير ملتزمين بكلام الشراح والمحشين المعتمدين كمراجع، مع إيراد الأمثلة والتطبيقات التوضيحية، واشتهر بهذه الطريقة في الشمال آل إبراهيم الدكاليون التي حفلت مجالسهم بالقرويين في فاس، وكان رائدها في الجنوب كبير علماء درعة الشيخ محمد بن مهدي الجراري، ثم انتشرت طريقتهم على أيدي تلاميذهم، وكان البعض يحبذها ويثني عليها كعبد الواحد الونشريسي، وعابها آخرون مثل عبد الواحد الحميدي<sup>(1)</sup>.

## ثانيا - طريقة حكّ المسائل

وهي الطريقة الغالبة في العصر السعدي، يهتم أصحابها بالإلحاح في بحث المسائل، وتقليب وجوه النظر فيها، وإيراد الإشكالات والاعتراضات عليها، وجلب النقول ومناقشتها. ومع ما فيها من التعقيد والصعوبة، فإنها تساعد على تكوين الملكة وصقلها.

وممن عايش الطريقتين الشيخ أبو عبد الله ميارة الفاسي (ت1072) في مجالس شيوخه، وأدرك الفرق بينهما وأثره في الدارسين فقال: «كنت أجلس بمجلس المقرري فأجد العلم كله واضحا، فإذا جلست بمجلس ابن عاشر وجدته كله مشكلا...»<sup>(2)</sup>.

## ثالثا - طريقة المحاضرة

وهي طريقة يسلكها نخبة العلماء، معتمدين على تنسيق العرض وحسن الأداء، مع عرض آراء المتقدمين ومناقشتها، والترجيح عند

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/94 - 95).

(2) انظر: طبقات الحضيكي (1/309)، سلوة الأنفاس للكتاني (1/179)، شرح الإمام جعفر ابن إدريس الكتاني على شرح خطبة ميارة لمرشد المعين، طبعة حجرية بفاس، ص 34.



الاقتضاء، واشتهر بها الإمام أحمد المنجور، والشيخ أحمد الزموري، ومنهم من كان يمزج محاضرتهم في التفسير والحديث والفقه والعلوم الأخرى بشيء من التصوف والرقائق وأخبار السلف<sup>(1)</sup>، فكانت لمجالسهم حلاوة استقطبت جمهورا عظيما من العامة والخاصة، وأمثال هؤلاء المدرسين كثيرون في زوايا الصومعة وسجلماسة والدلاء<sup>(2)</sup>.

#### رابعا - طريقة المناظرة

ولعلها أرقى طريقة تعليمية، غير أنها بقيت محصورة لدى قلة من العلماء، وكان الحاضرون من أساتذة وطلبة يشاركون في القراءة والمناقشة، وهي أشبه بالطرق التربوية الحديثة المعتمدة على الأسلوب الحواري. واشتهر بهذه الطريقة الإمام عبد الواحد الونشريسي في العلوم الفقهية، ومحمد بن خروف التونسي في العلوم العقلية، ومحمد القصار الجامع بينهما<sup>(3)</sup>.

---

(1) وهي طريقة عرف بها بعض العلماء السابقين، كالغزالي في إحياء علوم الدين، والشيخ عبد الرحمن الثعالبي الذي تميز كتابه "جامع الأمهات في أحكام العبادات" بتطعيم الأحكام الفقهية ببعض الرقائق والمواعظ التي تتصل بها، فجاء كتابه حيا ومتميزا عن معظم الكتب الفقهية التي تكتفي بمسائل الفقه وأحكام الحلال والحرام، دون الالتفات إلى الرقائق.

انظر: جامع الأمهات في أحكام العبادات للشيخ عبد الرحمن الثعالبي مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، في مواضع كثيرة منها ص: 3/20، 93 . 94/و، 100/ظ، 145/ظ، 217/و، 241/ظ، 248/و، 253/ظ، 266/و، 285/و، 321/ظ... الخ. وراجع مقال "الإمام سيدي عبد الرحمن الثعالبي وكتابه جامع الأمهات في أحكام العبادات"، لمحمدن أو إدير مشنان، مجلة الصراط، كلية العلوم الإسلامية، العدد 12، ص 252 - 255.

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/96 - 98).

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/98 - 99).

## خامسا - طريقة المجلس المشترك

سلكه الإمامان أبو القاسم بن أبي النعيم، وأحمد المقرئ، وهي طريقة طريقة يُعقد فيها مجلس مشترك يحضره نبهاء الطلبة وعلماء المدينة، وتحمل إليه مراجع كثيرة، فيتناوب الشيخان في التقرير، ويشارك الحاضرون في التعليق والقراءة والمناقشة، وهي تشبه إلى حد كبير نظام الندوات<sup>(1)</sup>، وكان الشيخ ميارة الفاسي ممن حضر مثل هذه المجالس، وسجل تعليقا حولها<sup>(2)</sup>.

### المطلب الثاني: إفرزات النشاط العلمي

#### الفرع الأول: الإنتاج العلمي في الفقه ومتعلقاته

ترك علماء العصر السعدي موروثا ثقافيا عظيما، ما تزال الأجيال تستفيد منه إلى يومنا هذا، فإن آلاف المخطوطات السعدية التي ما تزال تملأ المكتبات العلمية إلى يوم الناس هذا لأكبر دليل على اتساع العلم والمعارف في ذلك العهد، رغم عدم الاستقرار السياسي<sup>(3)</sup>.

ولا يمكن استقصاء مؤلفات هذا العهد، وسأكتفي بنماذج من المؤلفات

الفقهية:

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/99).

(2) قال الشيخ ميارة عن مجلس الشيخين ابن أبي النعيم والمقرئ: ((كانا يجلسان بمجلس واحد بجامع القرويين، ويحضر مجلسهما جميع أعيان طلبة فاس وغيرهم من العدول والعامّة، ويحضرون شروحا وحواشي عديدة جلها من خزنة السلطان مولانا أحمد ﷺ التي أنشأ تحييسها على الجامع المذكور، فاستفادوا وأفادوا)). انظر: معين القاري لصحيح البخاري لميارة ص (7/و - ظ)

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/56).

## أولا - علوم الشريعة

### أ - علوم القرآن والحديث<sup>(1)</sup>

❖ ففي التفسير علوم القرآن، أذكر الكتب الآتية:

- تفسير عبد الجبار الفجيجي في اثني عشر مجلدا.
- وتفسير القرآن العظيم لعلي بن عبد الواحد الأنصاري السجلماسي.
- واللباب في مشكلات الكتاب لمحمد بن علي الشُّطَيْبِي.
- حاشية على تفسير الجلالين لعبد الرحمن العارف.
- إرشاد اللبيب إلى مقاصد الحبيب، لابن غازي، وهو شرح على صحيح البخاري.

- حاشية على البخاري لعبد الرحمن العارف، وشرح عمدة الأحكام من خير الكلام، لأحمد الفاسي.

### ب - الفقه وأصوله<sup>(2)</sup>

- ❖ غلبت طريقة الشروح والحواشي على الكتابات الفقهية وأذكر منها:
- المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لعبد الواحد بن عاشر، وشرحه الدر الثمين على المرشد المعين، ومختصر الدر الثمن كلاهما لميارة الفاسي.
- نيل الأمل فيما جرى به العمل لابن القاضي.
- مدارج الراغب في شرح مختصر ابن الحاجب لحسن بن داود الرسموكي.
- شرح التلقين لحسن بن داود الرسموكي.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/140 . 142)، النبوغ المغربي لعبد الله كنون (256/1).

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/144 . 146)، النبوغ المغربي لعبد الله كنون (257 . 256/1).

. شروح الرسالة، لعبد الواحد الونشريسي، وأحمد بن علي الشتوكي،  
حسن بن داود الرسموكي.

شروح وحواش على مختصر خليل، لابن غازي، وابن عاشر، ميارة  
الفاصي، وعبد الرحمن العارف، والأبّار، والسراج، والجنان، وأبي محمد  
التمكروتي.

. شرح لامية الزقاق في القضاء لميارة.

شرحان على تحفة الحكام، لميارة، وعلي بن عبد الواحد الأنصاري  
السلوي.

الجامع المستوفي لجداول الحوفي لابن غازي في الفرائض، وشرح  
جداول الحوفي لابن القاضي.

. الرائض لطالبي الناهض بأعباء الفرائض لأحمد بن القاضي.

. البرق الوامض في الحساب والفرائض لقاسم بن القاضي.

. نظم في أحكام الذكاة للعربي الفاسي.

. فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة لعبد الهادي بن طاهر  
السجلماسي.

. المسألة الإمليسية في الأنكحة الأغريرية للكلالي.

. منظومة عبد الله الهبطي في فقه النساء وأحكام العدة، وشرحها لابن القاسم  
ابن خجو.

. مقنع المحتاج في آداب الأزواج، لأحمد بن عرضون الزجلي،  
واختصاره الدرر الحسان في آداب الأزواج والولدان.

. شرحان على بيوع ابن جماعة للهبطي، وحسن بن داود الرسموكي.

. اللائق لعلم الوثائق، لأحمد بن عرضون الزجلي.

. ولا ننسى في هذا المقام فتاوى علماء ذلك العصر التي جمع بعضها.

- وترك علماء ذلك العصر مصنفات هامة في القواعد الفقهية منها:
- الكليات الفقهية، وتحرير المقالة في نظم نظائر الرسالة لابن غازي.
- سنا المقتبس لفهم قواعد الإمام مالك بن أنس، لعبد الواحد الونشريسي، نظم فيها كتاب والده في القواعد الفقهية وزاد عليه كثيرا.
- شرح المنجور على سنا المقتبس.
- شرحان على المنهج المنتخب لأحمد المنجور.
- تكميل المنهج المنتخب وشرحه لميارة.

• أما أصول الفقه فتفيدنا المراجع بالمصنفات الآتية:

- نظم أصول الفقه لعلي بن عبد الواحد الأنصاري.
- نظم جمع الجوامع لابن السبكي وشرحه، لعبد الهادي السجلماسي.
- حاشية على شرح المحلي في أصول الفقه، لعبد الرحمن العارف.

الفرع الثاني: أهم القضايا الفقهية في العصر السعودي

عني العلماء والفقهاء بالقضايا التي شغلت الرأي وقتئذ، ومنها:

أولا - الجهاد

اصطبغت الحالة السياسية في العصر السعودي بالجهاد، بسبب احتلال الأوربيين للأراضي المغربية، وانعكس ذلك على الخطاب الديني الذي اشتغل بالحث على الجهاد، كما انعكس على الكتابات والمناقشات الفقهية التي تطرقت لهذا الموضوع ومنها:

- تنبيه الهمم العالية لمحمد بن يجيش التازي، وهو أقدم مؤلفات الجهاد في العصر السعودي.

- لباب مراقي الجنة مما ورد في الجهاد في السنة، والإسعاف والإنجاد في ذكر الآيات الواردة في الجهاد، كلاهما لعبد الله بن طاهر الحسيني.

- فلك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة، لعبد الهادي بن طاهر الحسيني.

. مطلب الفوز والفلاح، لعيسى بن محمد البطوئي، حيث خصص الباب الثامن منه لأحكام الجهاد.

ولا ننسى في هذا المقام الفتاوى والنوازل الفقهية المتعلقة بأحكام الجهاد، التي أصدرها عدد من علماء العصر<sup>(1)</sup>.

هذا وقد أثرت مسائل فقهية مرتبطة بموضوع الجهاد، عالجتها كتب الفقه والنوازل، وهي على سبيل الإجمال: الجهاد خارج السلطة، والهجرة من الأراضي المحتلة، العلاقات التجارية مع المحتلين، وتجسس المسلمين لصالح العدو، وحكم المحاربين مع المحتل، والصلح مع العدو<sup>(2)</sup>.

### ثانياً. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

سبقت الإشارة في الحياة الاجتماعية إلى مظاهر من تدهور الأخلاق وظهور بعض الانحرافات والعادات السيئة التي أثارت حفيظة العلماء المصلحين فتصدوا لذلك تعظيماً لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دروسهم ومواعظهم ومجالسهم، وألفوا كتباً أخرى تهدف إلى دفع تلك المفاسد وإصلاحها، ومنهم ابن عريضون في كتابه "مقنع المحتاج إلى آداب الزواج"، والهبطي في كتابه "الألفية السننية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية"، وابن خجوة، والسوسي وغيرهم الذين لم يدعوا منكراً من المنكرات إلا طرحوه وحاولوا علاجه، من نماذج القضايا المطروحة نجد: تبرج النساء والاختلاط بالرجال، والبدع والشعوذة، وشرب الخمر، وتعاطي المخدرات<sup>(3)</sup>.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (196/1 - 216)، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 178 - 181.

(2) انظر: الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 190، 203، 214، 225، 229، 239.

(3) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/218 - 220)، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 252 - 322.

وفي مجال التناصح بين العلماء كتب أحمد بن عبد الرحمن المسكدادي التيزكيني رسالة إلى صديقه سعيد بن عبد المنعم الحاحي الذي دخل في خلافات مع الملك السعدي زيدان، ونصحه بتجنب إشعال فتيل الفتنة، وتلقى الحاحي رسالة مماثلة من أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني<sup>(1)</sup>.

### ثالثاً - قضية البلديين (الإسلاميين)

عاش اليهود في المغرب طوال العهد الإسلامي، وتزايد عددهم بعد سقوط الأندلس هروبا من محاكم التفتيش، وأظهر سياسة متسامحة مع اليهود فتمكنوا من التحكم في دواليب التجارة، وكان هذا من العوامل التي فتحت موجة من التعصب ضد اليهود، امتدت إلى من اعتنق منهم الإسلام حديثا، وسموهم "المهاجرين" و"الإسلاميين" و"البلديين"، وهي تسميات تحمیل معاني التمييز العنصري يقصد بها اللمز والتعير.

وظهر هذا التعصب لدى بعض المثقفين، فالعلماء الذين تعرف أصولهم اليهودية لم يكونوا يولون المناصب الشرعية السامية كالقضاء والفتيا والإمامة والخطابة، ومن أمثلة هؤلاء رضوان الجنوي العالي الكعب في الفقه والحديث وسائر العلوم ومع ذلك لم يتول قضاء ولا فتوى، وأحمد بن علي المنجور الذي ملأ الدنيا بعلمه وكان أعلى منصب تولاه هو كرسي التدريس بالقرويين رغم علاقته الوطيدة بأحمد المنصور<sup>(2)</sup>.

---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/221 - 222)، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 441، 451.

(2) الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/267 - 274).

وأضاف الدكتور حجي إلى الإمامين الجنوي والمنجور الشيخ ميارة، الذي كان يعيش على حلي يكره للنساء في الأعراس، وعلل ذلك بمنعه من تولي المناصب السامية، بدعوى أنه من الإسلاميين. وهذه الدعوى تحتاج إلى إثبات، لأنني لم أقف في كل المصادر التي بين يدي على من أرجع نسب ميارة إلى أصول يهودية، بل بررت كتب التراجم هذه المسلك في كسب الرزق بحياة الزهد والتقف التي اختارها الشيخ. والله أعلم بالحقيقة.

وظهرت هذه الموجة بصفة حادة في وسط التجار حيث تحزبوا ضد اليهود ومنعواهم من دخول الأسواق حتى لا يزاحموهم فيها، وقع ذلك عام 934هـ/1528م، ولكن فتاوى العلماء جاءت مبطلّة لدعاوى التجار الفاسيين، ودعوا إلى تعاليم الإسلام الداعية إلى العدل والمساواة وعدم التفاخر بالأباء والأجداد، ومن العلماء الذين أخذوا زمام المبادرة نجد الفقيه أحمد الحباك، وأبا علي حرزوز، والخروبي الجزائري، واقتنع حكام فاس برأي هؤلاء العلماء وقضوا بالسماح لمن سمو "الإسلاميين" بالدخول إلى جميع الأسواق.

وعادت القضية إلى الظهور سنة 1010هـ/1601م، فأخذت الدولة بزمام المبادرة، وأقرت ما ثبت للتجار الإسلاميين بحرية التجارة كغيرهم<sup>(1)</sup>.

وبعد الاختلال والضعف الذي أعقب وفاة أحمد المنصور قامت الحركة المعادية للإسلاميين من جديد في حدود عام 1051هـ/1641م، فلاذ بعض العلماء بالصمت، ولجأ بعضهم إلى أجوبة عامة يكتنفها الكثير من الغموض، وتصدى علماء آخرون لهذه الفكرة العنصرية وعلى رأسهم الشيخ ميارة الذي ألف كتابا شهيرا عنوانه "نصيحة المغترين وكفاية المضطربين في التفريق بين المسلمين بما لم ينزله رب العالمين ولا جاء به الرسول الأمين ولا ثبت عند الخلفاء الراشدين المهديين" حمل فيه على المتعصبين من الفاسيين، وأتى على دعاوهم بالنقد والنقض، وأيده في ذلك محمد بن أحمد الأبار.

وفي العصر العلوي ظهر كتاب موسوم بـ "قصة المهاجرين المعروفين اليوم بالبلديين بفاس"، ذكر فيه صاحبه تاريخ اليهود في فاس منذ أسسها إدريس الثاني، وسيرة من أسلم منهم إلى عصره، ويتضمن تعريضا بل مهاجمة لهذه الفئة من المجتمع. ويحيط باسم مؤلفه غموض، فبعض نسخه لم يرد فيها اسم المؤلف، ونسبه البعض لأحد الفاسيين، وقال آخرون إنه من تأليف أبي القاسم الزياني وهذا ما رفضه كثير من الباحثين<sup>(2)</sup>.

(1) الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/274-279).

(2) الزاوية الدلائية لمحمد حجي، هامش 1، ص 242، فاس وباديتها لمحمد مزين (2/557-558)، "ذكر قضية المهاجرين"، تقديم ودراسة، لمحمد فتحة، ص 83-88.



## رابعاً - استعمال التبغ

انتشر التدخين في العصر السعودي وأثار جدلاً فقهيًا تعرض له علماء العصر، ومما يذكر في هذا الصدد السؤال الذي وجهه علي بن أحمد الشامي في رمضان 1026هـ سؤالاً إلى ابن أبي النعيم الغساني وأحمد المقرئ، ومن خلالهما إلى سائر الفقهاء حول حكم الدخان، فأجاب ابن أبي النعيم والمقرئ، وسبعة عشر فقيهاً آخر بفتاوى جمعت في كتاب بعنوان "فتاوى علماء فاس في الدخان".

واختلفت فيها آراؤهم، فذهب بعضهم إلى جواز التدخين ومن أشهرهم ابن أبي محلي، وأحمد بن محمد البوسعيدي، وأحمد بابا التنبكتي، واليوسي، وذهب أغلبهم إلى التحريم ومنهم محمد بن قاسم القصار، وعبد الله بن حسون، وعبد الواحد بن عاشر، وأحمد بن علي البوسعيدي، وعبد الرحمن التمنارتي، وعبد الرحمن الفاسي، وتوقف آخرون مثل محمد العربي الفاسي، وأبو بكر السكتاني<sup>(1)</sup>.

## خامساً - مسائل فقهية أخرى

أ - انحراف القبلة بفاس: وهي مسألة قديمة ترجع إلى عهد تأسيس المدينة، وسببها أن الفلكيين في عهد المرابطين انتبهوا إلى انحراف محراب القرويين عن سمت الكعبة بنحو 78 درجة، وطرحوا المسألة من جديد في القرن العاشر، حيث إن عبد الرحمن التاجوري (ت960هـ)، وهو عالم ليبي مختص في الفلك والتوقيت بعث برسالة إلى أحمد الوطاسي دعاه فيها إلى تصحيح جهة القبلة، وبقي الفقهاء على رأي سابقهم في الاحتفاظ بجهة

---

(1) انظر: الاستقصاء للناصرى (5/131 - 133)، الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/246 - 266)، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعوديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 325 - 358.

المحراب، وتحمس للرد على التاجوري عالمان مشهوران هما محمد اليسيئي، وعبد الوهاب الزقاق، وبقيت الأمور على حالها إلى عهد محمد الشيخ الأصغر الذي أمر برسم علامة في جدار محراب القرويين تحدد جهة الكعبة<sup>(1)</sup>.

ب - ألواح سوس: التزم أهل سوس بأحكام الشريعة الإسلامية في شتى شؤونهم، ولكنهم احتفظوا بأعراف موروثة تسمى "الألواح"، وهي قوانين صارمة مؤسسة على العقوبة في المخالفات التي تمس شرف الغير أو ماله أو بدنه أو النظام العام، وكانت لها صبغة القداسة والاحترام.

وقد اختلفت فيها آراء العلماء من مستحسن ومستهجن، فمن أوائل من تعرض لها في العصر السعدي الحسن بن عثمان التملي تلميذ ابن غازي، الذي قسم هذه الألواح إلى ما هو موافق للشرع وهو أكثرها لكن على غير المذهب المالكي، وأقلها مخالف للشرع.

ثم تفاقم أمر هذه الألواح بسبب اضطراب الأحوال بعد وفاة المنصور، وامتألت بآراء مخالفة للشريعة أدخلها بعض العوام، ثم أثارها من جديد على يحيى الحاحي واستفتى فيها فقهاء الجنوب سنة 1023هـ/1614م. وممن أجابه مفتي مراكش عبد الواحد الرجراجي، وقاضيه محمد بن عمر الهشتوكي اللذان جزما بمنعها، وقاضي ترودانت عيس بن عبد الرحمن السكتاني، والعلامة أحمد باب السوداني اللذان فضّلا فيها بنحو رأي الحسن بن عثمان التملي. ولعل آخر من تحدث عنها في العصر السعدي هو القاضي عبد الرحمن التمنارتي في كتابه "الفوائد الجمة"، وخلاصة رأيه مبني على الدعوة إلى طرحها وعدم العمل بها<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/290-297).

(2) انظر: المرجع نفسه (1/298-303).

ج - شهادة اللفيف: تدرج ضمن المسائل التي جرى بها العمل، هي شهادة عدد كبير من الناس لا تتوفر فيهم شروط العدالة، وهي مسألة لها جذور تاريخية لم يقبلها الفقهاء المتقدمون. وأعيد طرحها فعقدت أوائل القرن 11هـ مناقشة شهدها علي بن عبد الرحمن بن عمران، وأحمد المقرئ، وإبراهيم الجلالي، وعبد الواحد بن عاشر، وانتهوا إلى أن شهادة اللفيف لا مستند لها، وإنما هو شيء اصطلاح عليه المتأخرون لتعذر وجود العدول، وألف محمد العربي الفاسي رسالة في شهادة اللفيف، انتهى فيها إلى قبول شهادة العامة باعتبارها ضرورة اجتماعية لا مندوحة عنها وخاصة في البوادي، وقد يضطر إليها في بعض الحواضر<sup>(1)</sup>.

د - بيع الصفقة، وهو من المسائل التي جرى عليها العمل، تفرعت عن أصل رفع ضرر الشركة بإجبار من لم يقبل القسمة من الشركاء عليها إذا طلبها الشريك متى اتحد مدخل الشركاء في الملك، وكانت القسمة لا تفسد المشترك، وقال الفقهاء في مسألة الشركاء المتَّحدي المدخل (بإجمال البيع وضم الصفقة)، أي إعطاء الشريك حق بيع الملك المشترك فيه كله دفعا لضرر الشركة، ولشريكه حق ضم حظ البائع عملا بالشفعة.

وقد اختلفت آراء المتأخرين في أحكامها وشروطها، وساهم الشيخ ميارة في ضبطها وتحرير أحكامها وشروطها، وألف كتابا سماه "تحفة الأصحاب والرفقة بمسائل بيع الصفقة".

وثمة مسائل فقهية أخرى محفوظة في كتب الفقه والنوازل والتاريخ

الثقافي<sup>(2)</sup>

(1) انظر: المرجع نفسه (305/1).

(2) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (308/1 . 318)، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 471 . 501.

## الخصائص العامة للحياة الفقهية في العصر السعودي

- بعد عرض مشاهد الحالة الفقهية في العصر السعودي وجوانبها المختلفة، يمكن استخلاص خصائصها وملامحها العامة فيما يلي:
- 1 . تفتح السعديين على الخارج، فاستفاد من العناصر الثقافية الأندلسية، والجزائرية والتونسية والمشرقية والأوربية، مما أسهم في تقديم قيمة مضافة.
  - 2 . غلبة طابع تحصيل ما وصل إليه السابقون وشرحه وتقرير مسأله، وهو طابع يعتمد الطريقة التلقينية للمتون والمختصرات والشروح والحواشي، ومع ذلك فلم تخل الساحة العلمية من اجتهادات لها تجربتها وخبرتها، وعملت على تجديد مناهج التأليف والتدريس.
  - 3 . تطور الخريطة الجغرافية للمراكز العلمية الفقهية في العصر السعودي، ولم يعد محصورا في المدن والمراكز الحضارية الكبرى، بل انتشر في كل ربوع البلاد، بفضل المراكز القروية والبدوية التي عُرِفَتْ بعطائها وإنتاجها العلمي.
  - 4 . عرف العصر السعودي هيئة علمية فقهية تزخر بها كتب التراجم، كما عرف إنتاجا غزيرا أثرى المكتبات، وما يزال الكثير منه محفوظا إلى اليوم.
  - 5 . عُني علماء ذلك العصر بقضايا عصرهم، وعالجوها، وساهموا في إصلاح الأوضاع بعلمهم، وبمشاركتهم في الميدان<sup>(1)</sup>.



---

(1) انظر: الحياة الفكرية لمحمد حجي (1/133 - 135) (2/641 - 643)، السياسة والمجتمع في العصر السعودي لإبراهيم حركات ص 374 - 375، الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية للحسن اليوبي ص 83 - 88.

# الإمام المازري والمنهج الفقهي ومسائله الفقهية

كده الدكتور التواتي به التواتي

أستاذ محاضر - جامعة عمار ثليجي، الأغواط

## تمهيد

إن المذهب المالكي نشأ في دار الهجرة: المدينة المنورة، وإن نشأته في الحقيقة إنما كانت أثرا امتداديا لأطوار سبقتة في الجيلين الماضيين اللذين بين نشأة هذا المذهب الزكي وبين عصر النبي ﷺ، ونعني بهما جيل الفقهاء من الصحابة ثم جيل الفقهاء من التابعين.

ولم يكن لظهور مالك ﷺ الذي آلت إليه ريادة المدرسة الأثرية - كما أشرت في المحاضرة السابقة -، أي أثر جديد في هذا الفقه الذي استمرّ متسلسلا من عصر فقهاء الصحابة إلى فقهاء التابعين حتى تلقاه مالك بن أنس ﷺ لم يحدث فيه شيئا جديدا، إلا أنه درج على الطريقة أو المنهج الفقهي الذي وجد الناس متعاقدين عليه من قبله، ثم إنه زاد على ذلك أن استقرأ من الأمر الواقعي العملي بتتبع فروع الفتاوى وجزئيات الأحكام الشرعية التفصيلية التي اجتهد فيها هو واجتهد فيها من قبله فقهاء الصحابة وفقهاء التابعين فاستخرج من استقراءها أصولا تتعلّق بالطرائق الاستدلالية الاستنتاجية التي ينبغي فيما يرى هو وفيما يدرك من سيرة الفقهاء الذين اقتدى بهم، وتكوّن بتخرّجه بهم من قبل أن يكون السير عليها في استنباط الأحكام الفرعية التفصيلية من أصولها الإجمالية فكان ظهور الأصول لتلك البيئة الفقهية المدنيّة على يد مالك بن أنس ﷺ، ولذلك اشتهر هذا المذهب بالإضافة إلى اسمه فقيلا: المذهب المالكي. ويمكن أن نسمي هذه المرحلة بمرحلة الوضع الأول أو مرحلة التأصيل.

وهذا المذهب الذي غدا فيما بعد ينسب لمالك بن أنس رضي الله عنه لم يبق جامدا بل عرف تطورا، وذلك باتساع المسائل وكثرة التفريع واختلاف الأقوال مع أن الأصول التي أرجع إليها في ذلك هي أصول مسلمة متحدة، وهي الأصول التي بها تكوّن المذهب المالكي، ولكنّ طريق التفريع وصورة التطبيق وتقدير الواقعة والرجوع بها إلى الدليل الإجمالي الذي ينطبق عليها على الطريقة التي هي طريقة المذهب المالكي، وهذا مما جعل المؤرخين للمذهب يروصدون له مركزا للبحث الفقهي تختلف باختلاف الأنظار في الفتاوى، عرفت هذه المراكز بفقهاء إفريقية والأندلس، وفقهاء مصر والعراق فكانت هذه البيئات تختلف فيها الفتوى حسب واقع كلّ بيئة فتكوّنت بهم حركة جديدة في المذهب المالكي هي الحركة التي نستطيع أن نصلح على تسميتها بمرحلة التفريع.

وهنا نشير إلى أنّه بدأ يدخل على هذا المنهج الذي ساروا عليه في دراسة الفقه من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الخامس نزعاً جديدة، والذي انتهج هذا النهج هو الإمام أبو الحسن اللخمي فقد أخذ هذا العلم المالكي ينجح إلى اللحاق برجال دور التفريع في منزلتهم من الاجتهاد المقيّد، فكان في شرحه على المدوّنة "التبصرة" يعتمد أحيانا على نقد الأقوال من ناحية إسنادها فيعتبر أنّ أحد القولين أصحّ من القول الآخر أي: إسنادا، وأحيانا ينتقدها من ناحية رشاقة استخراجها من الأصول التي استخرجت منها، وهو ما يعبر عنه بالأولى، يقول أحيانا: وهذا أولى، أو ينظر إلى أنّه الأقرب إلى تحقيق المصلحة المرعية من الشرع في تفريع ذلك الحكم وهو ما يقول فيه أحيانا: وهذا أرفع. ويمكن أن نسميها بمرحلة النقد والتنقيح.

وقد اشتهر الإمام اللخمي في هذا المعنى بالتصرف في المذهب المالكي حتى أنّ المتأخرين جعلوا تصرفات اللخمي في المذهب المالكي وما يأتي به من القول اختيارا، كما درج على ذلك الاصطلاح الذي بنى

عليه مختصر الشيخ خليل. ولكثرة اختياره وكثرة أقواله في المذهب المالكي حتى قال بعض المتقدمين:

لَقَدْ هَتَكَتْ قَلْبِي سِهَامُ جُهُونِهَا كَمَا هَتَكَتْ اللَّحْمِي مَذْهَبَ مَلِكٍ

ولهذا بدأ بخليل حين ذكر الأربعة الذين خصّهم بالتعيين لكثرة تصرفهم بالاختيار وبين الخطاب علة بدئه باللحمة فقال:

وإنما بدأ باللحمة لأنه أجرؤهم ولذا خصه بمادة الاختيار. و"تبصرته" حاذى بها "المدونة" وهو كتاب حسن مفيد وليس تعليقا على المدونة. وهذه المحاذاة في التراجم والمعاني. وتخرّج على يد هذا العلم المالكي أربعة وهم: ابن بشير، وابن رشد الكبير، والقاضي عياض، والإمام أبو عبد الله المازري. وهذا الأخير هو موضوع مداخلتنا.

من هو المازري؟

تساؤل في غير محله ويحضرني قول الشاعر:

لا يصح شيء في الأذهان إذا احتاج النهار إلى دليل

وهل يحتاج الإمام المازري إلى معرّف يعرفه؟ فهو أشهر من أن يعرف وإنما أدب الحديث واللقاء يقتضي ذلك.

التعريف بالمازري

هُوَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ عُمَرَ التَّمِيمِيُّ الْمَازَرِيُّ أَصْلُهُ مِنْ مَازَرَ بَفَتْحِ الرَّاي وَكَسْرِهَا مَدِينَةٌ فِي جَزِيرَةِ صِقْلِيَّةِ نَزَلَ الْمَهْدِيَّةَ أَمَامَ بِلَادِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَمَا وَرَاءَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ. وَيُعْرَفُ بِالْإِمَامِ وَهُوَ مُحَدِّثٌ، حَافِظٌ، فَقِيهٌ، أَصُولِيٌّ، مُتَكَلِّمٌ، أَدِيبٌ، وَكَانَ أَحَدَ الْأَذْكِيَاءِ، الْمُوصُوفِينَ وَالْأئِمَّةِ الْمُتَبَحِّرِينَ، وَكَانَ بَصِيرًا بَعْلَمَ الْحَدِيثِ.

قال ابن فرحون: ويُعرف بالإمام، وصار الإمام لقباً له ﷺ، فلا يُعرف بغير الإمام المازري وصار الإمام لقباً له وَيُحْكَى أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ مَا يَدْعُونَنِي، فَقَالَ لَهُ: وَسَعَّ اللَّهُ صَدْرَكَ لِلْفُتْيَا وَكَانَ آخِرَ الْمُشْتَغِلِينَ بِإِفْرِيقِيَّةَ بِتَحْقِيقِ الْعِلْمِ وَرُتْبَةِ الْاجْتِهَادِ وَدِقَّةِ النَّظَرِ، وَكَانَ إِمَامًا مُحَدِّثًا وَهُوَ أَحَدُ الْأُئِمَّةِ الْأَعْلَامِ الْمَشَارِ إِلَيْهِمْ فِي حِفْظِ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ عَلَيْهِ عِمْدَةُ النَّظَارِ وَتَحْفَةُ الْأَمْصَارِ الْمَشْهُورِ فِي الْأَفَاقِ وَالْأَقْطَارِ حَتَّى عُدَّ فِي الْمَذْهَبِ إِمَامًا وَمَلِكًا مِنْ مَسَائِلِهِ زَمَامًا.

ومن لطائف دروسه أنَّ بعض طلبة الأندلس ورد على المهدية، وكان يحضر مجلس المازري، ودخل شعاع الشمس من كُوَّةٍ فوق على رجل الشيخ المازري فقال الشيخ: هذا شعاع منعكس فذيل الطالب المذكور حين رآه متزنا فقال:

هَذَا شُعَاعٌ مُنْعَكِسٌ لِعِلَّةٍ لَا تَلْتَبِسُ  
لَمَّا رَأَىكَ غُنْصُرًا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ يَنْبَجِسُ  
أَتَى يَمْدُ سَاعِدًا مِنْ نُورِ عِلْمٍ يُقْتَبَسُ<sup>(1)</sup>

وفي إفريقية أتم المازري عمل المدرسة الصقلية في الفقه والحديث واشتهر في التدريس حتى قصده الطلبة من نواح كثيرة في الأندلس وإفريقية<sup>(2)</sup>، ودخلت تعاليمه وكتبه بلاد الأندلس مع تلامذته منها، وكتبه بعضهم يستجيزه كتبه، وممن أجازهم القاضي عياض، وتخرج عليه من أهل إفريقية جماعة أصبحوا أعلاماً في المذاهب، وقصدوا للتدريس في المهدية وقابس وتونس وغيرها. وشهد له بالتفوق والذكاء رجال من غير مذهبه.

(1) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، 291/1

(2) للمازري ترجمات عدة منها في الديباج ص 279 وفي أزهار الرياض 3/ 65، وخير ما يصور أثره في المغرب وكثرة تلامذته لابن الأبار فتحت أرقام كثيرة فيها وردت أسماء تلامذته (انظر مثلاً رقم 275، 630، 671، 746، 750، 770، 891، 1666، 1367، 1512... إلخ).



قال السبكي فيه<sup>(1)</sup>: «أما المازري.. فكان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهنًا، بحيث اجترأ على شرح البرهان لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم حول حماه ولا يدندن حول مغزاه إلا غواص على المعاني ثاقب الذهن مبرز في العلم».

وكان المازري على وجه الإجمال مالكيًا أشعريًا متشددًا «مصممًا على مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري<sup>رحمه الله</sup>. - جليلها وحقيرها كبيرها وصغيرها لا يتعداها ويبد من خالفه ولو في النزر اليسير والشيء الحقير». وقد خالف الجويني أبا الحسن في مسألة ليست من القواعد المعتمدة فقال عنه في شرح البرهان من خطأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعري فهو المخطئ<sup>(2)</sup>.

وخير ما يصور روحه في الدرس والبحث ووقته من الجويني في شرح البرهان ونقده للإمام الغزالي في الإحياء، ولا ندري إن كانت هذه الروح الشديدة المحافظة هي روح المازري وحده أو هي طابع مغربي صقلي، وعلى أي حال فقد رأينا المحافظة والتشدد يغلبان على مدرسة الفقه والحديث بصقلية<sup>(3)</sup>.

### أخلاقه وعنايته بالعلم

وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضم جناحاً، عارفاً بالآثار، مشاركاً في التفسير، حافظاً للفروع، بصيراً باللغة، ذا حظ من علم الكلام، فصيحاً مفوهاً، مع الوقار والحلم والخشوع والصوم، وعني بالعلم من

(1) العرب في صقلية، 229/1

(2) طبقات الشافعية، السبكي، 124 /4

(3) انظر المقالات القيمة التي نشرها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا عن المازري مجلة لواء الإسلام عدد 8، 9، 10 من سنة 1949

صغره إلى كبره حتى حكى أنه لم يدع النظر ولا القراءة مذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة بنائه على أهله وأنه سؤد . فيما صنف . وقيد وألف وهذب واختصر ومال إلى علوم الأوائل وكانت له فيها الإمامة دون أهل عصره، وكان يفرع إلى فتياه في الطب كما يفرع إلى فتياه في الفقه مع الحظ الوافر من الإعراب والآداب والحكمة، وكان قلمه في العلم أبلغ من لسانه..(1).

وقد جمع أحدهم القول عن سيرته فقال: كان المازري إمام وقته في الحديث وعلومه عالماً بالتفسير وجميع علومه فقيهاً أصولياً عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم بصيراً بالأحكام عاقداً للشروط حافظاً لمذهب مالك رضي الله عنه صبوراً حليماً جميل العشرة جواداً سمحاً كثير الصدقة دؤوباً على العمل صلباً في الحق.

### شيوخه

ذكر من ترجم للإمام المازري رحمته الله أنه أخذ عن شيوخ كثيرٍ نذكر منهم:

أ . أخذ عن اللخمي: واللخمي هو أبو الحسن علي بن محمد الربيعي، قيرواني، نزل صفاقس، تفقه بابن محرز، وأبي الفضل ابن بنت خلدون، وأبي الطيب، والتونسي، والسيوري، وظهر في أيامه، وطارت فتاويه، وكان الشُّيُوري يسيء الرأي فيه كثيراً، لَطَعْنِ عليه. وكان أبو الحسن فقيهاً فاضلاً دَيِّناً مفتياً متفنناً، ذا حظ من الأدب والحديث، جيّد النظر، حَسَنَ الفقه، جيّد الفهم. وكان فقيه وقته، أبعَدَ الناس صيتاً في بلده، وبقي بعد أصحابه، فحاز رئاسة بلاد إفريقية جملة، وتفقه بجماعة من الصفاقسيين، وغيرهم.

وله تعليق كبير على المدونة سماه بالتبصرة، كما ألمحنا إليه، وهو مفيد حسن، وهو مُعَرِّى بتخريج الخلاف في المذهب واستقراء الأقوال،

(1) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، 150/1

وربما اتبع نظره فخالف المذهب فيما ترجح عنده فخرجت اختياراته في الكثير عن قواعد المذهب<sup>(1)</sup>.

ب . وأخذ عن أبي محمد عبد الحميد السوسي المعروف بابن الصائغ يكنى أبا محمد قيرواني سكن سوسة أدرك أبا بكر بن عبد الرحمن وأبا عمران الفاسي وتفقه بالعطار وبابن محرز وأبي إسحاق. وكان فاضلاً فقيهاً نبياً وله تعليق على المدونة أكمل به الكتب التي بقيت على التونسي وبه تفقه المازري المهدي وأبو علي بن البربري وأصحابه يفضلونه على أبي الحسن اللخمي . قرينه . تفضيلاً كثيراً<sup>(2)</sup>.

وقد أخذ عن غيرهما من شيوخ إفريقية، وإنما وقع الاختصار على اللخمي وابن الصائغ من الشيوخ، لأنهما من أبرز شيوخه فلا بد أن له آخرين، وإنما اقتصرنا على هذين لمكاتبتهما، ولما لهما على منهجه الفقهي، مع الإشارة أن المدرسة الفقهية المتمثلة في اللخمي وابن الصائغ لها تأثير محدود على المازري، وهي بالنظر إلى آثارهما مدرسة فقهية صرفة، والمازري المتخرج عليهما لم يقتصر على الفقه كافتصارهما عليه في التأليف بل أضاف إلى الفقه غيره مما جعله يمتاز عنهما امتيازاً أدى بعلم الفقه أن كان المازري منسوباً إليه القول فيه.

قال خليل: «ومشيراً بالقول للمازري كذلك»، أي: يشير بصيغة الفعل فقال: لما رجحه واختاره من رأيه. وإن كان قوله مختاراً من أقوال أهل المذهب فيشير له صيغة الاسم نحو القول<sup>(3)</sup>.

---

(1) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، 69/2

(2) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، 95/1

(3) مقدمة المعلم بفوائد مسلم، 26/1 تقديم وتحقيق: فضيلة الشيخ العلامة محمد الشاذلي النيفر

وَيُحْكِي أَنَّ سَبَبَ اشْتِغَالِهِ بِالطِّبِّ أَنَّهُ مَرَضَ فَكَانَ يُطَبِّبُهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: يَا سَيِّدِي مِثْلِي يُطَبِّبُ مِثْلَكُمْ وَأَيُّ قُرْبَةٍ أَجَدُهَا أَتَقَرَّبُ بِهَا فِي دِينِي مِثْلَ أَنْ أَفْقِدُكُمْ لِلْمُسْلِمِينَ فَمِنْ حِينئِذٍ اشْتَعَلَ بِالطِّبِّ.

### رأيه في الطب

وَقَالَ الْمَازِرِيُّ: لَا شَكَّ أَنَّ عِلْمَ الطِّبِّ مِنْ أَكْثَرِ الْعُلُومِ اِحْتِيَاجًا إِلَى التَّفْصِيلِ حَتَّى إِنَّ الْمَرِيضَ يَكُونُ الشَّيْءُ دَوَاءَهُ فِي سَاعَةٍ ثُمَّ يَصِيرُ دَاءً لَهُ فِي السَّاعَةِ الَّتِي تَلِيهَا لِعَارِضٍ يَعْرِضُ لَهُ مِنْ غَضَبٍ يُحْمِي مَزَاجَهُ مَثَلًا فَيَتَغَيَّرُ عِلَاجُهُ وَمِثْلُ ذَلِكَ كَثِيرٌ. فَإِذَا فُرِضَ وُجُودُ الشِّفَاءِ لِشَخْصٍ بِشَيْءٍ فِي حَالَةٍ مَا لَمْ يَلْزَمْ مِنْهُ وُجُودُ الشِّفَاءِ بِهِ لَهُ أَوْ لغيره فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ<sup>(1)</sup>.

### تلاميذه

ولما برع في العلم، وانتهت إليه رياسة العلم في وقته، ولا يسمى بالإمام أحد بإفريقية سواه، وسارت مقالاته وفتاويه في الأقطار وقصد الناس إليه<sup>(2)</sup>.

وَمِمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ تَلَامِيذٌ كَثْرٌ مِنْهُمْ مَنْ وَفَدَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْدَلُسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْأُخْرَى وَقَدْ أَحْصَاهُمْ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الشَّاذِلِيِّ النِّيفَرِ مَا يَقْرَبُ عَنْ أَرْبَعِينَ تَلْمِيذًا كُلَّهُمْ غَدَوْا فِيهَا بَعْدَ أَصْحَابِ فَتَوَى وَمَكَانٍ فِي الْعِلْمِ، وَلَعَلَّ مَنْ نَشِيرَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ كَعْبِهِ وَرَفِيعِ مَقَامِهِ فَمِنْ تَلَامِيذِهِ: ابْنُ رَشْدِ الْحَفِيدِ الَّذِي يَظْهَرُ تَأَثُّرُهُ بِالْمَازِرِيِّ مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ "بَدَايَةُ الْمُجْتَهِدِ وَنَهَايَةُ الْمُقْتَصِدِ" حَيْثُ كَانَ مُقْتَفِيًا أَثْرَهُ، وَأَجَازَ لَهُ الْمَازِرِيُّ وَهُوَ فِي سَنِّ الشَّبَابِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ عَمَّتْ عِنْدَهُمْ شَهْرَةُ الْمَازِرِيِّ فَطَلَبُوهَا لِشَبَابِهِمْ.

(1) تحفة الأحوذي، 350/5

(2) الروض المعطار في خبر الأقطار، 521/1

وَمِمَّنْ أَخَذَ عَنْهُ بِالْإِجَازَةِ الْقَاضِي عِيَاضُ كَتَبَ لَهُ مِنَ الْمَهْدِيَةِ يَجِيزٌ لَهُ كِتَابُهُ الْمَسْمُومُ بِالْمَعْلَمِ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَلَيْسَ هُوَ صَاحِبُ الْإِزْشَادِ الْمُسَمَّى بِالْمَهَادِ بَلْ ذَلِكَ إِسْكَندَرَانِيٌّ وَهَذِهِ التَّرَاجِمُ مِنْ كَلَامِ ابْنِ فَرْحُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَعَرَّفَ عِيَاضٌ بِالْأَوَّلِينَ فِي الْمَدَارِكِ وَبِالْآخِرِينَ فِي الْعُثْبِيَّةِ فِي ذِكْرِ مَشَايخِهِ<sup>(1)</sup>.

### رأيه في السيد الخضر

قال المازري: اختلف العلماء في الخضر هل هو ولي أو نبي؟ فقال الأكثرون: هو نبي، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾<sup>(2)</sup>، فدلَّ على أنه نبي يوحى إليه وبأنه أعلم من موسى، ويبعد أن يكون ولي أعلم من نبي، وأجاب الآخرون بأنه يجوز أن يكون الله تعالى قد أوحى إلى نبي الله ذلك الزمان بأن يأمر الخضر بذلك<sup>(3)</sup>.

### مؤلفات المازري

وله تأليف مفيدة عظيمة النفع: مِنْهَا "الْمُعَلِّمُ بِفَوَائِدِ مُسْلِمٍ"، وعليه بنى القاضي عياض كتابه "إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم" وقد ضمن الأبى هذين الشرحين في كتابه "إكمال إكمال المعلم" بالإضافة إلى شرحي النووي والقرطبي مع زيادات مفيدة من كلام ابن عرفة شيخه وغيره، وطبع شرح الأبى وبذيله شرح السنوسي المسمى "مكمل إكمال الإكمال" في سبعة أجزاء في مطبعة السعادة بمصر سنة 1327هـ.

وله شرح كتاب "التلقين" لعبد الوهاب المالكي في عشرة أسفار، هو من أنفس الكتب، وكتاب "التعليقة" على المدونة، وكتاب شرح التلقين

(1) مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، الحطاب، 121/1

(2) سورة الكهف/82.

(3) حياة الحيوان الكبرى، 272/1

وكتاب الرد على الإحياء للغزالي المسمى بكتاب الكشف والإنباء عن المترجم بالإحياء وكشف الغطا عن لمس الخطا وكتاب إيضاح المحصول من برهان الأصول وتعليقة على أحاديث الجوزقي وله أيضاً إملاء على شيء من رسائل إخوان الصفا سأله السلطان تميم عنه وكتاب النكت القطعية في الرد على الحشوية والذين يقدم الأصوات والحروف وفتاوى.

وَمِنْهَا كِتَابُ ذَكَرَ الْمَازِرِي فِي بَابِ الْإِمَامَةِ مِنْ شَرْحِ التَّلْقِينِ أَنَّهُ صَنَّفَهُ وَسَمَّاهُ قَطْعَ لِسَانِ النَّابِغِ فِي الْمُتَرْجِمِ بِالْوَاضِحِ. قَالَ: وَهُوَ كِتَابٌ نَقَضْنَا فِيهِ كِتَابًا أَلْفَهُ بَعْضُ نَصَارَى الْمَشْرِقِ وَقَصَدَ فِيهِ إِلَى جَمْعِ الْمَطَاعِنِ الَّتِي تَشَعَّبَ بِهَا الْمُلْحِدُونَ وَقَدَحَ بِهَا الطَّاعِنُونَ عَلَى دِينِنَا وَأَضَافُوهَا إِلَى الثَّقَلِ وَالْعَقْلِ<sup>(1)</sup>.

### منزله العلمية

يقول عنه القرافي: والإمام أبو عبد الله المازري إمام الفقه وأصوله وحافظ متقن لعلم الحديث وفنونه، وله في جميع ذلك اليد البيضاء والرؤية العالية، وأشار إلى أن سبب الخلاف فيها نقل العوائد كما تقدم بسطه فكفى به قدوة في مدرك هذه الشروع ومعتداً في ضوابطها وتلخيصها، وقد تابعه في ذلك جماعة من الشيوخ والمصنفين ولم نجد لهم مخالفاً فكان ذلك إجماعاً من أئمة المذهب فالتشكيك بعد ذلك في المدرك إنما هو طلب للجهل وسبيل لغواية التضليل<sup>(2)</sup>.

درس أصول الفقه والدين وتقدم في ذلك فجاء سابقاً لم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفته منه ولا أقوم لمذهبهم وسمع الحديث وطالع معانيه واطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والأدب وغير ذلك فكان أحد رجال الكمال في وقته في العلم وإليه كان يفرع في

(1) مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، الحطاب، 22/1

(2) أنوار البروق في أنواع الفروق، 158/1

الفتوى في الطب في بلده كما يفرع إليه في الفُتيا في الفقه، وكان حسن الخلق، مليح المجالسة، كثير الحكاية والإنشاد، وكان قلمه أبلغ من لسانه.

### هل بلغ المازري درجة المجتهد؟

وَدُكِرَ عَنْهُ أَنَّهُ بَلَغَ رُتْبَةَ الإِجْتِهَادِ وَمَا أَفْتَى بِغَيْرِ الْمَشْهُورِ. وقد كان المازريّ - وهو في طبقة المجتهدين - لا يخرج عن الفتوى بالمشهور ولا يرضى حمل الناس على خلافه . لكنّه أفتى مرّةً بالشاذّ وذلك في رواية الدّاوديّ عن مالك مع اعترافه بضعفها وشذوذها في مسألة استحقاق الأرض من يد الغاصب بعد الزّراعة، وخروج الإبان وخالف المعهود من عاداته من الوقوف مع المشهور وما عليه الجماعة والجمهور للتشديد على الظلمة والمتعدّين من أهل البغي والفساد، وهو مألوف في الشّرع وقواعد المذهب.

وقد أجمع الفقهاء على أنّ المازري بلغ درجة الاجتهاد إلا ما كان من ابن عرفة، الذي إذ يقول: وفي المازري نظر هل يستحقّ الاجتهاد أم لا؟ وتعقّب هذا بأنّ ابن دقيق العيد وابن عبد السلام لا يبلغان درجة المازري، ومع ذلك يثبت ابن عرفة الاجتهاد لابن دقيق العيد ونظرائه.

والغريب من ابن عرفة ومكانته العلمية وإطلاعه كيف يقف هذا الموقف من المازري، قد يكون موقفه هذا راجعا إلى أنّه لم ير للمازري آراء فقهية خاصة به فتردد في إثبات الاجتهاد له مع أنّه يرى لابن عبد السلام نظرات تحكّم له بالاجتهاد، وهذا الموقف يحتاج إلى فضل بان لأننا إذا بحثنا في فقه المازري لا نتردد في إثبات درجة الاجتهاد، ويكفي تدليلا على هذا أنّه أحد الأربعة عند خليل الذين أكثروا التصرف بالاختيار، ثمّ هو يمتاز عن الآخرين بما ذكرناه.

وإن المتصفح لكتب الفقه على اختلاف مذاهبها يجدها لا تخلو من ذكر المازري، بل ما من كتاب في الفقه أو في الأصول أو

التفسير إلا يسند للمازري رأيا ولعلّ شرح النيل في الفقه الإباضي خير دليل إذ أنّ الشيخ اطفيش رحمته الله أسند للمازري كثيرا من الآراء الفقهية نذكر منها على سبيل المثال:

أ. قال: قَالَ الْمَازِرِيُّ: فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ الْمُخْتَلِفُونَ فِي هَذَا مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْمُتَيَّمَّ إِذَا وَجَدَ الْمَاءَ اغْتَسَلَ.

ب. وقال: وَنَهَيْهُ رحمته الله عَنِ الصَّلَاةِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ مِنْهَا ظَهَرَ الْكُغْبَةِ، قَالَ الْمَازِرِيُّ مِنْهُمْ: مَشْهُورٌ مَذْهَبَنَا مَنَعَ الصَّلَاةَ عَلَيْهَا وَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهَا لِأَنَّ مَنْ صَلَّى فِيهَا يُعِيدُ فِي الْوَقْتِ.

وغير ذلك من الآراء الفقهية ذكرت بعضها منها في كتابنا الفقه المقارن (بين المذهب المالكي والمذهب الإباضي)، وإنما أجمعت الكلمة على اجتهاده لما بلغه من منزلة علمية أطبقت الأفاق، ولما أبداه من آراء في الفقه مستندة إلى أصول الاستنباط للأحكام مع تدقيق في المآخذ، وكتبه شاهدة بذلك وناطقة برسوخ قدمه فاستحقّ من أجل ذلك الإمامة.

قال عنه ابن فرحون: وكان آخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقّة النظر، وما ذكره ابن فرحون نقله عن القاضي عياض في الغنية ونصه: هو إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه، وممن بلغ فيه رتبة الاجتهاد ودقّة النظر<sup>(1)</sup>.

### منهجه الفقهي

من العسير تتبع منهج المازري في كلّ ما كتب في العلوم الشرعية، وذلك أنّ بعض ما ألف مازال مخطوطا أو لم يكن باستطاعتنا الوصول لما صنّف. وما اطلعت عليه من مؤلفات المازري المطبوعة وأملكها والحمد لله هي:

(1) مقدمة "المعلم بفوائد مسلم"، 68/1 تحقيق: فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر



1 - شرح مسلم وطبع في تونس وفي دار الغرب الإسلامي بتحقيق الشيخ الشاذلي النيفر رحمته الله.

2 - قطعة من شرح المحصول، تحقيق: عمار الطالبی، ط/ دار الغرب الإسلامي.

3 - قسم الطهارة والصلاة من شرح التلقين في ثلاثة مجلدات تحقيق: الشيخ محمد المختار السلامي، ط/ دار الغرب.

وما وصلني من آثار الرجل مكّني أن أقول: إنّ المازري سلك طريقة جديدة في خدمة الحكم هي الطريقة النقدية التي أسّس منهجها، فصار في الفقه يتصرف فيه تصرف المنقح، ويتصب في مختلف الأقوال انتصاب الحكم الذي يقضي بأنّ هذا مقبول، وهذا ضعيف، وهذا غير مقبول، وهذا ضعيف السند في النقل، وهذا ضعيف النظر في الأصول، وهذا مغرق في النظر في الأصول، وهذا محرّج للناس أو مشدّد على الناس إلى غير ذلك وهي الطريقة التي درج عليها في شرحه على "التلقين" للقاضي عبد الوهاب.

ومن هنا فإنّنا ندرك أنّ المذهب دخل عليه عنصر النقد والتنقيح والاختيار، وأصبحت الأقوال مختلفة في كلّ مسألة مصنّفة تصنيفاً تقديرياً، منها ما هو أولى، ومنها ما هو راجح، ومنها ما هو أصحّ إلى غير ذلك، بحيث أنّ المذهب قد اتخذ وضعاً جديداً أو ظهر في ثوب جديد، ولعلّ هنا يكمن السر في لجوء عبد الحميد بن باديس إلى شرح الموطأ وتخرّيج الفروع على طريقة المازري...

فقد كان الإمام المازري يعتمد على عنصرين أساسيين هما الأثر والنظر وهما ضروريان لكلّ عمل فقهي، فلا يمكن لأيّ عمل من الأعمال الفقهية أن يستقل فيه الأثر على النظر استقلالاً تاماً بحيث لا يكون للنظر مدخل بحال في العمل الفقهي الذي هو استنتاج، ولا يمكن أن يستقلّ النظر بحيث لا يكون للأثر أيّ اتّصال بذلك الاستنتاجي، لأنّ الاستنتاج حينئذ يخرج عن حقيقة الاجتهاد إلى حقيقة الهوى.

ولذلك كان العنصران ضروريين لكل عمل فقهيّ وذلك أنّ أصول الفقه أو مدارك الأحكام الشرعية كما تسمى إنّما هي قولية مأخوذة من القرآن المؤدّى بطريق الوحي، أو بطريق السنة الشريفة، والنصوص القولية هي التي تعتبر الأدلّة الإجمالية للأحكام التفصيلية، بحيث إنّها التي تعتبر أصول الفقه، فإذا كانت أصول الفقه مدارك قولية فإنّ الفقه لا يمكن أن ينشأ إلاّ بأصوله.

ولما كان هذان العنصران الأثر والنظر هما عمدة المازري في الاستنباط الفقهي على طريقة إمامه المقتدى به، ولم يخرج عن مبادئه وهي مبادئ فقه مالك رضي الله عنه، وذلك بالنظر إلى ما استنبطه الإمام من الكتاب الكريم والسنة النبوية، فكان المازري يعدّ مجدداً بحكم بلوغه درجة مجتهد مذهب.

وقد استفاد من منهجه الفقهي فحول مثل ابن عبد السلام، وابن عرفة، وخليل، ففحول الفقه وأثمته اعتمدوا كثيراً على ما حرره المازري. وعلى ضوء ما ذكرنا فيمكن أن نلخص ما يمتاز به منهجه الفقهي في هذه النقاط:

1 - يمتاز هذا المنهج الذي اعتمده بدقة التحرر فمثلاً الفقهاء يذكرون في حد غسل الوجه: أنّه ما انحدر من منابت الشعر إلى الذقن بينما نجد المازري حين يتناول ذلك يتناوله تناولاً غير تناول الفقهاء حتى أهل التحرير منهم والضبط مثل القاضي عبد الوهاب.

نجد المازري ينتقد هذا بكلّ تواضع ويرى أنّ أخذ ذلك حدّاً في غسل الوجه يؤدي إلى أنّ الأصل يغسل جميع رأسه إذا لم ينبت به شعر أصلاً، وأنّ الأغم (وهو الذي تضيق جبهته بشعر رأسه) يغسل بعض وجهه ويترك بقيته وذلك لا يصح، فلذلك يرى أنّ الأجر أن يقال: إنّ مبدأ حدّه من الوجه من منبت الشعر المعتاد، وبذلك تصح المسألة ويسلم كلام الفقهاء. وهذا ما أطبق عليه الفقهاء بعد إذ يذكرون أنّ مبدأ حدّه من منبت الشعر المعتاد. ولكن رغم هذه الدقّة والتحرير فإنّ المازري يعتذر للقاضي عبد الوهاب بأنّ هذا هو مراده، وكأنّه حذفه ظناً منه أنّه يفهم.

2 . يمتاز فقهه أيضا بأنه لا يقتصر في التحرير على مجرد النقل للنصوص بل يذكر مع ذلك الأدلة من الكتاب والسنة ففي مسألة إدخال المرفقين في الوضوء يذكر أنّ في إيجاب غسلهما (أي: المرفقين) خلافا فيذكر دليل المثبت لغسلهما بأنّ أبا هريرة توضحاً وأدار عليهما، ثم قال: هكذا توضحاً رسول الله ﷺ.

ولا يكتفي بدليل واحد بل يدعم ما أثبتته بأدلة أخرى ففي هذه المسألة يثبت دليلاً آخر وهو أنّ رسول الله ﷺ قال: «تأتوني يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل».

وحلل هذا الدليل بأنه من مליح استعاراته ﷺ وبلغ اختصاراته لأنّ الغرة في الوجه والرأس، لأنّ أصل الغرة لمعة بيضاء بجهة الفرس ثم استعملت في الجمال والشهرة وطيب الذكر والمراد بها هنا النور الكائن في وجوه هذه الأمة، والتحجيل بياض في ثلاث من قوائم الفرس أصله الحجل بكسر الحاء الخلل والمراد به أيضاً هنا النور، فقد استوفى رسول الله ﷺ الأربعة الأعضاء المذكورة في القرآن الكريم التي هي جملة الوضوء المفروض بذكر الغرة والتحجيل، وفي أمره بإطالة الغرة ما يقتضي الأمر بدخول المرفقين في الغسل، ثم لم يكتف بهذا الدليل بل دعمه بدليل من القرآن الكريم ليرد على من نفى دخولهما، قال تعالى: ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾<sup>(1)</sup>، وأصل "إلى" في اللغة أنّها تفيد الغاية وإذا كان المرفقان نهاية الذراعين لم يكونا منه لأنّهما لو كانا منه لكانت الغاية غيرهما وهذا خلاف الظاهر.

فمن أوجب غسلها حمل قوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾<sup>(2)</sup>، على أن (إلى) هاهنا بمعنى الواو أو بمعنى مع فتقدير قوله ذلك عندهم وأيديكم والمرافق أو مع المرافق.

(1) سورة المائدة/6.

(2) سورة المائدة/6.

احتج بعضهم بقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾<sup>(1)</sup> أي: مع الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾<sup>(2)</sup>.

أي: مع أموالكم. وأنكر بعض أهل اللغة أن تكون (إلى) بمعنى الواو وبمعنى مع، وقال: لو كان كذلك لوجب غسل اليدين من أطراف الأصابع إلى أصل الكتف، وقال: لا يجوز أن تخرج (إلى) عن معناها وذلك أنها بمعنى الغاية أبدا، وقال: جائز أن تكون (إلى) هنا بمعنى الغاية وتدخل المرافق في الغسل<sup>(3)</sup>.

ومميزات هذا المنهج إذا تتبعناها نراها كثيرة، وإنما نجتزئ ونكتفي بأن بنى منهجه على فقه الموطأ المؤسس على الدعائم الصحيحة من الحديث والآثار، وغير ذلك مما وقف عليه مالك بن أنس رضي الله عنه وبنى عليه مذهبه المدعم بما عليه الجماعة بالمدينة المنورة، لأنها هي التي يجب أن يرد إليها الأمر فإذا اجتمع أهله على شيء واتبعهم الناس في ذلك صلح الأمر وإلا تبددوا شر مذر.

فمنهجه المدعم عززه أنه (أي: المازري) قرّر أصوله ووضحه وحلّله التحليل الذي يشي غلبة الباحث، فلم يكن مجرد ناقل للفروع الفقهية وإنما كان شارحا لأصول هذا المذهب، ومبرزا للجوانب التي تعطي قيمة له.

ولعل ما نثبته من آراء له في القراءات والأحاديث التي تعرض لها بالشرح تدل على قدرته العلمية، وعلى صحة ما ذهبنا إليه في حديثنا عن منهجه الفقهي.

(1) سورة الصف/14.

(2) سورة النساء/2.

(3) الاستذكار لابن عبد البر، 128/1

## أخذه بالقراءات في الاستنباط الفقهي

أما ما جاء في حديث أبي الدرداء، وقراءته على قراءة ابن مسعود مرفوعاً: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣)﴾ (١).

فأجاب عن ذلك الإمام المازري<sup>(٢)</sup> فقال: «يجب أن يعتقد في هذا الخبر وما في معناه أن ذلك كان قرآناً ثم نسخ، ولم يعلم من خالف النسخ فبقي على النسخ، ولعل هذا وقع من بعضهم قبل أن يبلغهم مصحف عثمان المجمع عليه، المحذوف منه كل منسوخ، وأما بعد ظهور مصحف عثمان فلا يظن بأحد منهم أنه خالف فيه»<sup>(٣)</sup>.

قال ابن حزم مؤيداً ذلك: «لأن قراءة عاصم المشهورة المأثورة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقراءة ابن عامر مسندة إلى أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ فيهما جميعاً قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣)﴾ (٤) فهي زيادة لا يجوز تركها»<sup>(٥)</sup>.

قرأ ابن مسعود: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى».

قال المازري: هذه القراءة ليست عندنا بحجة، لأنها من طريق الآحاد والقرآن لا يثبت بخبر الواحد ولا يلزم العمل بخبر الواحد في مثل هذه النقول على أنه قرآن على الصحيح من القول في ذلك.

(1) سورة الليل/1 - 3.

(2) له ترجمة في: السديج المذهب ص 374 رقم 508، وسير أعلام النبلاء 169/12، ووفيات الأعيان 486/1، وشذرات الذهب 114/4، والوافي بالوفيات 151/4، وشجرة النور الزكية 127/1 رقم 371.

(3) المنهاج شرح مسلم للنووي 371/3.

(4) سورة الليل/3.

(5) الإحكام لابن حزم 573/5.

فالمخالف ملزم بإثبات أن ابن مسعود كان يقرأ «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» على أنها قراءة رسول الله ﷺ وإن نسبت بعض كتب التفسير ذلك القول إليه، وإذا لم يستطع المخالف إثبات ذلك ولن يستطيع أبداً، فيلزم أن يفترى على الله ورسوله ﷺ. ويلزم المسلمين بقراءة شاذة لا يستطيع هو أن يثبتها أنها من قراءة النبي ﷺ<sup>(1)</sup>.

وله رأي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾<sup>(2)</sup>.

أخذ المازري من هذه الآية جواز استسقاء المخصب للمجذب، لأن موسى ﷺ لم ينله ما نالهم من العطش ورده ابن عرفة بأنه رسولهم وهو معهم. وهو رد متمكن إذ ليس المراد باستسقاء المخصب للمجذب الأشخاص، وإنما المراد استسقاء أهل بلد لم ينلهم الجذب لأهل بلد مجدبين، والمسألة التي أشار إليها المازري مختلف فيها عندنا، واختار اللخمي جواز استسقاء المخصب للمجذب، لأنه من التعاون على البر، ولأن دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وقال المازري: فيه نظر لأن السلف لم يفعلوه<sup>(3)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾<sup>(4)</sup>.

قال المازري في المُعَلِّم: واضطرب العلماء في بعث البهائم. وأقوى ما تعلق به من يقول ببعثها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾<sup>(5)</sup>، وقد قيل: إن هذا كله تمثيل للعدل. ونسبه المازري إلى بعض شيوخه قال: هو ضرب مثل إعلاماً للخلق بأن لا يبقى حق عند أحد.

(1) تحريم المتعة في الكتاب والسنة، 99/1

(2) سورة البقرة/60.

(3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 310/1

(4) سورة النبأ/40.

(5) سورة التكوير/5.

## موقفه من السنة

أما بالنسبة للسنة فإننا سنشير إلى خلاف ظهرت بوادره في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وهو: الموقف من خبر الواحد، والغالب على الصحابة العمل بخبر الواحد: وسنكتفي بكلام للإمام المازري في شرحه للبرهان حيث يقول عن رجوع الصحابة إلى خبر الواحد:

- فمن ذلك رجوع الصحابة في أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث إلى خبر الصديق رضي الله عنه بذلك.

- ورجوعهم لما اختلفوا في الغسل من التقاء الختانين إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

- ورجوعهم أيام الطاعون إلى خبر عبد الرحمن بن عوف.

- وهكذا أيضا رجع إلى خبره في أخذ الجزية من المجوس لما أخبر بقوله صلى الله عليه وسلم: «سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ». [الموطأ].

- وهكذا رجع رضي الله عنه في دية الأصابع إلى خبر عمرو بن حزم في الديات.

- ورجع أيضا عثمان بن عفان رضي الله عنه في خبر السكنى إلى الفريعة بنت مالك.

- ورجع علي رضي الله عنه إلى خبر المقداد في خبر المذي.

- وقد رجع ابن عمر رضي الله عنهما في المخابرة إلى رواية رافع بن خديج.

- ورجع زيد بن ثابت رضي الله عنه في جواز أن تنفر الحائض قبل طواف الوداع إلى الحديث الذي روي له في هذا.

ولو تتبعنا هذا لخرجنا عن الحد والحصر وطالعنا ما صنف في هذا من كتب المحدثين والفقهاء لالتقنا من هذا الجنس ما لا يكاد يحصى، ومثل هذا يدل على أنهم رضي الله عنهم مجمعون على العمل بخبر الواحد، لأن مثل هذه الكثرة من القصص لا تكاد تنكتم وتخفى فكانوا ما بين راوٍ وخبر وعامل به ومُسَلِّمٍ للرواية والعمل فصار ذلك منهم إطباقا على العمل إذ لو كان العمل به حراما لكانوا أجمعوا على خطأ ومعصية، لأنهم ما بين عامل

وراض بالعمل ومسلم له. وهذه عمدة يعول عليها في إثبات العمل بخبر الواحد وهي معتمد الحداق من الأصوليين.

وقد رويت أخبار أخرى تتضمن ردهم لخبر الواحد وهي سبب الاختلاف في إجراء الخبر مجرى الشهادة فلا يقبل فيه إلا اثنان. وقد يتعلق بها أيضا من يُنكر العمل بخبر الواحد جُملة وإن كان راوي الخبر رجلين، ويرون ذلك دلالة سمعية ونحن نورد عليك الآثار التي تعلق بها هؤلاء ثم نجيب عنها:

فمن ذلك قولهم: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما سأل عن ميراث الجدة فروى له المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وآله أعطها السدس لم يقبل ذلك منه حتى روى له محمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وآله ورثها.

وهكذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس في السكنى والنفقة.

ورد خبر أبي موسى الأشعري في الاستئذان عليه ثلاثا حتى أتى أبو سعيد الخدري فأخبره بمثل خبره.

وهكذا رد علي رضي الله عنه الخبر الذي روي له في نكاح التفويض في قصة بروع بنت واشق.

وهكذا ردت عائشة خبر ابن عمر لما روى أن الميت ليعذب ببيكاء أهله عليه.

وأجاب المازري بأجوبة عن هذه الأخبار وغيرها منها أنها تتعلق بشهادة يدفع بها المرء عن نفسه فلهذا احتيج إلى مزيد من الاستيثاق ويكفي . حسب رأينا . أن نقول: إنها وقائع أعيان لا عموم لها واستفاضة عملهم بخبر الأحاد يكفي في ترجيح العمل به<sup>(1)</sup>.

(1) بحوث ودراسات من موقع الإسلام اليوم، 285/1



## عنايته بصحيح مسلم

قال ابن خلدون على "صحيح مسلم": "وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له من التراجم، وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا سماه "المعلم بفوائد مسلم" ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه "إكمال المعلم".

ونص المازري على أنّ في صحيح مسلم أحاديث مقطوعة الأسانيد، وعدّها أربعة عشر حديثاً، ونبّه على أكثرها في مواضعها من كتابه، إلا أنه لم يبين صفة انقطاعها، ولا ذكر مَنْ وصلها كلّها من أئمة الرواة، فربما توهم الناظر في كتابه ممن ليس له عناية بالحديث، ولا معرفة بجمع طرقه أنها من الأحاديث التي لا تتصل بوجه، ولا يصح الاحتجاج بها لانقطاعها، وقد رأيت غير واحد يلهج بذكرها، ويظنها على هذه الصفة، وليس الأمر كذلك، بل هي متصلة كلّها، والحمد لله من الوجوه الثابتة، وهذا القول الذي قاله الإمام أبو عبد الله المازري إنما أخذه فيما قيل من كلام الحافظ أبي علي الغساني الأندلسي<sup>(1)</sup>، فإنه جمعها قبله، وعدّها كذلك أيضاً مقطوعة الأسانيد، إلا أنه نبّه على اتصال بعضها، ولم يستوعب ذلك في جميعها.

ولعل المازري إنما ترك التنبيه على اتصالها لاكتفائه بما ذكره أبو علي الحافظ، على أنهما قد خولفا في إطلاق تسمية المقطوع على أحاديث منها، ولم يسلم لهما ذلك فيها، على ما ذكرنا بيانه في موضعه في كتابنا الإمام المازري ومنهجه الفقهي.

---

(1) هو الإمام الحافظ أبي علي الحسين بن محمد الغساني الجبالي تلميذ أبي عمر بن عبد البر وأبي الوليد الباجي، (توفي سنة 498هـ ترجمته في (تذكرة الحفاظ) (4\1233)، والكتاب الذي استفاد منه المازري (تقييد المهمل وتمييز المشكل) كتاب علل كتاب مسلم بن الحجاج (2\482)

وهذا قد يقع فيه خلاف مع الفقهاء كما وقع في الغزالي رحمه الله...  
فإنك لا تجد من نص على مقامه رحمه الله في تحرير المذهب لكن عند  
إدامة النظر وإنعام الفكر تعرف عظمة دوره في تحرير  
المذهب... وراجع المطبوع من شرح التلقين لتعرف حاله في  
المذهب وقوة تدليله وتقريره لأقوال المالكية.. وقد صار عمدة عند  
الكثير في تحرير بعض المصطلحات.

إذ إن المصطلحات عند المالكية رحمهم الله في تحديدها صعوبة قد  
تكون بسبب التباعد القطري بين أربابه من الأندلس إلى المغرب إلى  
البغداديين والمصريين وغيرهم... ولذا فانظر مثلا إلى (معنى السنة عندهم)  
لتعرف قدر الاختلاف في تقرير اصطلاحاتهم عليهم رحمت الله وغفرانه.

### تفريقه بين السنة والفضيلة

عند المالكية هناك فرق بين السنة والفضيلة والسنة المؤكدة فمن  
المعلوم الفرق بين السنة والمستحب عند الحنابلة وجمهور أهل  
العلم... لكن مصطلح السنة والفضيلة والفرق بينهما كما ورد عند المالكية  
هو الذي أشكل على الناس وقد نصوا على هذا في التفريق بينها فيجعلون  
للوضوع مثلا سنن وفضائل..

وقد جلا الإمام المازري هذا الغموض كما في شرح التلقين حيث  
بين الفرق... فقال رحمه الله ما معناه: إن السنة ما حض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وشدد في فعلها والفضيلة ما هي دون ذلك. فتفريقهم قد يكون لفظي كما  
هو بين الحنفية والجمهور فيما يتعلق بالفرض والواجب.. من جهة أن  
الواجب والفرض درجات... وكذلك السنة فهي درجات.

وفيما يتعلق أيضا (والشيء بالشيء يذكر) باصطلاحات المالكية في  
لفظ السنة.. إنها قد تطلق ويراد بها الواجب فيقولون: سنة ويأثم تاركها،

وإنما قالوا: سنة من جهة أن ثبوتها كان من طريق النبي ﷺ لا بالكتاب  
كإزالة النجاسة وستر العورة والتسمية على الذبيحة فهي سنن يأثم تاركها.

### شرحه وفهمه الخاص للحديث

1 - ففي قوله ﷺ: «فمن وجد ذلك فليقل آمنت بالله» وفي الرواية  
الأخرى: «فليستعد بالله ولينته»، فمعناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل  
والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه.

قال الإمام المازري رحمه الله: ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا  
الخواطر بالإعراض عنها والرد لها، من غير استدلال ولا نظر في إبطالها.  
وقال: والذي يقال في هذا المعنى: أن الخواطر على قسمين: فأما  
التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض  
عنها، وعلى هذا يحمل الحديث، وعلى مثلها يطلق اسم الوسوسة، فكأنه  
لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر في دليل إذ لا أصل له ينظر فيه،  
وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال  
والنظر في إبطالها<sup>(1)</sup>.

2 - قول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «حتى إنه ليخيل إليه».

قال الإمام المازري: مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة إثبات  
السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء خلافاً لمن أنكر ذلك، وأنكر  
حقيقته، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله  
تعالى في كتابه وذكر أنه مما يتعلم وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به وأنه  
يفرق بين المرء وزوجه وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له وهذا الحديث  
أيضاً مصرح بإثباته وأنه أشياء دفنت وأخرجت، وهذا كله يبطل ما قالوه فإحالة

(1) فتاوى ابن باز المجلد الأول، 56/1

كونه من الحقائق محال ولا يستنكر في العقل أن الله سبحانه يخرق العادة عند النطق بكلام أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم ومنها مسقمة كالأدوية الحادة ومنها مضرّة كالأدوية المضادة للمرض لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوي قتالة أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة.

وقال: وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر فزعم أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع قال: وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل، لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل، فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضلاً من أجلها وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه أنه وطئ زوجاته وليس بواطئ وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له وقيل: إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما تخيله فتكون اعتقاداته على السداد<sup>(1)</sup>.

وقال بعض الناس: إن المراد بالحديث: أن رسول الله ﷺ كان يخيل إليه أنه وطئ زوجاته ولم يكن وطئهن وهذا كثيراً ما يقع تخيله للإنسان في المنام. فلا يبعد أن يخيل إليه في اليقظة.

وهذا قد ورد صريحاً في رواية ابن عيينة في الباب الذي يلي هذا، ولفظه: «حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن»، وفي رواية الحميدي «أنه يأتي أهله ولا يأتيهم» قال الداودي: «يرى» بضم أوله أي: يظن. وقال ابن التين: ضبطت «يرى» بفتح أوله. قلت: وهو من الرأي لا من الرؤية فيرجع إلى معنى الظن. وفي مرسل يحيى بن يعمر عند عبد الرزاق: سحر

(1) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، الشوكاني، 7/2

النَّبِيِّ ﷺ عن عائشة، حتى أنكر بصره. وعنده في مرسل سعيد بن المسيب: حتى كاد ينكر بصره.

قال عياض: فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه، لا على تمييزه ومعتقده. قلت: ووقع في مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد: فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبينا فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله: قلت: فوقع الشق الأول كما في هذا الحديث الصحيح. وقد قال بعض العلماء: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن فعله أن يجزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا يثبت. فلا يبقى على هذا للملحد حجة.

وقال عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ما ألفه من سابق عاداته من الاقتدار على الوطاء، فإذا دنا من المرأة فتر من ذلك كما هو شأن المعقود: ويكون قوله في الرواية الأخرى: «حتى كاد ينكر بصره» أي: صار كالذي أنكر بصره بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل إليه أنه على غير صفته. فإذا تأمله عرف حقيقته.

ويؤيد جميع ما تقدم أنه لم ينقل عن رسول الله ﷺ في خبر من الأخبار أنه قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به، وقال المهلب: صون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده، فقد مضى في الصحيح: أن شيطاناً أراد أن يفسد عليه صلواته، فأمكنه الله منه، فكذلك السحر ما ناله من ضرره ما يدخل نقصاً على ما يتعلق بالتبليغ، بل هو من جنس ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض: من ضعف عن الكلام، أو عجز عن بعض الفعل، أو حدوث تخيل لا يستمر بل يزول. ويبطل الله كيد الشياطين.

واستدل ابن القصار على أن الذي أصابه كان من جنس المرض بقوله في آخر الحديث: «أما أنا فقد شفاني الله» وفي الاستدلال به نظر.

لكن يؤيد المدعي أن في رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي في الدلائل: فكان يدور ولا يدري ما وجعه. وفي حديث ابن عباس عند ابن سعد: مرض النبي ﷺ، وأخذ عن النساء والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان... الحديث.

وعلى كل حال فإن النبي ﷺ معصوم بالإجماع من كل ما يؤثر خلافاً في التبليغ والتشريع. وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية:

كأنواع الأمراض والآلام، ونحو ذلك فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتر بهم من ذلك ما يعترى البشر، لأنهم بشر كما قال تعالى عنهم: ﴿إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾<sup>(1)</sup>، ونحو ذلك من الآيات.

### الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة

قال الإمام المازري: الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك إنما تقع غالباً اتفاقاً، والمعجزة تمتاز عن الكرامة بالتحدي<sup>(2)</sup>.

**3** - وفي قوله ﷺ: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام».

قال: فنتيجة هاتين المقدمتين أن كل مسكر حرام.

وقال: وقد أراد بعض أهل الأصول أن يمزج هذا بشيء من علم أصحاب المنطق فيقول: إن أهل المنطق يقولون: لا يكون القياس ولا تصح النتيجة إلا بمقدمتين فقوله: كل مسكر خمر مقدمة لا تنتج بانفرادها شيئاً وهذا وإن اتفق لهذا الأصولي هاهنا وفي موضع أو موضعين في

(1) سورة إبراهيم/11.

(2) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، 179/12

الشريعة فإنه لا يستمر في سائر أقيستها ومعظم طرق الأقيسة الفقهية لا يسلك فيها هذا المسلك ولا يعرف من هذه الجهة، وذلك أنا لو عللنا تحريمه ﷺ التفاضل في البر بأنه مطعوم كما قال الشافعي لم نقدر أن نعرف هذه العلة إلا ببحث وتقسيم فإذا عرفناها فللشافعي أن يقول حينئذ: كل سفرجل مطعوم وكل مطعوم ربوي فتكون النتيجة السفرجل ربوي.

قال: ولكن هذا لا يفيد الشافعي فائدة، لأنه إنما عرف هذا وصحة هذه النتيجة بطريقة أخرى فلما عرفها من تلك الطريقة أراد أن يضع عبارة يعبر بها عن مذهبه فجاء بها على هذه الصيغة.

وقال: ولو جاء بها على أي صيغة أراد مما يؤدي منه مراده لم يكن لهذه الصيغة مزية عليها، وقال: وإنما نبهنا على ذلك لما ألفينا بعض المتأخرين صنف كتابا أراد أن يرد فيها أصول الفقه لأصول علم المنطق.

#### تعقيب

هذا ما قاله المازري وهو صحيح في الجملة، وفيه من التنبيه ما ذكرناه من عدم التزام طريقة أهل المنطق في تقرير القضايا الشرعية، وفيه أيضا إشارة إلى ما تقدم من أن المقدمة الحاكمة على المناط إن لم تكن متفقا عليها مسلمة عند الخصم فلا يفيد وضعها دليلا، ولما كان قوله ﷺ: «وكل خمر حرام» مسلما، لأنه نص النبي ﷺ لم يعترض فيه المخالف بل قابله بالتسليم واعترض القاعدة بعدم الاطراد وذلك مما يدل على أنه من كلامه ﷺ أمر اتفافي لا أنه قَصِدَ قَصْدَ المنطقيين، وهكذا يقال في القياس الشرطي في نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) (١)، لأن (لو) لما سيقع لوقوع غيره فلا استثناء لها في كلام

(1) سورة الأنبياء/22.

العرب قصدا وهو معنى تفسير سيبويه ونظيرها، لأنها تفيد ارتباط الثاني بالأول في التسبب والاستثناء لا تعلق له بها في صريح كلام العرب فلا احتياج إلى ضوابط المنطق في تحصيل المراد في المطالب الشرعية، وإلى هذا المعنى والله أعلم أشار الباجي في أحكام الفصول حين رد على الفلاسفة في زعمهم أن لا نتيجة إلا من مقدمتين ورأى أن المقدمة الواحدة قد تنتج وهو كلام مشكل الظاهر إلا إذا طولع به هذا الموضع فربما استقام في النظر<sup>(1)</sup>.

4 - حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَتَدْرُونَ مَنْ

الْمُفْلِسُ؟

قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

لَفُظُ حَدِيثَيْهِمَا سَوَاءٌ إِلَّا أَنَّ فِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبْدِانَ: «فَيُقْضَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ قُتَيْبَةَ بْنِ سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ.

قال المازري: «زعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارض لقوله

تعالى: ﴿وَلَا تَرُؤُا زُجْرًا وَلَا تَرُؤُا زُجْرًا وَلَا تَرُؤُا زُجْرًا وَلَا تَرُؤُا زُجْرًا﴾<sup>(2)</sup>.

وهذا الاعتراض غلط منه وجهالة بيته، لأنه إنما عُوقب بفعله ووزره وظلمه، فتوجهت عليه حقوق لغرمائه فدُفعت إليهم من حسناته، فلما فرغت وبقيت بقية، قُوبلت على حسب ما اقتضته حكمة الله تعالى في خلقه وعدله في عباده، فأخذ قدرها من سيئات خصومه فوضع عليه فعُوقب به

(1) الموافقات، 337/4

(2) سورة الزمر/7.



في النار، فحقيقة العقاب إنما هي بسبب ظلمه ولم يعاقب بغير جناية وظلم منه، وهذا كله مذهب أهل السنة».

5 - أما حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنا أنهى أمتي عن الكي».

قال أبو عبد الله المازري: الأمراض الامتلائية: إما أن تكون دموية أو صفراوية أو بلغمية أو سوداوية، فإن كانت دموية فشفؤها بإخراج الدم وإن كانت من الأقسام الثلاثة الباقية فشفؤها بالإسهال الذي يليق بكل خلط منها، وكأنه ﷺ بالعسل على المسهلات وبالجمامة على الفصد، وقد قال بعض الناس: إن الفصد يدخل في قوله: شرطة محجم فإذا أعيى الدواء فأخر الطب الكي فذكره ﷺ في الأدوية، لأنه يستعمل عند غلبة الطباع لقوى الأدوية وحيث لا ينفع الدواء المشروب.

6 - وقوله ﷺ: «وأنا أنهى أمتي عن الكي»، وفي الحديث الآخر: «وما أحب أن أكتوي» إشارة إلى أن يؤخر العلاج به حتى تدفع الضرورة إليه ولا يعجل التداوي به لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي<sup>(1)</sup>.

7 - والحديث المروي عن ابن عباس، قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رأهم. انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء. وأرسلت عليهم الشهب. فرجعت الشياطين إلى قومهم. فقالوا: مالكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذلك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر

(1) زاد المعاد، ابن القيم، 46/4

الذين أخذوا نحو تهامة (وهو بنخل، عامدين إلى سوق عكاظ. وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر) فلما سمعوا القرآن استمعوا له. وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا! إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فأمننا به. ولن نشرك بربنا أحدا. فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴿١﴾﴾.

قال الإمام أبو عبد الله المازري: ظاهر الحديث أنهم آمنوا عند سماع القرآن، ولا بد لمن آمن عند سماعه أن يعلم حقيقة الإعجاز وشروط المعجزة، وبعد ذلك يقع له العلم بصدق الرسول، فيكون الجن علموا ذلك من كتب الرسل المتقدمين قبلهم على أنه هو النبي الصادق المبشر به، واتفق العلماء على أن الجن يعذبون في الآخرة على المعاصي، قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾<sup>(2)</sup>، واختلفوا في أن مؤمنهم ومطيعهم هل يدخل الجنة وينعم بها ثواباً ومجازاة له على طاعته أم لا يدخلون؟ بل يكون ثوابهم أن ينجوا من النار ثم يقال: كونوا تراباً كالبهائم.

وهذا مذهب ابن أبي سليم وجماعة، والصحيح أنهم يدخلونها وينعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما، وهذا قول الحسن البصري والضحاك ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وغيرهم.

8 - وقال المازري في كتابه "المعلم" على "صحيح مسلم" عند قول النبي ﷺ في كتاب الشفعة: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه من سبع أرضين يوم القيامة».

وقال: كان شيخنا أبو محمد عبد الحميد كتب إليّ بعد فراقه له: هل وقع في الشرع عما يدل على كون الأرض سبعا؟

(1) سورة الجن/1.

(2) سورة السجدة/13.

فكتبت إليه قولُ الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾<sup>(1)</sup>، وذكرت له هذا الحديث فأعاد كتابه إليّ يذكر فيه أن الآية محتملة هل مثلهن في الشكل والهيئة أو مثلهن في العدد. وأن الخبر من أخبار الآحاد، والقرآن إذا احتمل والخبر إذا لم يتواتر لم يصح القطع بذلك، والمسألة ليست من العمليات فيتمسك فيها بالظواهر وأخبار الآحاد، فأعدت إليه المجاوبة أحتج لبعده الاحتمال عن القرآن وبسطت القول في ذلك وترددت في آخر كتابي في احتمال ما قال، فقطع المجاوبة.

### تعقيب

وأنت قد تبينت أن أفراد الأرض مشعر بأنها أرض واحدة وأن المماثلة في قوله تعالى: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾<sup>(2)</sup> راجعة إلى المماثلة في الخلق العظيم، وأما الحديث فإنه في شأن من شؤون الآخرة وهي مخالفة للمتعارف، فيجوز أن يطوق الغاصب بالمقدار الذي غصبه مضاعفاً سبع مرات في الغلظ والثقل، على أن عدد السبع يجوز أن يراد به المبالغة في المضاعفة. ولو كان المراد طبقات معلومة لقال: طوقه من السبع الأرضين بصيغة التعريف. وكلام عبد الحميد أدخل في التحقيق من كلام المازري.

وعلى مجازاة تفسير الجمهور لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾<sup>(3)</sup> من المماثلة في عدد السبع، فيجوز أن يقال: إن السبع سبع قطع واسعة من سطح الأرض يفصل بينها البحار نسميها القارات ولكن لا نعني بهذه التسمية المعنى الاصطلاحي في كتب الجغرافيا القديمة أو الحديثة بل هي قارات طبيعية كان يتعذر وصول سكان بعضها إلى بعضها الآخر في الأزمان التي لم يكن فيها

(1) سورة الطلاق/12.

(2) سورة الطلاق/12.

(3) سورة الطلاق/12.

تنقل بحري وفيما بعدها مما كان ركوب البحر فيها مهولاً! وهي أن آسيا مع أوروبا قارة، وإفريقيا قارة، وأستراليا قارة، وأميركا الشمالية قارة، وأميركا الجنوبية قارة، وجرولندا في الشمال، والقارة القطبية الجنوبية، ولا التفات إلى الأجزاء المتفرقة من الأرض في البحار، وتكون "من" تبعيضية، لأن هذه القارات الاصطلاحية أجزاء من الأرض.

9 - عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفي رواية جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة وهي على رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها سقطت قال: وأحسبه قال: ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً». أخرجه الترمذي، ولأبي داود نحوه.

قال المازري: مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فإذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علماً على أمور آخر يجعلها في ثاني الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التي يجعلها علماً على ما سر بغير حضرة الشيطان فإذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب إلى الشيطان مجازاً وإن كان لا فعل له في الحقيقة فهذا معنى قول النبي ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان» لا على أن الشيطان يفعل شيئاً والرؤيا اسم للمحجوب والحلم اسم للمكروه<sup>(1)</sup>.

10 - عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين». أخرجه أبو داود.

(1) تفسير الخازن، 496/3

قال المازري: أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقال العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد عقولهم أن كل معنى يكون مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول وإذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وإنكاره، وقيل: لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة. وقال: وقد زعم بعض الطبائعيين مثبتين للعين تأثيراً أن العين تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا: ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل بالملدوغ فيهلك وإن كان غير محسوس لنا فكذا العين.

قال المازري: وهذا غير مسلم، لأننا بينا في كتب علم الكلام أنه لا فاعل إلا الله تعالى وبيننا فساد القول بالطبائع، وبيننا

أن المحدث لا يفعل في غيره شيئاً، فإذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم تقول هذا المنبعث من العين إما جوهر وإما عرض فباطل أن يكون عرضاً لأنه لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرًا، لأن الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسداً لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه.

وأقرب طريقة قالها من ينتحل الإسلام منهم إن قالوا: لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة أجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعية ألجأ الفعل إليها قال ومذهب أهل السنة أن المعين إنما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بأن يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصاً آخر، وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الأمرين، وإنما يقطع بنفي الفعل عنها وإضافته إلى الله تعالى فمن قطع من أطباء الإسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه، وإنما هو

من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الأصول، وأما ما يتعلق بعلم الفقه فإن الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الأمر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطأ.

11 - من حديث أنس قال: «بيننا نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه فقال النبي ﷺ: لا تترموه دعوه فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ: قال: فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه». خرجه مسلم.

### دلالة الحديث

لقد أشار الإمام المازري إلى كثير من القواعد الأصولية استنباطاً من هذا الحديث أجتزئ منها ما تيسر لي بعد البحث عنها في الكتب التي أشارت إلى الآراء الفقهية والأصولية لهذا الإمام الجليل (بكلام جامع نقله عنه من جاء بعده):

أولاً: فيه حسن خلقه ﷺ، ورأفته بالمتعلم ولطفه به، وهكذا ينبغي أن يكون المعلم والمربي والعالم والمسؤول في كل عصر ومصر، ينبغي أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة، وبالآداب الكريمة مع الناس، حتى ولو وقع منهم سلوك مشين، كما وقع من هذا الأعرابي.

ثانياً: فيه وجوب الرفق بالجاهل، وعدم التعنيف عليه، وأنه يجب التفريق في المعاملة بين من يقع في المنكر وهو عالم به مُصر عليه، وبين من يقع فيه وهو جاهل به، وأن الداعية والعالم ينبغي أن يكون ميسراً لا معسراً، في حدود الشرع.

ثالثاً: فيه بيان تعظيم المساجد، ووجوب احترامها، وتنزيهها عن الأقدار، أيًا كان بناؤها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من هذا البول ولا القدر...».

فلفظ (المساجد) هو من صيغ العموم، فتعم كل مسجد في القديم أو في الحاضر، فلا يجوز البول فيها، ولا تقذيرها بأي لون من ألوان القاذورات، سواء بالبصاق فيها . كما يفعله بعض الناس اليوم، حيث يبصق في ساحة المسجد الواقعة داخل السور . أو بإلقاء النفايات والمناديل داخل أروقة المسجد... إلخ.

رابعاً: فيه دلالة على نجاسة بول آدمي، وهو محل إجماع عند أهل العلم.

خامساً: فيه تقرير قاعدة عظيمة في الدين، وهي (دفع أعظم المفسدتين بارتكاب أدناهما)، فالنبي ﷺ حين ترك هذا الأعرابي حتى يتم بوله، كان ذلك لأجل ألا يترتب على منعه أن يقوم فيلوث ثيابه وبدنه، ويلوث أجزاء أخرى من المسجد فيؤدي إلى انتشار النجاسة، وتنجيس مكان واحد أخف من تنجيس أماكن متفرقة من المسجد، ويتخرج على هذه القاعدة ما لا يحصى من النوازل الفقهية في باب السياسة الشرعية، وفي باب المعاملات المالية المعاصرة، وفي باب الطب الحديث، وغيرها من الأبواب، ومن ذلك على سبيل المثال نازلة رفع أجهزة الإنعاش عند الموت الدماغية في بعض صورته الجائزة، فالحاصل أن هذه القاعدة قد استنبطت من عدة نصوص، ومنها هذا الحديث النبوي الشريف.

سادساً: فيه جواز التمسك بالعموم حتى يظهر دليل التخصيص، وهي مسألة أصولية مشهورة، ويترتب عليها فوائد كثيرة، ليس هذا الجواب محل بسطها.

سابعاً: فيه وجوب إزالة المفسد عند زوال المانع، لأمره ﷺ صحابته بصب الماء عند فراغه من البول.

ثامناً: فيه أن الماء أداة من أدوات التطهير، وأنه لا يشترط حفر الأرض إذا وقعت عليها النجاسة، خلافاً للحنفية.

تاسعاً: فيه أنه لا ينبغي قطع البول على من شرع فيه، لما قد يؤدي إليه من مفسد صحية، وربما جاء الطب الحديث بما يؤيد هذا، فقد اكتشف الطب الحديث علوماً كثيرة، كان قد ذكرها القرآن الكريم، والرسول ﷺ أو أشار إليها قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة.

الفائدة العاشرة: أنه لا يجوز البول في الأماكن التي يرتادها الناس، إما للعبادة كالمساجد - كما في هذا الحديث -، وإما للجلوس والراحة كمواطن الظل، وإما لاتخاذها طريقاً... ولذا قال ﷺ: «اتقوا اللعائين.. الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم» أخرجه مسلم في صحيحه<sup>(1)</sup>.

وفي سنن أبي داود وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد - يعني موارد الماء - وقارعة الطريق، والظل».

12 . قَوْلُهُ ﷺ: «أَطِيبْ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

قَالَ الْمَازِرِيُّ: هُوَ مَجَازٌ لِأَنَّهُ جَرَتْ الْعَادَةُ بِتَقْرِيْبِ الرِّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ مِنَّا فَاسْتُعِيرَ ذَلِكَ لِلصَّوْمِ لِتَقْرِيْبِهِ مِنْ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَطِيبَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ عِنْدَكُمْ أَي: يُقَرَّبُ إِلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ تَقْرِيْبِ الْمِسْكِ إِلَيْكُمْ<sup>(2)</sup>.

(1) المعلم بفوائد مسلم، الإمام المازري، 184/3 . 186

(2) فتح الباري لابن حجر، 129/6



## قضايا أصولية

قال المازري: العموم عند أئمة الأصول هو القول المشتمل على شيئين فصاعداً والتثنية عندهم عموم لما يتصور فيها من معنى الجمع والشمول الذي لا يتصور في الواحد ولا يخفي ما يرد عليه.

هل يتصور العموم في الأحكام حتى يقال حكم قطع السارق عام؟ قال المازري: الحق بناء هذه المسألة على أن الحكم يرجع إلى قول أو إلى وصف يرجع إلى الذات، فإن قلنا بالثاني لم يتصور العموم لما تقدم في الأفعال، وإن قلنا: يرجع إلى قول فقوله تعالى: (السارق) يشمل كل سارق فنفس القطع فعل والأفعال لا عموم لها.

قال القاضي أبو عبد الله الصيمري في كتابه مسائل الخلاف في أصول الفقه: دعوى العموم في الأفعال لا تصح عند أصحابنا ودليلنا أن العموم ما اشتمل على أشياء متغايرة والفعل لا يقع إلا على درجة واحدة وقال الشيخ أبو إسحاق: لا يصح العموم إلا في الألفاظ وأما في الأفعال فلا يصح لأنها تقع على صفة واحدة فإن عرفت صفتها مثل قول الراوي جمع بين الصلاتين في السفر فهذا مقصور على السفر ومن الثاني قوله في السفر فلا يدري أنه كان طويلاً أو قصيراً فيجب التوقف فيه ولا يدعي فيه العموم<sup>(1)</sup>.

## دلالة النهي على الفساد

قال الإمام المازري في شرح البرهان: الأكثر من الفقهاء في هذه المسألة على دلالة النهي على الفساد والأكثر من المتكلمين على أنه لا يدل على الفساد وأصحاب الشافعي يحكون عنه القولين فمنهم من نقل عنه ذهابه إلى أن النهي يدل على الفساد، ومنهم من أجابه من كلام وقع له مصيره إلى أنه لا يدل على الفساد، والجمهور من فقهاء المالكية كونه دالاً

(1) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، الشوكاني، 236/1

على الفساد والذاهبون إلى دلالاته على الفساد مختلفون هل ذلك مأخوذ من اللغة أو عن الشرع<sup>(1)</sup>.

### سدّ الذرائع

وفسّر المازري في باب بيوع الآجال من شرحه للتلقين سدّ الذريعة بأنه منع ما يجوز لئلا يتطرق به إلى ما لا يجوز. والمراد: سدّ ذرائع الفساد، كما أفصح عنه القرافي في "تنقيح الفصول" وفي "الفرق الثامن والخمسين" فقال: الذريعة: الوسيلة إلى الشيء.

### ومعنى سدّ الذرائع حسم مادّة وسائل الفساد

وأجمعت الأمة على أنّ الذرائع ثلاثة أقسام:

أحدها: معتبر إجماعاً كحفر الآبار في طرق المسلمين وإلقاء السمّ في أطعمتهم وسبّ الأصنام عند من يُعلم من حاله أنّه يسبّ الله تعالى حيثئذ.

ثانيها: مُلغى إجماعاً كزراعة العنب فإنّها لا تمنع لخشيّة الخمر، وكالشركة في سكنى الدّور خشيّة الزّنا.

ثالثها: مختلف فيه كبيوع الآجال، فاعتبر مالك رضي الله عنه الذريعة فيها وخالفه غيره. وعنى بالمخالف الإمامين الشافعي وأبا حنيفة.

وهذه القاعدة تندرج تحت قاعدة الوسائل والمقاصد، فهذه القاعدة شعبة من قاعدة إعطاء الوسيلة حكم المقصد خاصّة بوسائل حصول المفسدة. ولا يختلف الفقهاء في اعتبار معنى سدّ الذرائع في القسم الذي حكى القرافي الإجماع على اعتبار سدّ الذريعة فيه. وليس لهذه القاعدة عنوان في أصول الحنفيّة والشافعيّة، ولا تعرّضوا لها بإثبات ولا نفي، ولم

---

(1) تحقيق المراد، 79/1

يذكرها الغزالي في "المستصفى" في عداد الأصول الموهومة في خاتمة القطب الثاني في أدلة الأحكام<sup>(1)</sup>.

### مسألة النسخ

فالمتعة ما ورد فيها من قول جابر أنها كانت تفعل في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وصدر من خلافة عمر، قال: ثم نهانا عمر عنها فانتهينا، فالراجع في الموضوعين تحريم المتعة وإيقاع الثلاث للإجماع الذي انعقد في عهد عمر على ذلك، ولا يحفظ أن أحدا في عهد عمر خالفه في واحدة منهما، وقد دل إجماعهم على وجود ناسخ وإن كان خفي عن بعضهم قبل ذلك، حتى ظهر لجمعهم في عهد عمر، فالمخالف بعد هذا الإجماع منابذ له، والجمهور على عدم اعتبار من أحدث الاختلاف بعد الاتفاق..

واعترض المازري على ذلك قال: «زعم بعضهم أن هذا الحكم منسوخ وهو غلط فإن عمر لا ينسخ ولو نسخ - وحاشاه - لبادر الصحابة إلى إنكاره، وإن أراد القائل أنه نسخ في زمن النبي ﷺ فلا يمتنع لكن يخرج عن ظاهر الحديث، لأنه لو كان كذلك لم يجز للراوي أن يخبر ببقاء الحكم في خلافة أبي بكر وبعض خلافة عمر قال: فإن قيل فقد يجمع الصحابة ويقبل منهم ذلك، قلنا: إنما يقبل ذلك، لأنه يستدل بإجماعهم على ناسخ وأما أنهم ينسخون من تلقاء أنفسهم - فمعاذ الله، لأنه إجماع على الخطأ، وهم معصومون عن ذلك، قال: فإن قيل: فلعل النسخ إنما ظهر في زمن عمر، قلنا: هذا أيضا غلط، لأنه يكون قد حصل الإجماع على الخطأ في زمن أبي بكر وليس انقراض العصر شرطا في صحة الإجماع على الرجح». هذا ما أورده المازري.

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 75/5

## تعقيب

وعقب الحافظ ابن حجر على ما أورده المازري فقال: يجاب على ما ذكره الإمام المازري بأمور:

أحدهما: أن الذي ادعى نسخ الحكم لم يقل إن عمر هو الذي نسخ حتى يلزم منه ما ذكر، وإنما قال: ما تقدم: «يشبه أن يكون علم شيئا من ذلك نسخ»، أي: اطلع على نسخ الحكم الذي رواه مرفوعا، ولذلك أفتى بخلافه، وقد سلم المازري في أثناء كلامه أن إجماعهم يدل على نسخ، وهذا هو مراد من ادعى النسخ.

الثاني: إنكاره الخروج عن الظاهر عجيب، فإن الذي يحاول الجمع بالتأويل يرتكب خلاف الظاهر حتما.

الثالث: أن تغليظه من قال المراد ظهور النسخ عجيب أيضا، لأن المراد بظهوره انتشاره، وكلام ابن عباس أنه يفعل في زمن أبي بكر محمول على أن الذي كان يفعله من لم يبلغه النسخ، فلا يلزم ما ذكر من إجماعهم على الخطأ، وما أشار إليه من مسألة انقراض العصر لا يجيء هنا لأن عصر الصحابة لم ينقرض في زمن أبي بكر بل ولا عمر، فإن المراد بالعصر الطبقة من المجتهدين وهم في زمن أبي بكر وعمر بل وبعدهما طبقة واحدة.

ومن خلال تتبعنا لكتابه الموسوم "المعلم بفوائد مسلم" وجدته كثير اعتماد على سدّ الذرائع في مسائل كثيرة منها مسألة الربا، وفي ذلك اختلف الإمامان أبو حنيفة والشافعي - قال المازري: فاعلم أنّ الربا يدخل في بيع النسيئة في الحديث: «مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمَرٍ فَلْيُسَلِّفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ وَإِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ»، وما قيس عليها سواء اتفقت الأجناس أم اختلفت وما سوى الستة، وما قيس عليها لا يدخل الربا في بيع النسيئة فيه

إذا اختلفت الأجناس كسلم عبد في ثوبين، فإن تساوت الأجناس فاختلفت الناس فمنعه أبو حنيفة رحمته، وأجازته الشافعي رحمته، وقال مالك رحمته: إذا اتفقت المنافع في الجنس مُنَع وإن اختلفت جاز.

فأما أبو حنيفة رحمته فحجته قول الله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾<sup>(1)</sup>، والربا الزيادة، وهذا موجود في البيع فمنع بحق عموم الآية، وإنما اختلفت الأجناس ما قدمناه من الحديث وبغير ذلك.

وأما الشافعي رحمته فإنه يحتج بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بعض أصحابه بأن يعطي بعيرا في بعيرين إلى أجل، هذا يخص قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾<sup>(2)</sup>، إذا قلنا: إن الزيادة في عوض الشيء تسمى ربا حقيقة. وجماعة من أهل الأصول يذهبون إلى تخصيص العموم بخبر الواحد، وبعضهم يمنع منه.

وأما مالك رحمته فإنه توسط بين القولين وعدل بين المذهبين، وسلك حماية الذريعة. وأصله القول بها فنظر إلى أن الأجناس إذا اختلفت جاز التفاضل فيها نسيئة. والغرض من المتملكات الانتفاعات، وأما نفس الذوات فلا يملكها إلا الله الذي يوجدها ويعدمها، وإنما ملك الخلق الانتفاع بها، فإذا كانت المنافع مختلفة وهي المقصودة التي يتعلق بها الملك وجب أن تحل محل اختلاف الأجناس، وإذا كان الغرض في دابة الحمل عليها، والغرض من أخرى الجري بها صار في الأنفس كدابة يراد ركوبها وثوب يراد لباسه، فإذا تساوت المنافع نظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم أنه «نهى عن سلف جرّ نفعاً».

---

(1) سورة البقرة/275.

(2) سورة البقرة/275.

فإذا دفع ثوبا في ثوبين الغرض فيهما كالغرض في الثوب فكأنه أسلفه واشتراط عليه أن ينتفع بالزيادة، ولو أسلم ثوبين في ثوب تَفَقُّ الأغررض فيها، لأتُهما أيضا على أن يكون أعطاه أحد الثوبين ليضمن له الثاني في ذمته أجلا سميها، فيصير ذلك معاوضة على الضمان وسلفا لينتفع بالضمان وذلك لا يجوز. ولو تحققنا حصول السلف والغرض على وجه لا منفعة فيه محققة وهي الزيادة المحسوسة ولا منفعة فيه مقدرة يتهم الناس عليها لأجزنا ذلك إذا سلك به مسلك القرض<sup>(1)</sup>.

### كيفية الاستدلال عند المازري

يشير إلى الاستدلال بالظاهر أو العموم ثم الإجمال، ويظهر ذلك حين يتعرض إلى عدة أمثلة من المواقف أمام نصوص من القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾<sup>(2)</sup>، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾<sup>(3)</sup>.

ومن السنة يذكر أحاديث ذات أهمية كبرى في حياة الفرد المسلم وهي قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...» الحديث، وقوله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان...».

وهو في كل ذلك يتعرض لأدق المسائل الفقهية مشيرا إلى التعريف بحرف التعريف والظاهر والعموم والمجمل واستثناء المجهول من المعلوم والمقيد والمطلق... وغيرها من القواعد الأصولية المؤدية إلى التفاصيل الفقهية الدقيقة. ويمكن اعتبار المسائل التي تعرض لها كأمثلة، بمثابة حجج لمن يود الاستفادة في أمور الفقه وأصوله.

(1) المعلم بفائدة مسلم، الإمام المازري، 210/2 . 211

(2) سورة البقرة/275.

(3) سورة الشورى/13.

## مستقر العقل

قال المازري في شرح التلقين: أكثر الفقهاء وأقل الفلاسفة على أن العقل في القلب، وأقل الفقهاء وأكثر الفلاسفة على أنه في الدماغ محتجين بأنه إذا أصاب الدماغ آفة فسد العقل وبطلت العلوم والأنظار والفكر وأحوال النفس.

وأجيب بأن استقامة الدماغ لعلها شرط، والشيء قد يفسد لفساد محله، وقد يفسد لفساد شرطه ومع الاحتمال فلا جزم، بل النصوص واردة بأن ذلك في القلب كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾<sup>(1)</sup>، وقوله تعالى: ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ كَانَ لَهُ لَٰهٌ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ هُوَ شَهِيدٌ﴾<sup>(2)</sup>، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾<sup>(3)</sup>، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾<sup>(4)</sup>، ولم يذكر الدماغ قط في هذه المواضع فدل على أن محل العقل القلب لا الدماغ، وجعل الله تعالى في مجاري عاداته استقامة الدماغ شرطاً في حصول أحوال العقل والقلب على وجه الاستقامة.

وإذا تقرر أن العقل في القلب يلزم على أصولنا أن النفس في القلب، لأن جميع ما ينسب إلى العقل من الفكر والعلوم وغير ذلك إنما هي صفات النفس فتكون النفس في القلب عملاً بظواهر النصوص، والنفس هاهنا حسب ما ذهب إليه هي الروح، وهي العقل وهذا بيانه:

أ - باعتبار ميلها إلى الملاذ والشهوات تسمى نفساً.

ب - باعتبار تعلقها بالجسد تعلق التدبير بإذن الله تعالى في غذائه وصحته وسقمه، ومتى فارقتة ذهبت حياته في مجاري العادات ومن

(1) سورة الحج/46.

(2) سورة ق/37

(3) سورة المجادلة/22.

(4) سورة الزمر/22.

الممكن عقلا أن تذهب الروح من الجسد ويبقى حيا كما تضع المرأة جنينها وتبقى حية على حالها، تسمى روحا، فالنفس جسم لطيف حي شفاف في جسم حي كثيف فمفارقته كمفارقة الجنين.

ج - وباعتبار كونها محصلة للعلوم بالفكر تسمى عقلا.

فصار لها ثلاثة أسماء باعتبار ثلاثة أحوال والموصوف واحد، وبهذا يتجه أنها في القلب، وإذا كانت النفس في القلب كانت النية والإرادة وأنواع أحوال النفس في القلب<sup>(1)</sup>.

### فتاواه الفقهية

وله فتوى في غاية الخطورة، وذلكم تنبيها لنا حتى نحمل أنفسنا ما لا طاقة لها وهي مسألة الإفتاء، فقد جاء في كتب الفقه على لسان فقهاءنا المالكية أن من أفتى رجلا فأثلف بفتواه مالا، فإن كان مجتهدا فلا شيء عليه وإلا فقال المازري: يضمن ما تلف ويجب على الحاكم التعليل عليه وإن أدبه فأهل، إلا أن يكون تقدم له اشتغال بالعلم فيسقط عنه الأدب وينهى عن الفتوى إذا لم يكن أهلا.

ونقل البرزلي عن ابن رشد في أوائل النكاح أنه لا ضمان عليه، لأنه غرور بالقول إلا أن يتولى فعل ما أفتى به فيضمن، وذكر في أوائل كتابه عن الشعبي أنه يضمن قال: وهذا عندي في المفتي الذي يجب تقليده المنتصب لذلك، وأما غيره فكالغرور بالقول ويجري على أحكامه فتحصل أن المفتي المنتصب لذلك يضمن ولعل ابن رشد لا يخالف فيه، لأن هذا يحكم بفتواه فهو كالشاهد يزجج عن الشهادة وأما غير المنتصب ففيه قولان لابن رشد والمازري، والله أعلم<sup>(2)</sup>.

(1) الأمانة في إدراك النية، القرافي 17/1

(2) مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، الحطاب، 106/1



وهنا نأتي بأمثلة في غاية الأهمية تعطينا مدى تحرج أئمتنا عن الإجابة مخافة الزلل والتقول، نتيجة التسرع في الإفتاء، يقول المازري في شرحه لحديث: «إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن وبينهما مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَزْتَعَ فِيهِ أَوْ لَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى أَوْ لَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ أَوْ لَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَوْ لَا وَهِيَ الْقَلْبُ»:

سئل مالك رضي الله عنه عن خنزير الماء فوقف فيه لما تعارضت الآي عندة ونظر إلى عموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾<sup>(1)</sup>، فخاف أن يدخل في عمومه فيحرم ونظر إلى عموم قوله تعالى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ﴾<sup>(2)</sup>، وأمكن أن يدخل في عموم هذه الآية فيحلّ، ولم تظهر له طرق الترجيح الواضحة في أن يقدم آية على آية فوقف فيه.

ومن هذا المعنى أن يعلم أصل الحكم ولكنّه يلتبس وجود شرط الإباحة حتى يتردد بينه وبين شرط التحريم، وذلك أن الإنسان يحلّ له أن يأكل ملكه أو ما في معناه مما أبيع له تملكه، ويحرم عليه أكل ملك غيره أو ما في معناه. وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم تمرة ساقطة فترك أكلها واعتلّ بأنّه لولا أنّه يخاف أن تكون صدقة لأكلها، فلما كانت الصدقة محرمة عليه وشكّ هل حصل هذا التحريم في هذه التمرة؟ تركها ولحقت بالمشتهات<sup>(3)</sup>.

(1) سورة المائدة/3.

(2) سورة المائدة/96.

(3) المعلم فوائد مسلم، الإمام المازري، 202/2 . 203 .

ويذكر عن الإمام المازري أنه سئل ما تقول فيما اضطر الناس إليه في هذا الزمان والضرورات تبيح المحظورات من معاملة فقراء أهل البدو في سني الجذب إذ يحتاجون إلى الطعام فيشترونه بالدين إلى الحصاد أو الجذاذ، فإذا حل الأجل قالوا لغرمائهم: ما عندنا إلا الطعام فربما صدقوا في ذلك فيضطر أرباب الديون إلى أخذه منهم خوفاً أن يذهب حقهم في أيديهم بأكل أو غيره لفقرهم ولاضطرار من كان من أرباب الديون حضرياً إلى الرجوع إلى حضرته ولاحكام بالبادية أيضاً، مع ما في المذهب في ذلك من الرخصة إن لم يكن هنالك شرط ولا عادة وإباحة كثير من فقهاء الأمصار لذلك وغيره من بيوع الأجال خلافاً للقول بالذرائع.

فأجاب: إن أردت بما أشرت إليه إباحة أخذ طعام عن ثمن طعام هو جنس مخالف لما اقتضى فهذا ممنوع في المذهب ولا رخصة فيه عند أهل المذهب كما توهمت.

قال: لست ممن يحمل الناس على غير المعروف المشهور من مذهب مالك وأصحابه، لأن الورع قل بل كاد يعدم والتحفظ على الديانات كذلك، وكثرت الشهوات وكثر من يدعي العلم ويتجاسر على الفتوى فيه فلو فتح لهم باب في مخالفة المذهب لاتسع الخرق على الراقع وهتكوا حجاب هيبة المذهب، وهذا من المفسدات التي لا خفاء بها ولكن إذا لم يقدر على أخذ الثمن إلا أن يأخذ طعاماً فليأخذه منهم من يبيعه على ملك منفذه إلى الحاضرة ويقبض البائع الثمن ويفعل ذلك بإشهاد من غير تحيل على إظهار ما يجوز.

فانظر كيف لم يستجز وهو المتفق على إمامته الفتوى بغير مشهور المذهب ولا بغير ما يعرف منه بناء على قاعدة مصلحة ضرورية إذ قل الورع والديانة من كثير ممن يتتصب لبث العلم والفتوى كما تقدم تمثيله،

فلو فتح لهم هذا الباب لانحلت عرى المذهب بل جميع المذاهب، لأن ما وجب للشيء وجب لمثله، وظهر أن تلك الضرورة التي ادعت في السؤال ليست بضرورة<sup>(1)</sup>.

### التبديل في ألفاظ الأذكار الواردة

تبديل لفظ من الأذكار الواردة بلفظ آخر اختلف فيه أيضاً، فقول: هو جائز لأنه شبيه بالرواية بالمعنى، والمشهور عند المحدثين أن الرواية بالمعنى جائزة إذا كان اللفظ البديل مساوياً في المعنى للفظ الوارد، وخالف في ذلك المازري فقال تعليقا على حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رهبة ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت مت على الفطرة فاجعلن آخر ما تقول. فقلت: استذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت، قال: لا وبنبيك الذي أرسلت».

قال المازري عقبه: سبب هذا الإنكار أن هذا ذكر ودعاء، فينبغي فيه الاختصار على الذكر الوارد بحروفه، وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف، ولعله أوحى إليه بتلك الكلمات، فتعين أداؤها بحروفها.

### مسألة الحدّث في المسجد

قال المازري: أشار البخاري إلى الردّ على من منع المحدث أن يدخل المسجد أو يجلس فيه وجعله كالجنب، وهو مبني على أن الحدّث هنا الريح ونحوه، وبذلك فسره أبو هريرة كما تقدّم في الطهارة.

(1) الموافقات، الشاطبي، 146/4

وَقَدْ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ هُنَا أَعَمٌّ مِنْ ذَلِكَ، أَيْ: مَا لَمْ يُحَدِّثْ سُوءًا، وَيُؤَيِّدُهُ رِوَايَةُ مُسْلِمٍ «مَا لَمْ يُحَدِّثْ فِيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ» وَفِي أُخْرَى لِلْبُخَارِيِّ: «مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ بِحَدِيثٍ فِيهِ»<sup>(1)</sup>.

### مسألة البيع والشراء على المنبر في المسجد

قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ ذَلِكَ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى صِحَّةِ الْعَقْدِ لَوْ وَقَعَ<sup>(2)</sup>.

### استعانة الفقهاء بفتاواه الفقهية

سَيَّلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ عَمَّا وَرَدَ فِي سُورَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(3)</sup>، أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ فَأَجَابَ بِمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الْمَازِرِيُّ، فَقَالَ: وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي عِيَاضُ أَقْوَالًا فِي كَوْنِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ الْمَازِرِيُّ قَبْلَهُ قَالَ: قَالَ الْإِمَامُ يَعْنِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمَازِرِيَّ - قِيلَ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ: قَصَصٌ وَأَحْكَامٌ، وَأَوْصَافٌ اللَّهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ.

و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(4)</sup>، تَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ الصِّفَاتِ فَكَانَتْ ثُلُثًا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ قَالَ: وَرَبَّمَا أَسْعَدَ هَذَا التَّأْوِيلُ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ جَزَأَ الْقُرْآنَ.

قُلْتُ: هَذَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ سُرَيْجٍ - وَهُوَ الَّذِي نَصَرْنَاهُ - ذَكَرَهُ الْمَازِرِيُّ فِي كَلَامِ ابْنِ بَطَّالٍ كَمَا سَيَأْتِي. قَالَ: وَقِيلَ: مَعْنَى ثُلُثِ الْقُرْآنِ لِشَخْصٍ بَعَيْنِهِ

(1) فتح الباري لابن حجر، 173/2

(2) فتح الباري لابن حجر، 192/2

(3) سورة الإخلاص/1.

(4) سورة الإخلاص/1.

قَصَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَذَكَرَهُ ابْنُ بَطَّالٍ أَيْضًا قَالَ: وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ يَتَفَضَّلُ بِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِقَارِبِهَا وَيَكُونُ مُتْتَهَى التَّضْعِيفِ إِلَى مِقْدَارِ ثُلُثِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ الْأَجْرِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مِنْ دُونِ تَضْعِيفِ أَجْرِ. قَالَ: وَفِي بَعْضِ رَوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَشَدَ النَّاسَ وَقَالَ: سَأَفْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَقَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (1).

قَالَ الْمَازَرِيُّ: وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تَقْدُحُ فِي تَأْوِيلِ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ لِشَخْصٍ بَعَيْنِهِ. قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّكَتُبُ أَحْكَمَتَّ أَيْنَهُ ثُمَّ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (2)، ثُمَّ بَيْنَ التَّفْصِيلِ فَقَالَ: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ (3)، فَهَذَا فَضْلُ الْأُلُوْهِيَّةِ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنِّي لَكُرْمَتُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (4)، وَهَذَا فَضْلُ التُّبُوَّةِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (5)، فَهَذَا فَضْلُ التَّكْلِيفِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَعَامَّةِ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ مِمَّا فِيهِ مِنَ الْقَصَصِ فَمَنْ فَصَلَ التُّبُوَّةَ لِأَنَّهَا مِنْ أَدْلَتِهَا وَفَهَمَهَا أَيْضًا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (6) جَمَعَتْ الْفَضْلَ الْأَوَّلَ.

### مسألة أخذ الأجرة على الفتيا

قيل لابن عرفة: إن المازري حكى في تعليقه عن الشعبي أن الفقيه إذا علم من نفسه أنه ما في بلده من يصلح للفضل غيره، فلا بأس أن يتسبب في الولاية ويعطي عليها الأجرة والرشوة لولاية الأمر؟ فأنكره ابن

(1) سورة الإخلاص/1.

(2) سورة هود/1.

(3) سورة هود/2.

(4) سورة هود/2.

(5) سورة هود/3.

(6) سورة الإخلاص/1.

عرفة وقال: هذا من أكل المال بالباطل والمشاركة فيه على الخطأ والذي أدركت القضاة عليه أن بعضهم كان يتسبب في ذلك بالكلام فقط.

وقد قسم المازري في شرح التلقين القضاء على أربعة أقسام: مندوب ومكروه وحرام وواجب، ولم يذكر هذا بوجه ولو كان جائزاً لذكره. قيل لابن عرفة: وقال المازري في تعليقه: إنه كان ببلدهم مفتيان أحدهما يطلب الأجر على الفتوى، والآخر لا يأخذ أجره فأجاز ذلك (شيخنا) عبد الحميد الصائغ، ومنع ذلك الشيخ أبو الحسن علي اللخمي<sup>(1)</sup>.

وَأَمَّا الْإِجَارَةُ عَلَى الْفُتْيَا فَتَقَلَّ الْمَازِرِيُّ فِي شَرْحِ الْمُدَوَّنَةِ الْإِجْمَاعَ عَلَى مَنَعِهَا وَكَذَلِكَ الْقَضَاءُ، لِأَنَّهَا مِنْ بَابِ الرِّشْوَةِ لَكِنْ لَوْ أَتَى خَصْمَانِ إِلَى قَاضٍ فَأَعْطَاهُ أَجْرًا عَلَى الْحُكْمِ بَيْنَهُمَا وَأَتَى رَجُلٌ لِلْمُفْتِي فَأَعْطَاهُ أَجْرًا عَلَى فَتْوَى لَمْ يَتَّعَلَقْ بِهَا حُضُومَةٌ وَلَمْ يَتَّعَيَنَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِوُجُودِ مَنْ يَقُومُ بِهِ، فَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْحَمِيدِ: أَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَجْسُرُ عَلَى التَّضْرِيحِ بِهِ، وَقَالَ اللَّحْمِيُّ: يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ جُمْلَةٌ وَعَلَى الْأَوَّلِ يُحْمَلُ مَا يُرْوَى عَنْ ابْنِ عُلْوَانَ أَحَدِ فُقَهَاءِ ثُونَسٍ وَمُفْتِيهَا أَنَّهُ كَانَ يَقْبَلُ الْهَبَةَ وَالْهَدِيَّةَ وَيَطْلُبُهَا مِمَّنْ يُفْتِيهِ، كَمَا نَقَلَهُ ابْنُ عَرَفَةَ عَنْهُ<sup>(2)</sup>.

### مسألة فسخ الحج على العمرة

وقال المازري: قيل: إن المتعة التي نهى عنها عمر: فسخ الحج إلى العمرة، وقيل: العمرة في أشهر الحج، ثم الحج من عامه. وعلى الثاني: إنما نهى عنها ترغيباً في الأفراد الذي هو أفضل، لا أنه يعتقد بطلانها وتحريمها.

وقال عياض: الظاهر أنه نهى عن الفسخ، ولهذا كان يضرب الناس عليه، كما رواه مسلم بناء على معتقده: أن الفسخ كان خاصاً بتلك السنة.

(1) تفسير ابن عرفة، 240/1

(2) مواهب الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل، الحطاب، 110/1

قال النووي: والمختار أنه نهى عن المتعة المعروفة التي هي الاعتماد في أشهر الحج ثم الحج من عامه، وهو على التنزيه للترغيب في الأفراد، كما يظهر من كلامه، ثم انعقد الإجماع على جواز التمتع من غير كراهة، وبقي الاختلاف في الأفضل.

الغرض من كلام ابن حجر في الفتح وهو واضح في أن عمر رضي الله عنه ما كان يرى إلا تفضيل الأفراد على غيره، وشاهد لصحة قول من قال: إنه حج بالناس عشر حجج مفرداً.

وقال البرزلي: ناقلا عن المازري في أثناء جوابه عن سؤال ما نصه: إن كان يقع في ترك الصلوات حتى تخرج أوقاتها أو يأتي ببدل منها في وقتها ولم يوقعه في ذلك إلا السفر للحج، فإن هذا السفر لا يجوز وقد سقط عنه فرض الحج.

ونقل التادلي عن المازري أن الاستطاعة هي الوصول إلى البيت بدون مشقة مع الأمن على النفس والمال والتمكن من إقامة الفرائض وترك التفريط وترك المناكير.

سئل المازري عن حكم الحج في زمنه؟

فأجاب بأنه متى وجد السبيل ولم يخف على نفسه وماله وأمن أن يفتن عن دينه وأن يقع في منكرات أو إسقاط واجبات من صلوات أو غيرها، فإنه لا يسقط وجوبه.

وقال: وإن كان يقع في ترك صلوات حتى يخرج أوقاتها ولم يوقعه في ذلك إلا السفر للحج، فهذا السفر لا يجوز لبعضه فرض الحج، وقال: وإن كان إنما يرى منكرات ويسمعها فهذا باب واسع.

ومال الباجي إلى ركوب البحر وإن أدى إلى تضييع بعض أحكام الصلاة لما وقع الاتفاق عليه من ركوبه للجهاد، وفرق بأن المراد من الجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا والقيام بها أشرف من القيام بالصلاة، لأن عدم القيام بالتوحيد كفر وعدم القيام بالصلاة ليس بكفر على المعروف وبضدها تتبين الأشياء والحج مع الصلاة بالعكس إذ هي أفضل وما ذكره في الجهاد<sup>(1)</sup>.

### مسألة الرقية

قال المازري: جميع الرقى جائزة إذا كانت بكتاب الله أو بذكره، ومنهي عنها إذا كانت باللغة العجمية أو بما لا يدري معناه لجواز أن يكون فيه كفر.

قال: واختلفوا في رقية أهل الكتاب فجوزها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكرهها مالك خوفاً أن يكون مما بدلوه، ومن جوزها قال: الظاهر أنهم لم يبدلوا الرقى، فإنهم لهم غرض في ذلك بخلاف غيرها مما بدلوه.

وقد ذكر مسلم بعد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شيء».

وأما قوله في الرواية الأخرى: «يا رسول الله إنك نهيت عن الرقى» فأجاب العلماء عنه بأجوبة.

أحدها: كان نهى أولاً ثم نسخ ذلك وأذن فيها وفعلها واستقر الشرع على الإذن.

والثاني: أن النهي عن الرقى المجهولة كما سبق.

---

(1) مواهب الجليل، الخطاب، 513/2



والثالث: أن النهي لقوم كانوا يعتقدون منفعتها وتأثيرها بطبعها كما كانت الجاهلية تزعمه في أشياء كثيرة.

### مسألة الإسراء

وحكى المازري في شرح مسلم قولاً رابعاً جمع بين القولين فقال: كان الإسراء بجسده في اليقظة إلى بيت المقدس فكانت رؤية عين، ثم أسري بروحه الشريف ﷺ منه إلى ما فوقه فكانت رؤيا قلب، ولذا شنع الكفار عليه ﷺ قوله: «أتيت بيت المقدس في ليلتي هذه»، ولم يشنعوا عليه قوله فيما سوى ذلك ولم يتعجبوا منه، لأن الرؤيا ليست محل التعجب، وليس معنى الإسراء بالروح الذهاب يقظة كالانسلاخ الذي ذهب إليه الصوفية والحكماء، فإنه وإن كان خارقاً للعادة ومحلًا للتعجب أيضاً، إلا أنه أمر لا تعرفه العرب ولم يذهب إليه أحد من السلف، والأكثر على أن المعراج كالإسراء بالروح والبدن ولا استحالة في ذلك، فقد ثبت بالهندسة أن مساحة قطر جرم الأرض ألفان وخمسمائة وخمسة وأربعون فرسخاً ونصف فرسخ، وأن مساحة قطر كرة الشمس خمسة أمثال ونصف مثل لقطر جرم الأرض، وذلك أربعة عشر ألف فرسخ، وأن طرف قطرها المتأخر يصل موضع طرفه المتقدم في ثلثي دقيقة، فتقطع الشمس بحركة الفلك الأعظم أربعة عشر ألف فرسخ في ثلثي دقيقة من ساعة مستوية...<sup>(1)</sup>.

### مسألة البسملة هل آية من أول سورة

قال المازري في شرح البرهان: قال مكّي بن أبي طالب: قد أجمع أهل العدد من أهل الكوفة والبصرة والمدينة والشام على ترك عد البسملة آية في أول كل سورة وإنما اختلفوا في عدّها وتركها في سورة الحمد لا غير فعدّها آية الكوفي والمكّي ولم يعدّها آية البصري ولا الشامي ولا المدني.

(1) روح المعاني، الألويسي، 15/7.

## مسألة تولية القضاء

قال المازري: يجب على من هو أهل الاجتهاد والعدالة السعي في طلب القضاء إن علم أنه إن لم يله ضاعت الحقوق أو وليه من لا يحل أن يولى. وكذلك إن كان وليه من لا تحل توليته ولا سبيل لعزله إلا بطلب أهله.

وقال ابن مرزوق: لم أقف على هذا لأحد من قدماء أهل المذهب غير المازري. وقال عياض في كتاب الإمارة، أي: من "شرح صحيح مسلم"، ما ظاهره الاتفاق على جواز الطلب في هذه الحالة، وظاهر كلام ابن رشد في "المقدمات" حرمة الطلب مطلقاً. قال ابن مرزوق: وإنما رأيت مثل ما نقل المازري أو قريباً منه للغزالي في "الوجيز"<sup>(1)</sup>.

## الالتزام بالمذهب المالكي في القضاء

قال المازري: وإن كان الإمام مقلدا وكان متبعا لمذهب مالك أو اضطر إلى ولاية قاض مقلد لم يحرم على الإمام أن يأمره أن يقضي بين الناس بمذهب مالك، ويأمره أن لا يتعدى في قضائه مذهب مالك لما يراه من المصلحة في أن يقضي بين الناس بما عليه أهل الإقليم والبلد الذي فيه هذا القاضي، وقد ولى سحنون رجلا سمع بعض كلام أهل العراق، وأمره أن لا يتعدى الحكم بمذهب أهل المدينة<sup>(2)</sup>.

## مسألة نكاح المتعة

قال المازري: ثبت أن نكاح المتعة كان جائزاً في أول الإسلام، ثم ثبت بالأحاديث الصحيحة المذكورة هنا أنه نسخ، وانعقد الإجماع على تحريمه، ولم يخالف فيه إلا طائفة من المبتدعة. يعني الرافضة. وتعلقوا

(1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 42/1

(2) مجلة البحوث الإسلامية، 208/28

بالأحاديث الواردة في ذلك، وهي منسوخة فلا دلالة لهم فيها. وتعلقوا بقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾<sup>(1)</sup> وفي قراءة ابن مسعود: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل» وقراءة ابن مسعود هذه شاذة لا يحتج بها قرآنا ولا خبرا، ولا يلزم العمل بها.

قال المازري: واختلفت الرواية في صحيح مسلم في النهي عن المتعة ففيه «أن رسول الله ﷺ نهى عنها يوم خيبر»، وفيه: «أنه نهى عنها يوم فتح مكة».

فإن تعلق بهذا من أجاز نكاح المتعة، وزعم أن الأحاديث تعارضت، وأن هذا الاختلاف قادح فيها، قلنا: هذا الزعم خطأ وليس هذا تناقضا، لأنه يصح أن ينهى عنه في زمن ثم ينهى عنه في زمن آخر توكيدا أو ليشتهر النهي ويسمعه من لم يكن سمعه أولا، فسمع بعض الرواة النهي في زمن، وسمعه آخرون في زمن آخر، فنقل كل منهم ما سمعه وأضافه إلى زمان سماعه<sup>(2)</sup>.

#### مسألة خلافة بين العلماء

اختلف العلماء في الأمة إذا بيعت وهي مزوجة مسلما هل يفسخ النكاح وتحل لمشتريها أم لا؟

فقال ابن عباس: يفسخ لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾<sup>(3)</sup>، وقال سائر العلماء: لا يفسخ وخصوا الآية بالمملوكة بالسبي.

قال المازري: هذا الخلاف مبني على أن العموم إذا خرج على سبب هل يقصر على سببه أم لا؟

(1) سورة النساء/24.

(2) شرح النووي على مسلم، 76/5

(3) سورة النساء/24.

فمن قال: لا يقصر بل يحمل على عمومه قال: يفسخ نكاح المملوكة بالشراء. لكن ثبت في حديث شراء عائشة (بريرة) «أن النبي ﷺ خير بريرة في زوجها» فدل على أنه لا يفسخ بالشراء لكن هذا تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد وفي جوازه خلاف.

### مسائل لغوية

وقال المازري في "شرح البرهان": «وأما قولهم: لا تأكل السمك وتشرب اللبن»، فإن المراد النهي عن تناول السمك وتناول اللبن فيكون الإعراب مختلفاً فإذا قال: وتشرب اللبن بفتح الباء كان نهياً عن الجمع ويكون الانتصاب بمعنى تقدير حرف (أن)، وهو يرمي إلى أن هذا المحمل يحتاج إلى قرينة.

### مسألة اللغة هل هي توقيفية أم اصطلاح؟

قال المازري: فاختلفوا فذهب بعضهم إلى التجويز كمذهب قائل الاصطلاح، وأشار أبو القاسم عبد الجليل الصّابوني إلى المنع وجوّز كون التوقيف وارداً على أنه وجب ألا يقع النطق إلا بهذه الألفاظ.

قال ابن السبكي: والحقّ عندي - وإليه يشير كلام المازري - أنه لا تعلّق لهذا بالأصل السابق، فإنّ التوقيف لو تمّ ليس فيه حجرٌ علينا حتى لا يُنطق بسواه فإن فرض حجرٌ فهو أمرٌ خارجي والفرع حكمه حكم الأشياء قبل ورود الشرائع، فإننا لا نعلم في الشرع ما يدلُّ عليه وما ذكره الصابوني من الاحتمال مدفوعٌ.

قال المازري: إنّ الفقهاء المحقّقين لا يحرمون الشيء بمجرد احتمال ورود الشرع بتحريمه، وإنما يحرمونه عند انتهاض دليل تحريمه.

وقال: وإن استند في التحريم إلى الاحتياط فهو نظراً في المسألة من جهة أخرى، وهذا كلّه فيما لا يؤدّي قلبه إلى فساد النظام وتغييره إلى اختلاط الأحكام فإن أدّى إلى ذلك، قال المازري: فلا نختلف في تحريم قلبه لا لأجل نفسه بل لأجل ما يؤدّي إليه.

قال في شرح المنهاج: إن بناء المسألة على هذا الأصل غير صحيح، فإن هذا الأصل في أن هذه اللغات الواقعة بين أظهرنا هل هي بالاصطلاح أو التوقيف لا في شخص خاص اصطلاح مع صاحبه على إطلاق لفظ الثوب على الفرس مثلاً.

### مسألة في علم الحديث

لما كانت موطأ مالك مشتملاً على كثير من الأحاديث مرسلة، مما جعل بعض المنتقنين من المذهب المالكي يشنعون، ولهم مواقف من الحديث المرسل، كان حرياً بالإمام المازري أن يعرض للحديث المرسل بالبيان.

قال الإمام المازري في شرح البرهان: أما المرسل فهو رواية التلميذ عن شيخ شيخه كقول سحنون "قال مالك"، "وقول مالك: قال ابن عمر"، ومعلوم أن سحنون لم يلق مالكا، ولا مالك لقي ابن عمر رضي الله عنه وهكذا إذا قال مالك: عن نافع عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك قول مالك في الموطأ: إن ابن شهاب قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: آمين» وذكر أمثلة أخرى غير هذه.

وقال الإمام أبو الحسن الأبياري في شرح البرهان: حاصل المرسل وإن تعددت صورته أن يكون في طريق الخبر راو ملتبس العين، إما بأن لا يذكر أو أن يذكر على الإبهام، وكذلك قال أبو الحسن البصري أحد رؤوس المعتزلة في كتابه المعتمد: المرسل أن يسمع الرجل الحديث من زيد عن عمرو فإذا رواه قال قال عمرو وأضرب عن ذكر زيد فلم يذكره.

وقال الإمام أبو العباس القرطبي - أحد المتأخرين من أئمة المالكية - في كتابه الوصول: المرسل عند الأصوليين والفقهاء عبارة عن الخبر الذي يكون في سنده انقطاع بأن يحدث واحد منهم عن من لم يلقه ولا أخذ عنه، وخص كثير من المحدثين اسم المرسل بما سكت فيه عن الصحابي واسم المنقطع بما سكت فيه عن غيره.

وقال ابن عبد البر: أما المرسل فإنّ هذا الاسم أوقعوه بإجماع على حديث التابعي الكبير عن النبي ﷺ مثل أن يقول أبو أمامة بن سهل بن حنيف، أو عبيد الله بن عدي بن الخيار، أو عبد الله بن عامر بن ربيعة، أو من كان مثلهم: قال رسول الله ﷺ، وكذلك من كان دون هؤلاء مثل سعيد ابن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، والقاسم بن محمد، ومن كان مثلهم، وكذلك علقمة، ومسروق، والحسن، والشعبي، وسعيد بن جبير، ومن كان مثلهم من التابعين الذين يصح لهم لقاء الجماعة من الصحابة ومجالستهم فهذا هو المرسل عند أهل العلم.

ومثله أيضا مما يجري مجراه عند بعض أهل العلم مرسل من دون هؤلاء مثل حديث ابن شهاب، وقتادة، وأبي حازم، ويحيى بن سعيد عن النبي ﷺ، فَقَوْمٌ من أهل الحديث يسمونه مرسلا كمرسل كبار التابعين، وقال آخرون: حديث هؤلاء عن النبي ﷺ يسمى منقطعاً، لأنهم لم يلقوا من الصحابة إلا الواحد والاثنين وأكثر روايتهم عن التابعين، فما ذكروه عن النبي ﷺ يسمى منقطعاً.

قال: والمنقطع عندي كل ما لا يتصل سواء كان معزواً إلى النبي ﷺ أو إلى غيره ثم مثل ذلك بمثل مالك عن يحيى بن سعيد عن عائشة، وعن ابن شهاب عن أبي هريرة، وعن زيد بن أسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمثال ذلك<sup>(1)</sup>.

### موقفه من كتاب الإحياء

وللإمام محمد بن علي المازري الصقلي كلام على الإحياء يدل على إمامته يقول: وقد تكررت مكاتبتكم في استعلام مذهبنا في الكتاب المترجم

---

(1) جامع التحصيل، 26/1

بإحياء علوم الدين، وذكرتم أن آراء الناس فيه قد اختلفت، فطائفة انتصرت  
وتعصبت لإشهاره، وطائفة حذرت منه ونفرت، وطائفة لكتبه أحرقت.

وكاتبني أهل المشرق أيضا يسألوني ولم يتقدم لي قراءة هذا الكتاب  
سوى نبذ منه، فإن نفس الله في العمر مددت فيه الأنفاس وأزلت عن  
القلوب الالتباس.

اعلموا أنني رأيت تلامذته فكل منهم حكى لي نوعا من حاله ما قام  
مقام العيان، فأنا أقتصر على ذكر حاله وحال كتابه وذكر جمل من مذاهب  
الموحدين والمتصوفة وأصحاب الإشارات والفلاسفة، فإن كتابه متردد بين  
هذه الطرائق.

وأثنى المازري على أبي حامد في الفقه وقال: هو بالفقه أعرف منه  
بأصوله وأما علم الكلام الذي هو أصول الدين فإنه صنف فيه وليس  
بالمتبحر فيها ولقد فطنت لعدم استبحاره فيها، وذلك أنه قرأ علوم الفلسفة  
قبل استبحاره في فن الأصول، فأكسبته الفلسفة جرأة على المعاني وتسهلا  
للهجوم على الحقائق، لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها لا يزعها شرع،  
وعرفني صاحب له أنه كان له عكوف على رسائل إخوان الصفا وهي  
إحدى وخمسون رسالة ألفها من قد خاض في علم الشرع والنقل وفي  
الحكمة فمزج بين العلمين، وقد كان رجل يعرف بابن سينا ملاً الدنيا تصانيف  
أدته قوته في الفلسفة إلى أن حاول رد أصول العقائد إلى علم الفلسفة وتلطف  
جهده حتى تم له ما لم يتم لغيره، وقد رأيت جملا من دواوينه، ووجدت أبا  
حامد يعول عليه في أكثر ما يشير إليه من علوم الفلسفة.

وأما مذاهب الصوفية فلا أدري على من عول فيها، لكنني رأيت فيما  
علق بعض أصحابه أنه ذكر كتب ابن سينا وما فيها، وذكر بعد ذلك كتب أبي  
حيان التوحيدي، وعندني أنه عليه عول في مذهب التصوف وأخبرت أن أبا  
حيان ألف ديوانا عظيما في هذا الفن، وفي الإحياء من الواهيات كثير.

قال: وعادة المتورعين أن لا يقولوا: قال مالك وقال الشافعي فيما لم يثبت عندهم. ثم قال: ويستحسن أشياء مبنها على مالا حقيقة له كقص الأظفار أن يبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على باقي الأصابع لأنها المسبحة ثم قص ما يليها من الوسطى لأنها ناحية اليمين ويختم بإبهام اليمنى وروى في ذلك أثرا، قلت: هو أثر موضوع.

ثم قال: وقال: من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن البارئ قديم مات مسلما إجماعا قال: فمن تساهل في حكاية الإجماع في مثل هذا الذي الأقرب أن يكون الإجماع في خلافه فحقيق أن لا يوثق بما روى، ورأيت له في الجزء الأول يقول: إن في علومه ما لا يسوغ أن يودع في كتاب، فليت شعري أحق هو أو باطل؟! فإن كان باطلاً فصدّق، وإن كان حقاً وهو مراده بلا شك فلم لا يودع في الكتب؟ أَلْغُمُوضَتِهِ وَدِقَّتِهِ؟ فإن كان هو فهمه، فما المانع أن يفهمه غيره؟!..(1).

### تعقيب

ولم يكن للمازري من الاعتناء بكتب الصوفية وأخبارهم ومذاهبهم ما له من الاعتناء بطريقة الكلام وما يتبعه من الفلسفة ونحوها، فلذلك لم يعرف ذلك ولم تكن مادة أبي حامد من كلام أبي حيان التوحيدي وحده، بل ولا غالب كلامه منه، فإن أبا حيان تغلب عليه الخطابة والفصاحة، وهو مركب من فنون أدبية وفلسفية وكلامية وغير ذلك، وإن كان قد شهد عليه بالزندقة غير واحد وقرنوه بابن الراوندي كما ذكر ذلك ابن عقيل وغيره، وإنما كان غالب استمداد أبي حامد من كتاب أبي طالب المكي الذي سماه قوت القلوب ومن كتب الحارث المحاسبي وغيرها، ومن رسالة القشيري، ومن منشورات وصلت إليه من كلام المشايخ.

---

(1) سير أعلام النبلاء، 341/19



وما نقله في الإحياء عن الأئمة في ذم الكلام فإنه من كتاب أبي عمر ابن عبد البر في فضل العلم وأهله وما نقله من الأدعية والأذكار ونقله من كتاب الذكر لابن خزيمة، ولهذا كانت أحاديث هذا الباب جيدة وقد جالس من اتفق له من مشايخ الطرق لكنه يأخذ من كلام الصوفية في الغالب ما يتعلق بالأعمال والأخلاق والزهد والرياضة والعبادة وهي التي يسميها علوم المعاملة...

قال الذهبي: وللمازري تأليف في الرد على "الإحياء" وتبيين ما فيه من الواهي والتفلسف . أنصف فيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نقله الذهبي في السير، وهو كتاب "الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء" للمازري<sup>(1)</sup>.

أوله: الحمد لله الذي أنار الحق وأداله، وأبار الباطل وأزاله.

ثم أورد المازري أشياء مما نقده على أبي حامد، يقول: ولقد أعجب من قوم مالكية يرون مالكا الإمام يهرب من التحديد، ويجانب أن يرسم رسما، وإن كان فيه أثر ما، أو قياس ما، تورعا وتحفظا من الفتوى فيما يحمل الناس عليه، ثم يستحسنون من رجل فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له، وفيه كثير من الآثار عن النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفق فيه الثابت بغير الثابت، وكذا ما أورد عن السلف لا يمكن ثبوته كله، وأورد من نزغات الأولياء ونفثات الأصفياء ما يجعل موقعه، لكن مزج فيه النافع بالضار، كإطلاقات يحكيها عن بعضهم لا يجوز إطلاقها لشناعتها، وإن أخذت معانيها على ظواهرها، كانت كالرموز إلى قدح الملحدين، ولا تنصرف معانيها إلى الحق إلا بتعسف على اللفظ مما لا يتكلف العلماء مثله إلا في كلام صاحب الشرع الذي اضطرت المعجزات الدالة على صدقه المانعة من جهله وكذبه إلى طلب التأويل<sup>(2)</sup>.

---

(1) سير أعلام النبلاء، 340/19

(2) سير أعلام النبلاء، 330/19

ونقل الذهبي شيئاً من كلام الإمام المازري في نقده كتاب "الإحياء" للغزالي، فقال المازري: قال أبو الفرج ابن الجوزي: صنف أبو حامد "الإحياء" وملاه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها، وتكلم على الكشف، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والقمر والشمس اللواتي رآهن إبراهيم (أنوار هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات، وهذا من جنس كلام الباطنية).

وقد رد ابن الجوزي على أبي حامد في كتاب "الإحياء" وبين خطأه في مجلدات، سماه كتاب "الأحياء". وقال - أي المازري - أيضاً: وفي "الإحياء" من الواهيات كثير.

وقال (أي: المازري) عن الغزالي: «إنه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في فن أصول الدين، فأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعاني، وتسهيلاً للهجوم على الحقائق»، ثم إن له عكوفاً على رسائل إخوان الصفا، وإنه يعول على كتب ابن سينا<sup>(1)</sup>.

### رأيه في إمامة المرأة

قال الإمام المازري رحمته الله: «...وحكى بعض أصحابنا عن الطبري وداود وأبي ثور جواز إمامتها رجالاً ونساءً، ورأيت في نقل غيرهم عن أبي ثور والمزني والطبري أنهم أجازوا أن تؤم الرجال في التراويح إذا لم يكن قارئ غيرها، وتقف خلف الرجال»<sup>(2)</sup>.

وقال المواق المالكي: «قال المازري: لا تصح إمامة المرأة عندنا وليعد صلاته من صلى وراءها وإن خرج الوقت»<sup>(3)</sup>. وهو ما قاله ابن أبي

(1) المازري، الفقيه والمتكلم وكتابه المعلم، لمحمد الشاذلي النيفر، ص: 67

(2) شرح التلقين 670/2

(3) التاج والإكليل 412/2

زيد القيرواني في رسالته المشهورة: «ولا تؤم المرأة في فريضة ولا نافلة لا رجالا ولا نساء»<sup>(1)</sup>.

ومميزات هذا المنهج إذا تتبعناها نراها كثيرة، وإنما نجتزئ ونكتفي بأن المازري بنى منهجه على فقه الموطأ المؤسس على الدعائم الصحيحة من الحديث والآثار، وغير ذلك مما وقف عليه مالك بن أنس رضي الله عنه وبنى عليه مذهبه المدعم بما عليه الجماعة بالمدينة المنورة، لأنها هي التي يجب أن يرد إليها الأمر، فإذا اجتمع أهلها على شيء واتبعهم الناس في ذلك صلح الأمر وإلا تبدوا شذراً مذبذباً.

فمنهجه المدعم أنه (أي: المازري) قرّر أصوله ووضحها وحلّلها التحليل الذي يشفي غلة الباحث، فلم يكن مجرد ناقل للفروع الفقهية، وإنما كان شارحاً لأصول هذا المذهب، ومبرزاً للجوانب التي تعطي قيمة له.

قَالَ الْإِمَامُ الْمَازِرِيُّ فِي كِتَابِ "الْمُعَلِّمِ": «مَنْ كَفَرَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَإِنْ كَانَ مُسْتَبِيحًا ذَلِكَ فَقَدْ كَفَرَ وَإِلَّا فَهُوَ فَاسِقٌ. وَيَجِبُ عَلَى الْحَاكِمِ إِذَا رُفِعَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّبَهُ وَيُعَزِّرَهُ بِمَا يَكُونُ رَادِعًا لِأَمْتَالِهِ فَإِنْ تَرَكَ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فَهُوَ آثِمٌ».

### وخلاصة القول

إنّ هذه الشريعة مع كونها نظاماً منسجماً تاماً، وتنزيلاً كاملاً في معناه، شاملاً في مضمونه، عظيماً في صداه، مبرراً من كل نقص، هذه الشريعة تفتح بنفسها لنفسها طريق النمو في الزمان لا بالنسبة إلى الأصول الجوهرية قطعاً، بل بالنسبة إلى الفروع، وهنا يدخل الفقه الذي يرى المازري فيه أنه ينطوي على سمة مميزة وهي القدرة على مسابرة مختلف الأوضاع والأزمان، أي أنه قابل للتطور تبعاً لمظاهر الحياة المختلفة.

(1) الفواكه الدواني، 205/1

وهذا هو الذي جعل المازري يجيب حين سئل هل يجوز جلب القمح من روما؟

فأجاب على الفور: لا يجوز فليل له: إنه قوت الناس، فقال: يَتَكَلَّمُونَ، فإذ جاعوا زرعوا أعالي الجبال.

وأنتم ترون اليوم أن الدولة القوية هي التي أمنت غذاءها ولا تحتاج إلى غيرها، وبذلك تكون سيدة قرارها. أين لفقهاؤنا بهذا البعد في النظر؟!.

وأخيراً فإن الأمر المحاك ضد المذهب المالكي له أبعاد خطيرة، تتعلق بوحدة المغرب العربي عموماً ووحدة الشعب الجزائري خصوصاً، لذا يجب أن ننتبه لما يحاك ضدنا، ونكون وفق مستوى الأمانة التي تحملناها، فالله نسأل أن يحفظ لنا ديننا، ويوقفنا للذب عنه، وعلى خدمة مذهبنا المالكي الذي هو جامع وحدتنا، وأذكر أنني جالست كثيراً من علماء وأساتذة المشرق ودار بيننا حديث، فكانوا دائماً يصفون المغرب العربي بوحدة المذهب المالكي، فما علينا إلا أن نحسن بيانه للناس بالعلم والعدل. فَهَمَّا الْجِدَارُ الْوَاقِي مِنْ كُلِّ اخْتِرَاقٍ يَنْغِي تحريف هذا الدين الهادي من أتبعه سبل السلام دنياً وأخرى.

فيا ليت لمثل هذا الظرف الصعب والموقف الحرج مثل المازري دراية وفقها وبعد نظر والسلام عليكم، ولكم مني خالص الشكر إذ أتحتم لي الفرصة للحديث إليكم.



# مع موسوعة القاضي عياض "إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم"

الدكتور محمود مغراوي

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر

القاضي عياض إمام من الأئمة الموسوعيين في طرحه العلمي والذي شدني على وجه الخصوص عمله المتنوع في كتابه "إكمال المعلم" بحيث أودعه سائر ما لديه من علم وتحقيق في كل فروع المعرفة السائدة في زمانه، وبما أن علم الفقه هو العمود الفقري حينذاك حظيت مباحثه في الكتاب المذكور بجهد خاص من قبل القاضي عياض.

والهدف من اختيار هذا الموضوع موسوعة القاضي عياض "إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم"، هو الإسهام بإحياء التراث الفقهي المستند إلى دليل وخاصة الدليل من السنة النبوية في مذهب الإمام مالك وطرحه في صورة مقبولة تستجيب لمستجدات الواقع، وسد الفراغ الذي أثر سلبا على التوجه الفقهي الذي انقطع عن ذكر الدليل، ومن ثم استثارة الهمم، ودعوة المتهمين بالفقه إلى هذا النوع من الدراسات والمساهمة في بعث التراث في كل المجالات العلمية.

وفي هذه العجالة التي بين أيديكم إشارة وتذليل للدارس على كنوز علمية متخصصة ومتنوعة احتوى عليها الكتاب وخاصة علم الفقه، والمسائل الفرعية من أدلتها الحديثية، تلبية للملتقى المعقود بشأن الفقه المالكي وخصوصياته، وكلمتي المختصرة تأتي إرشادا وحثا للقارئ ليغوص بنفسه في ثنايا الكتاب ويلتقط الدرر، ولا أحسبني أني وفيت أو قاربت في هذه العجالة، وحسبي أني نصحت من كان يحب الناصحين والله الموفق لكل خير.

## ترجمة القاضي عياض: (476هـ . 544هـ)

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو الحافظ، الفقيه الأصولي المفسر، اليحصبي السبتي المالكي، والقاضي الإمام المجتهد المحدث، أحد أعلام الأمة الذين استفاضت شهرتهم، المؤرخ اللغوي، الأديب، الشاعر، المصنف، المجيد، الخطيب الفصيح، العالم العامل، الزاهد الفاضل، الورع المجاهد، علامة المغرب، وأحد آحاد الزمان.

تخصص في عدة فنون، وتخصصه الأول: الحديث وعلومه، تصديه لشرح "مسلم" دليل على ذلك، شيوخه الذين درس عليهم وتخرج بهم العدد الوافر من المصنفات الحديثية التي ذكرها في فهرسته.

قال ابن بشكوال<sup>(1)</sup>: «عني بقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وجمع الحديث كثيرا، وله عناية كبيرة به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنن العلم والذكاء واليقظة».

اعتنى العلماء بترجمته، وأفردوا ذلك بالتصنيف منهم:

- 1 - ولده محمد - في كتابه الذي نشر باسم "التعريف بالقاضي عياض" كتاب مختصر اشتمل على تفاصيل دقيقة من حياة والده، وهو الأساس الذي بنى عليه من جاء بعده.
- 2 - المقري التلمساني (ت1041هـ) في كتابه "أزهار الرياض في أخبار عياض" ويقع في 5 مجلدات ضمنه صاحبه مختلف جوانب حياة القاضي عياض مع التعرّيج على مختلف العلوم التي كانت سائدة آنذاك في بلاد المغرب والأندلس.
- 3 - دورة القاضي عياض، طبعت في 3 مجلدات ضمت عدة أبحاث ومقالات تخص سيرة القاضي وآثاره وتراثه، وذلك خلال ندوة نظمتها وزارة الأوقاف المغربية في سنة 1401هـ.

(1) الصلة (429/2).

## موطنه

سبته - كان بها - ألف مسجد، و47 رباطا، و174 سوقا، و62 خزانة علمية، و360 فندقا على ما ورد ذكره في كتاب "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار"<sup>(1)</sup>.

كانت ملتقى أهل العلم من مختلف البلدان وخصت بالتأليف في القديم والحديث من ذلك:

- 1 - "الفنون الستة في أخبار سبته" للقاضي عياض.
- 2 - "الكوكب الوقاد فيمن حل سبته من العلماء والصلحاء والعباد" لمحمد بن أبي بكر الحضرمي (ت787هـ).
- 3 - "بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب" لمؤلف مجهول، بطع بإشراف عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1404هـ.

## من المعاصرين

- 1 - "الحركة العلمية في سبته خلال القرن السابع" لإسماعيل الخطيب.
- 2 - "سبته ودورها في إثراء الفكر الإسلامي" عبارة عن مجموعة محاضرات في مهرجان. مطبوع.
- 3 - مقال: "معالم سبته" في مجلة المناهل. عدد 22.

قام بشرح "المدونة" وتدريسها لما بلغ الثانية والثلاثين من عمره مع توافر شيوخه، وقُدِّ مهام القضاء ببلده سنة (515هـ) مداوما على إسماع الحديث وتدريس الفقه في مسجده لا ينقطع حتى في أيام الفتن والحروب.

---

(1) ص 27 وما بعدها.

ولما تولى القضاء بقرنطة سنة (531هـ) كان له مع ذلك مجلس يسمع فيه الحديث، وقرأ عليه كتابه "الشفاء" مجلس يحضره الكبراء والأعيان.

### مؤلفاته

مهمة ونافعة تناقلها أهل العلم شرقا وغربا، وأثنوا عليها وامتازت عندهم بالجودة والإبداع.

قال ابنه: «كان مليح القلم من أكتب أهل زمانه».

قال الذهبي: «... وجمع وألف وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق... وتوالت فيه نفيسة»<sup>(1)</sup>.

وهي قرابة 30 مصنفا خصص لها المقري فصلا في كتابه "أزهار الرياض" سماه: "روضة النسر في تأليفه العديمة النظير والقرين"<sup>(2)</sup>.

مصنفاته في الحديث وعلومه:

- شرح الحديث: صنف فيه كتابين:

1 - "إكمال المعلم بفوائد مسلم".

2 - "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد". شرح فيه حديث أم زرع الطويل، وأورد روايات الحديث بأسانيد منبها على اختلاف ألفاظ الرواة وشرح الغريب، وبنى الأحكام الفقهية، ونبه على ما في الحديث من فنون البلاغة، وهو أفضل شرح على الإطلاق بشهادة الحافظ ابن حجر<sup>(3)</sup>: «... ثم القاضي عياض وهو أجمعها وأوسعها وأخذ منه أغلب الشراح بعده».

---

(1) السير (214/20).

(2) السير (271/20).

(3) الفتح (256/9).



## مصنفاته في الفقه

1. "أجوبة القرطبيين" مفقود.
2. "الأجوبة المحبرة عن المسألة المخيرة" لم يتمه. مفقود.
3. "الإعلام بحدوث قواعد الإسلام" كتيب صغير طبعته وزارة الأوقاف المغربية. جاء في مقدمته: «فاعلم - وفقنا الله - وإياك أن مباني الإسلام خمسة كما قال نبينا - عليه السلام -...». ثم أتى على شرح هذه القواعد، وهو كتاب مفيد سهل الأسلوب.
4. "التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة" وعلى هذا الكتاب معول المغاربة في حل مشكلات المدونة، وضبط ألفاظها مع الاهتمام بما فيها من الأحاديث والآثار والرجال بالإضافة إلى الجوانب الفقهية. جاء في مقدمته: «...فإن أصحابنا من المتفهمة - أسعدني الله وإياكم بتقواه - رغبوا في الاعتناء بمجموع يشتمل على شرح كلمات مشكلة، وألفاظ مغلقة مما اشتملت عليه كتب المدونة والمختلطة، واختلفت الروايات في بعضها ومنها ما ارتج على أهل درسها وحفظها، وربما اختلف المعنى لذلك الاختلاف... وحروف مشكلة على من لم يعتن بعلم العربية والغريب، وأسماء رجال مهملة لا يقيم تقييدها إلا كل من تهتم بعلم الرجال والحديث...».
5. "مسألة الأهل المشترط بينهم التزوار" مفقود.
6. "نظم البرهان على صحة جزم الأذان" مفقود. وقد يكون "الإعلام" السابق الذكر.

## موضوعه

هو شرح الجامع الصحيح للإمام مسلم ومن خلال تكميل كتابين مهمين كل منهما قد سبق كتابه في بيان مباحث مهمة تتعلق بصحيح مسلم وهما:

1. "المعلم بفوائد مسلم" للمازري.
2. "تقييد المهمل وتمييز المشكل".

- أدخل في كتابه جميع ما في "المعلم" عدا تراجم الأبواب، معترفا لهما بفضل السبق، ومثنيا على ما تضمنه الكتابان من الفوائد غير أن نص على ما فيهما من قصور بحيث تكميله، واعتذر لهما في ذلك، وجاء هذا التكميل كالآتي:

أ. شرح مقدمة صحيح مسلم شرحا وافيا حيث توسع في بيان ما فيها من مسائل مصطلح الحديث بما لم يسبق إليه، وهذا ما لم يشرحه المازري.

ب. شرح ما لم يتعرض إليه المازري من متون الأحاديث، وهو كثير جدا، وذلك ببيان المعاني، وضبط الألفاظ، واستنباط الأحكام الفقهية والفوائد المختلفة، وبيان الغامض وتقييد المهمل، والتنبيه على اختلاف الألفاظ الرواة ومحو ذلك.

ج. إكمال الكلام على بعض الرجال والأسانيد والعلل غير القادحة الواقعة في بعضها مما أغفله الجياني باختصار.  
شهرة هذا الكتاب.

لقد اشتهر كتاب "إكمال المعلم" في آفاق العالم الإسلامي شرقا وغربا، ويتبين ذلك بأمر منها:

1. شيوع روايته بالأسانيد، واهتمام العلماء بتدريسه.
2. انتشار نسخه الخطية في مختلف البلاد.
3. عناية العلماء - وبخاصة المغاربة - بالتأليف عليه، فكان وجوده سببا في ظهور جملة كبيرة مباركة من شروح صحيح مسلم.
4. كثرة نقول شراح صحيح مسلم وغيرهم من المصنفين عنه واستفادتهم منه في المشرق والمغرب وسيأتي بيان طريقته في الشرح بتوسع - إن شاء الله تعالى -

منهج القاضي عياض في كتابه "إكمال المعلم بفوائد مسلم".

### الجانب المنهجي المتعلق بصناعة التأليف

لقد أثنت المصادر<sup>(1)</sup> التي ترجمت لعياض على مصنفاته، ووصفته بإجادة التصنيف والإبداع فيه، ووصفت مؤلفاته بالنفاسة، وقد لمست ذلك في كتاب "إكمال المعلم" من خلال أمور كثيرة تدل على حسن التأليف وإتقان فن التصنيف، وعلى تمكنه من نواحي اللغة والأدب واستطاعته التعبير عما يجول بخاطره بصراحة ووضوح ودقة ومتانة، مع الفصاحة وقوة الأسلوب وسلامة التعبير، ومن ذلك ما يلي:

#### 1. الحرص على الإخلاص وتحري الصواب.

الإخلاص والصواب هما شرطا قبول الأعمال، وقبول الله للعمل هو مطمح كل عامل يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن إحسان التأليف أن يستحضر صاحبه التقرب به إلى الله - تعالى - فيخلص فيه ويحرص على إتقانه، وقد وجدت ذلك متحققا لدى القاضي رحمته الله، فإنه قال في مفتتح كتابه: «الحمد لله المستفتح بحمده كل أمر ذي بال، والصلاة والسلام على محمد المصطفى نبيه، وعلى آله خير آل، والضراعة إليه - جل اسمه - في توفيقني وتسديدي لما أدبره وأحبره من مقال، وأن يخلصه عن التصنع لغير وجهه ذي الجلال».

وقال - في ثنانيا خطبته: «وتحرّيت فيه جهدي الصواب بفضل الله المنعم، وأودعته من الغرائب والعجائب ما يعرف قدره كل معتن بها متهم، ومن الحقائق والدقائق ما تنير كل مبهم، وتسير مع كل منجد ومتهم».

وقال - في آخر فقرة من الكتاب -: «وإلى الله أضرع أن يجعل ما كتبنا من ذلك لوجهه ورضاه وينفعنا به...»<sup>(2)</sup>.

(1) السير (214/20 - 216)، أزهار الرياض (271/4).

(2) أكمال المعلم (71/1 و 73).

2. تصدير الكتاب بخطبة تبين فيها سبب تأليف الكتاب ومنهجه فيه
3. ذكر أسانيده إلى المصنفات التي كثر اعتماده عليها واستفادته منها، مثل صحيح الإمام مسلم<sup>(1)</sup>، المعلم للمازري<sup>(2)</sup>، تقييد المهمل للجواني<sup>(3)</sup>، التتبع والاستدراكات للدارقطني<sup>(4)</sup>، كتاب الغريبين لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت401هـ)، سنن أبي داود، مستدرک الحاكم.
4. وضع يد القارئ على المواضع المختلفة الأطراف للمبحث الواحد وذلك عن طريق الإحالات المتعددة التي اشتمل عليها الكتاب، بحيث يشير إلى طرف المسألة باختصار، ثم يحيل على مواضع البسط فيما تقدم أو فيما يأتي من الكتاب، ومن أمثلة ذلك قوله عند شرح حديث: «كان النبي ﷺ يقبل وهو صائم».
- اختلف العلماء في إباحة القبلة للصائم فأباحها قوم على الإطلاق وكرهها آخرون... وقوله في الرواية الأخرى: «يقبلها» فيه جواز الإخبار عما يكون من مثل هذا من الرجل وعياله على الجملة دون التفسير فإن ذلك منهي عنه، ولفائدة تحمل على ذكره، وسيأتي الكلام على المسألتين في الطهارة والصيام<sup>(5)</sup>.
5. إرشاد القارئ إلى مواضع بسط بعض المباحث المهمة في مصنفاته الأخرى غير "إكمال المعلم"، وقد أحال على جملة من كتبه وهي:
- أ. كتاب "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ"، وهو الأكثر استعمالاً في هذا الباب، وخاصة فيما يتعلق بمباحث العصمة وعلامات النبوة ونحو ذلك<sup>(6)</sup>.

(1) انظر مقدمة الإكمال (75/1) وما بعدها.

(2) الإكمال (75/2) و (42/4).

(3) ما سبق (80/1).

(4) ما سبق (166/2).

(5) ما سبق (221/2).

(6) ما سبق (127/3).

ب . كتاب "الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" وهو يحيل عليه في مسائل علوم رواية الحديث ومصطلحه.

ج . كتاب "التنبيهات على المدونة"، وهو يحيل عليه في بعض مسائل الفقه.

د . كتاب "شرح حديث أم زرع" أحال عليه عند شرح هذا الحديث في الإكمال.

6 . كما أنا نجده يكثر من استعمال قوله: «كذا حققناه»، و «كذا أتقناه عن شيوخوا».

7 . مفاوضة شيوخوا ومباحثاتهم ومساءلة أهل المكاشفة منهم في المسائل المشكلة، وعرض ما ينتهي إليه في المسائل الخلافية عليهم، والاستنارة لآرائهم في ذلك، وهذا في كتابه كثير جدا،<sup>(1)</sup> ومن أمثله ما يلي:

. قوله فيما أشار إليه في منهج المسلم في كتابه<sup>(2)</sup>: «وقد فاوضت في تأويلي هذا ورأيي فيه من يفهم هذا الباب فما وجدت منصفاً إلا صوبه وبان له ما ذكرت، وهو ظاهر لمن تأمل الكتاب وطالع مجموع الأبواب».

. وقال في موضع آخر<sup>(3)</sup>: «وقد طالعت بهذا الرأي أهل التحقيق من شيوخي فما رأيت منهم منصفاً رده».

8 . التوقف عند الأحاديث المشكلة، والأحاديث التي ظاهرها نوع من التعارض، والأجوبة عن ذلك أجوبة دقيقة محققة<sup>(4)</sup>.

---

(1) الإكمال (122/2).

(2) ما سبق (153/3).

(3) ما سبق (175/3).

(4) ما سبق (105/4).

## أثر إكمال المعلم في غيره من المصنفات:

هناك أمور مختلفة رشحت هذا الديوان الذي حوى معلومات معرفية هامة وموسعة، ليكون مصدرا معتمدا لدى من تأخر عن القاضي في مختلف الفنون، وخاصة في مجال الشروح الحديثية، ومجال علوم الحديث.

ومن هذه الأمور التي أهلت كتاب "إكمال المعلم" لهذه المكانة:

1 - إمامة القاضي رحمته الله في العلم، ودقته، وتحريره، وتحليله بروح النقد البناء، وتمحيص أقوال العلماء السابقين وتحقيقتها، مع الأمانة العلمية، والموضوعية وعدم التعصب، وقد اعترف له بذلك أهل المغرب وأهل المشرق على حد سواء.

2 - تعلق هذا الشرح بثاني أصح كتابين بعد كتاب الله تعالى، ولا تخفى مكانة هذا الكتاب لدى المسلمين، واجتهاد العلماء في تبين ما في أحاديثه من الأحكام والفوائد، والعلوم والمعارف.

3 - أنه أول موسع ومتكامل وصل إلينا لصحيح مسلم.

4 - شموله لمختلف فنون العلم، من العقيدة والتفسير وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، والفقه، وأصوله، واللغة وغيرها.

فلا عجب أن نجد المصنفين على مختلف تخصصاتهم يقتبسون منه، ولا غرابة أن يمثل هذا الكتاب أساسا أوليا ومحورا هاما دارت حوله كتب جميع من تأخر عنه ممن كتب في شروح صحيح مسلم، بل وكثير من شروح المصنفات الأخرى أيضا.

## علم الفقه

لقد اشتمل كتاب "إكمال المعلم" على ثروة فقهية هائلة، وليس ذلك في الفقه المالكي فحسب وإنما شمل سائر المذاهب المشتهرة وغيرها من لدن عهد الصحابة إلى عصر عياض.

وهذا الكتاب يعتبر بحق مصدرا مهما في علم اختلاف الفقهاء مضافا إلى المصادر القليلة في هذا الباب، وقد أفاد القاضي من بعضها ومنه ما لا يزال مخطوطا أو مفقودا مثل كتاب اختلاف الفقهاء لأحمد بن محمد الطحاوي (ت321هـ)، وكتاب مسائل الخلاف لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي المعروف بابن القصار (ت398هـ)، وقد احتفظ لنا القاضي في شرحه بكثير من مادة هذه الكتب.

وقد امتاز مسلك القاضي في إثارة الفوائد الفقهية بتأسيس الفقه الحديث والآثار، وإيراد فقه السلف من الصحابة والتابعين، وبسط فقه أهل المذاهب الأربعة مع ذكر الخلاف بينها والخلاف داخل كل مذهب أحيانا، واختلاف الأئمة في المسألة الواحدة، وإجماعهم وتفردهم، كما اهتم بفقه أهل الرأي وفقه الأئمة الآخرين من أئمة الفتوى ومشاهير علماء الأمصار من أمثال سفيان الثوري (ت161هـ)، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت157هـ)، والليث بن سعد (ت175هـ)، ونحوهم بالإضافة إلى فقه واختيارات بعض المتأخرين عن هؤلاء من أئمة العلم، مثل الطحاوي، وابن القصار، ومحمد بن جرير الطبري (ت310هـ) واختيارات شيوخه، بل إنه أورد جملة من فقه أهل الفرق المبتدعة مثل الخوارج والشيعة والمعتزلة.

ونجده أحيانا ينبه على أسباب اختلاف الفقهاء، ويذكر علل الأحكام، ويهتم بالتعريفات الفقهية وقواعد بعض المذاهب، وينبه على الأحكام المنسوخة وما ترك العمل به.

كما عني القاضي رحمته الله بذكر اختياراته وترجيحاته بكل أدب وإنصاف وهو وإن كان من حيث الجملة يختار مذهب مالك ويستدل له، إلا أنه لا يتعصب في ذلك، ولا يرد قول المخالف إذا كان مدعما بدليل بين لا يمكن تضعيفه ولا تأويله، وقد يخالف مالكا ويعتذر له في عدم أخذه بالحديث أنه لم يبلغه، كما أنه قد يرد أقوال بعض المالكية ويحتج عليهم

بالدليل السمعي والعقلي، وسوف أذكر فيما يلي جملة من النقاط التي تبرز مختلف جوانب منهج عياض في إثارة الفوائد الفقهية مع تدعيمها بالأمثلة من الكتاب:

### أولا - فقه السلف من الصحابة والتابعين

وقد كثر اهتمام القاضي بإيراده، وهو يذكر اتفاقهم واختلافهم، وقد يعزو المذاهب إليهم عزوا إجماليا، وقد يفصل فيعزو إلى أفراد منهم، وقد يستدل بأقوالهم وأعمالهم لمسائل الفقه، ومن أمثلة ذلك:

- قوله عند الكلام على أحاديث الركعتين بعد أذان المغرب وقبل الفريضة: «وهذا مما اختلف فيه السلف، فروي عن جماعة من الصحابة والتابعين فعله، وإليه ذهب أحمد وإسحاق، وحجتهم هذه الأحاديث، وروي عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجماعة من الصحابة أنّهم كانوا لا يصلونها، وهو قول مالك والشافعي...»<sup>(1)</sup>.

- وقوله عند شرح حديث: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»: «...على هذا اتفاق جمهور من العلماء: لا يرث المسلم الكافر، أخذوا بهذا الحديث، وبه قال عمر وعلي وزيد، وابن مسعود وجمهور التابعين بالحجاز والعراق، ومن الفقهاء: مالك والشافعي وداود وابن حنبل، وعامة العلماء، وقال: بتوريث المسلم من الكافر: معاذ وابن المسيب ومسروق وغيرهم، وروي عن أبي الدرداء والشعبي والزهري والنخعي نحوه على اختلاف عنهم في ذلك، والصحيح عن هؤلاء خلافه، وحجة هؤلاء أن أخوين اختصما إلى يحيى بن يعمر، مسلما ويهوديا، في ميراث أخ لهما يهودي، فورث المسلم، وذكر أن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام يزيد ولا ينقص».

(1) الإكمال (216/3).



واحتجوا - أيضا بقوله عليه السلام : «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه»<sup>(1)</sup> وهذا لا حجة فيه لأن المراد به فضل الإسلام على غيره، ولم يصرح في هذا بإثبات التوريث، ولا يصح أن يرد النص في قوله: «لا يرث المسلم الكافر»، بمثل هذه الاحتمالات...»<sup>(1)</sup>.

- وقوله عند الكلام على مذهب الجمهور فيمن تكرر منه شرب الخمر أنه يحد ولا يقتل، وأن الحديث الوارد في ذلك قد ترك العمل به، قال<sup>(2)</sup>: «دل على نسخه إجماع الصحابة على ترك العمل به».

- وقوله<sup>(3)</sup>: «وصلاة النبي ﷺ في الثوب الواحد» مع إمكان غيره ليدل على الرخصة والسعة، وكذلك فعل الصحابة كما قال جابر: «ليراني الجهال مثلكم».

ثانيا - فقه المذاهب الأربعة وما يلحق بها

## 1 - المذهب المالكي

أ - لقد عني القاضي عناية خاصة بتقرير مذهب مالك وأصحابه في المسائل الفقهية المختلفة، والاستدلال له، وبيان ما تألوه من الحديث، والأعدار لهم فيما لم يأخذوا به، كما اهتم ببيان مشهور مذهب مالك واختلاف أقواله في المسألة الواحدة، واختلاف الرواة عنه، واختلاف أصحابه من المدنيين والعراقيين والقرويين والأندلسيين، واعتنى عياض بالتنبيه على ما نسبه العلماء خطأ إلى الإمام مالك، وبيان كل ذلك على النحو التالي:

---

(1) ما سبق (4/463).

(2) ما سبق (5/541).

(3) ما سبق (2/430).

ب - تقرير مذهب مالك والاستدلال له، ومن أمثلة لك قوله - عند الكلام على أحاديث التشهد: «واختار مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تشهد عمر بن الخطاب الذي ذكره في موطنه، وهو وإن كان غير مسند للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فملحق بمعنى المسند ويقوى قوته، ويترجح على غيره من المسانيد لتعليم عمر له للناس على المنبر كما روي، فجمع مألهم وجمهوره ولم ينكر ذلك عليه أحد ولا قالوا له عدلت عما اختاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلمه الناس إلى رأيك، وهم ممن لا يقر على خطأ، فدل سكوتهم له واستمرار عمر على تعليمه الناس أن ذلك عندهم معلوم وأن الأمر في التشهد غير مقصور على رواية غيره...»<sup>(1)</sup>.

ج - ذكر مشهور مذهب مالك، ومن أمثلة ذلك قوله عن الكلام على حديث: «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهر في صلاة الكسوف»: «اختلف العلماء في ذلك فأخذ بالجهر فيها بالنهار لهذا الحديث: جماعة من السلف، وقاله محمد ابن الحسن، وأبو يوسف، وقاله أحمد وإسحاق وفقهاء الحديث، ورواه معن، والواقدي عن مالك، ومشهور قول مالك الإسرار فيها، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة والليث بن سعد، وسائر أصحاب الرأي، وحجتهم تقديرهم القراءة بسورة البقرة وغيرها، وقوله في الحديث الآخر: «ولو جهر لعلم ما قرأ به». إلى ما في حديث حديث ابن عباس وغيره من أنه لم يسمع له قراءة...»<sup>(2)</sup>.

د - التنبية على ما اختلق فيه قول مالك، ومن أمثلته قوله<sup>(3)</sup>: «اختلف العلماء في قراءة الجنب والحائض القرآن ظاهرا بالمنع لهما، والإباحة لهما، ومنع الجنب لملكه طهره دون الحائض لأن أمرها يطول، والأقوال الثلاثة لمالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

(1) ما سبق (411/2).

(2) ما سبق (339/3).

(3) ما سبق (133/2).

هـ - التنبيه على ما نسب من الأقوال إلى مالك خطأ، من ذلك قوله عند الكلام على أحكام المخيرة: «...واختلفوا إذا اختارت زوجها فكافتهم على أنه لا يلزم فيه شيء، وهو قول جماعة السلف وأئمة الفتوى ومشهور مذهب مالك، وروي عن علي وزيد بن ثابت والحسن والليث أن نفس الخيار طلقة واحدة بائنة وإن اختارت زوجها، وحكاها الخطابي والنقاش عن مالك... ولا يصح هذا عن مالك والأحاديث الصحيحة ترده»<sup>(1)</sup>.

و - ذكر اختلاف فقهاء المالكية من أهل الأمصار، على سبيل الإجمال، من ذلك قوله عند الكلام على حكم اغتسال من غسل الميت<sup>(2)</sup>: «واختلف قول مالك في ذلك فروى المدنيون عنه سقوط الغسل، وإن اغتسل فحسن...».

وقوله - في الكلام على من ترك قضاء رمضان حتى دخل رمضان آخر: «واختلف مذهبنا بما يكون مفرطاً حتى يلزمه فالذي عليه البغداديون منهم ومعظم الشيوخ أنه ليس بمفرط إلا أن يترك ذلك عنده لآخر السنة وبقية عدد تلك الأيام من شعبان...»<sup>(3)</sup>.

وقوله - عند الكلام على حديث الخطبة يوم عرفة: وقوله: "فخطب" هي من سنن الحج للأئمة عندنا في قول جميع المدنيين والمغاربة، وقال الشافعي وأبو حنيفة: ليس عرفة بموضع خطبة، وهو قول العراقيين من أصحابنا وزعموا أن هذه الخطبة إنما هي تعليم...»<sup>(4)</sup>.

ز - ذكر اختلاف فقهاء المالكية على سبيل التفصيل، لقد اهتم القاضي رحمته الله بإيراد الأقوال المختلفة لفقهاء المالكية وتوسع في ذلك بما لم أجده في غير كتابه مما اطلعت عليه من مصادر الفقه المالكي، وقد عدت

(1) ما سبق (5/5).

(2) ما سبق (389/3).

(3) ما سبق (101/4).

(4) ما سبق (275/4).

له سبعة وستين عالما مالكيا ممن أورد آراءهم الفقهية، وقد أكثر عن بعضهم مثل: علي بن زياد التونسي (ت183هـ)، والإمام سحنون بن سعيد القيرواني (ت240هـ) وعبدالرحمن بن القاسم (ت191هـ) وعبدالله بن وهب (ت197هـ)، وأشهب بن عبدالعزيز (ت203هـ)، وعبدالملك بن حبيب الأندلسي (ت238هـ)، وعبدالله بن نافع الصائغ المدني (ت206هـ)، وغيرهم. وممن أكثر عنهم النقل من متأخري فقهاء المالكية: علي بن عمر البغدادي المعروف بابن القصار (ت398هـ)، ومحمد بن القاسم بن شعبان المصري المعروف بابن القرطي (ت355هـ).

ومن أمثلة إيراده لأقوال الفقهاء المالكية ما يلي:

«... أن سنة صلاتها في المسجد... لكن أصبغ، و ابن حبيب يخيران في صلاتها في المسجد أو الصحراء...»<sup>(1)</sup>.

وقال عند الكلام على تحويل الرداء في صلاة الاستسقاء: «وتحويله سنة قال بها جمهور العلماء، وقد أنكر التحويل جملة من لم تبلغه هذه السنة، وهو أبو حنيفة، وصعصعة بن سلام من قدماء علماء الأندلس على مذهب الشاميين، ولم يذكر في الحديث أنه حول غير النبي ﷺ وهو قول الليث ومحمد وأبي يوسف من أصحاب أبي حنيفة، وابن عبدالحكم، وابن وهب من أصحابنا...»<sup>(2)</sup>.

ح - نقل الاستدلال بعمل أهل المدينة والاحتجاج به، ومن أمثلة ذلك:

- قوله عند الكلام على قراءة البسملة في الصلاة: «...وحجة المالكية في الباب كله النقل المتواتر بالمدينة عن النبي ﷺ والخلفاء، والأئمة بترك قراءتها في الصلاة أول أم القرآن والسور...»<sup>(3)</sup>.

(1) ما سبق (339/3).

(2) ما سبق (313/3).

(3) ما سبق (275/2).

. وقوله عند تقرير الاختلاف في الاعتكاف هل يلزم أن يرتبط بالصوم؟: «لم يأت أنه اعتكف إلا وهو صائم، ولأن الله تعالى إنما ذكر الاعتكاف للصوم لقوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾<sup>(1)</sup>، ولأنه عمل أهل المدينة، كما ذكر مالك في موطنه...»<sup>(2)</sup>.

ط . ذكر سبب عدم أخذ مالك لبعض الأحاديث، مثل قوله في حديث إهلال عائشة رضي الله عنها: «اختلف تأويل العلماء في الكلام على هذا، فقال مالك ليس العمل على حديث عروة عن عائشة عندنا قديما ولا حديثا...»<sup>(3)</sup>.

وقد يكون السبب عدم بلوغه الحديث أو تأويله بالخصوصية ونحو ذلك<sup>(4)</sup>.

### ي . موقف القاضي من أدلة المخالفين

. إبطال احتجاجهم بها عندما يكون ذلك ممكنا، مثل قوله<sup>(5)</sup>: «...وأما حديث الحديبية فلا حجة للمخالف فيه ممن يجيز الاشتراك في (الدم) الواجب، وهم كافة العلماء إلا مالكا، لأنهم لم يجب عليهم شيء. قال مالك: «وإنما اشتركوا يوم الحديبية لأنه كان تطوعا».

وإن قائل قال: فلعل هذا الدم هو الواجب على المحصر في أحد القولين فالجواب أن منهم من لا يرى عليه دما، والشافعي وأبو حنيفة اللذان يرياناه . وهم معهم . لا يوجبون الاشتراك في الواجب إلا في دم المتعة...».

---

(1) سورة البقرة/187.

(2) ما سبق (4/150).

(3) ما سبق (4/262).

(4) ما سبق (3/313).

(5) ما سبق (4/400).

- تأويل الدليل وحمله على غير ما ذهب إليه المخالف، ومن ذلك قوله<sup>(1)</sup>: «...وهذا الحديث مما يحتج به من يجيز صيام النافلة بغير تبييت وإحداث ذلك داخل نهاره، ولا حجة لهم في هذا الحديث، إذ يحتمل أن سؤاله أولاً: «هل عندكم شيء؟»».

إما أنه ضعف عن الصوم فاحتاج إلى الفطر فسأل فلما لم يجد بقي على صومه، أو سأل عن ذلك وهو صائم ليعلم هل عندهم ما يحتاجه عند الإفطار...».

وقوله عند شرح حديث الذي مات محرماً فقال: «اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه، ولا تخمروا رأسه ولا تحنطوه، فإن الله يبعثه يوم القيامة مليياً»: قال القاضي: «هذا الحديث مما اعتمد عليه الشافعي في المحرم مات أنه لا يحنط ولا تغطي رأسه، وبه قال أحمد وإسحاق، وقال مالك والكوفيون والحسن والأوزاعي: إن المحرم يفعل به ما يفعل الحلال...، وتأويل الحديث عند من قال بخلافه أنها قضية في عين مخصوصة لا تعدى إلا بدليل»<sup>(2)</sup>.

- عدم الرد على المخالف في احتجاجه إذا كان بيننا، وهذا من إنصاف القاضي رحمته الله وعدم تعصبه، ومن أمثله قوله - عند شرح الحديث "تعجل صدقة عامين": «وبه يحتج عامة الفقهاء: أبو حنيفة والأوزاعي، والشافعي، وفقهاء أصحاب الحديث ومن وافقهم من السلف على جواز تقديم الزكاة قبل حولها بالكثير وتقديم زكاة عامين وأكثر، خلافاً لقول مالك والليث...»<sup>(3)</sup>.

---

(1) ما سبق (116/4).

(2) ما سبق (221/4).

(3) ما سبق (473/3).

ك . مخالفة القاضي للمالكية فيما صاروا إليه إذا كان الدليل خلافه، وهذا . أيضا . على عدم تعصب القاضي واتباعه للدليل، ومن ذلك قوله عند شرح حديث تحريم أكل السباع: «...وهذا الحديث نص في التحريم، وكان أصحابنا تعلقوا في الكراهة بقوله سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾ الآية<sup>(1)</sup>. وليس فيها ذكر السباع، وهذا فيه نظر لأنه إنما أخبر عن أنه لا يجد محرما إلا ما ذكر، وقد يمكن أن يوجد فيما بعد، وقد ذكر أن الحديث ورد بعد، لأن الآية مكية، وهو مدني...»<sup>(2)</sup>.

## 2 . المذهب الحنبلي

بالرغم عدم انتشار المذهب الحنبلي في بلاد المغرب والأندلس فقد اهتم القاضي بذكر فقه الإمام أحمد، مما يدل على سعة إطلاعه وحرصه على الإفادة والإثراء العلمي، وهو يعتبر الإمام . كما هو معروف . من فقهاء أصحاب الحديث، ويتبته أحيانا على ما اختلف فيه قول الإمام أحمد أو ما تفرد به، ومن أمثلة ذلك:

. قوله<sup>(3)</sup>: «...عامة فقهاء أصحاب الحديث: أحمد وإسحاق وأبو ثور وابن المبارك على جواز أكل لحوم الخيل...»

. وقوله<sup>(4)</sup>: «...مذهب مالك والشافعي وأصحاب الرأي وكثير من السلف أن الصوم أفضل . أي . في السفر، وذهب ابن المسيب، والأوزاعي، وأحمد، وإسحاق، وعبد الملك بن الماجشون إلى تفضيل الفطر...».

(1) ما سبق (367/6).

(2) سورة الأنعام/145.

(3) ما سبق (384/6).

(4) ما سبق (73/4).

- وقوله - عند الكلام على حكم اشتراط المعتكف الخروج لبعض الطاعات: «...وأجاز إسحاق والشافعي اشتراط ذلك في التطوع دون النذر، واختلف قول أحمد في جواز الاشتراط...»<sup>(1)</sup>.

- ومما ذكره من تفردات الإمام أحمد قوله<sup>(2)</sup>: «...ومذهب أحمد بن حنبل رحمته الله وجوب جميع التكبير في الصلاة، وعامة العلماء على أنه سنة غير واجب إلا تكبير الإحرام، ودليلهم تعليم النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي الصلاة ولم يذكر له فيها تكبير الانتقالات».

### 3 - المذهب الشافعي

كثرت عناية القاضي رحمته الله بإيراد فقه الإمام الشافعي وأصحابه، وكثيرا ما يذكر اختلاف قول الإمام في المسألة ومذهبه القديم والجديد ويشير إلى تفرداته، وقد يرد عليه في بعض المسائل، وقد يذكر فقه بعض أصحاب الشافعي وخاصة إسماعيل بن يحيى المزني (ت264هـ)، ناصر المذهب وحامل لوائه بعد الشافعي، ومن أمثلة ذلك:

- قوله<sup>(3)</sup>: «...الإمام الوالي ليس من شرط الجمعة كما قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق، وأبو ثور...».

- وقوله<sup>(4)</sup>: «...وقد كان المشركون يدخلون النبي صلى الله عليه وسلم في مسجده أولا كثيرا، وهذا مما يحتج به الشافعي في جواز دخول الكفار المساجد كلها، وقاله أبو حنيفة في أهل الكتاب خاصة. قال أبو حنيفة: «وكذلك الحرم ومسجده»، ومنع ذلك لجميعهم في الحرم ومسجده وسائر المساجد، وهو قول عمر بن عبد العزيز ، وقتادة، وقاله المزني...».

(1) ما سبق (4/156).

(2) ما سبق (2/266).

(3) ما سبق (3/243).

(4) ما سبق (6/98).



- وقوله في معرض الكلام على تكفين الميت :- ((...وجمهورهم على أن السنة للمرأة خمسة أثواب وأدناها ثلاثة، وقد اختلف فيها قول الشافعي، فقال: هذا مرة، وقال مرة: يجزئ ثوب واحد))<sup>(1)</sup>.

- وقوله عند الكلام على أحاديث تحويل الرداء في صلاة الاستسقاء :- ((...فيه حجة لمالك، وعامة العلماء أنه رد ما على اليمين على الشمال، كما جاء مفسرا في الحديث الآخر، وليس تنكيسه بقلب أعلاه أسفله وجعل ما يلي الأرض على رأسه وما على رأسه إلى الأرض كما قال الشافعي بمصر، وكان يقول بالعراق كقول الجماعة...))<sup>(2)</sup>.

- ومما ذكره من تفرداته قوله<sup>(3)</sup>: ((...وفي هذا حجة على الشافعي في إيجاب الصلاة على النبي ﷺ في كل صلاة - أي - في التشهد، وإن لم يفعل ذلك بطلت صلاته، وهو قول لم يقل قبله، وقد علمهم النبي ﷺ التشهد إلى آخره، ثم أباح لهم الدعاء بما أحبوا من الدعاء بعده، ولم يذكر الصلاة على النبي ﷺ، وقد خالف الشافعي في المسألة كثير من أصحابه...)).

#### 4. المذهب الحنفي

اهتم القاضي كثيرا بفقهِ أبي حنيفة، فيورد مذهب الإمام، ويورد مذهب صاحبه محمد بن الحسن، وأبي يوسف، واختلاف الحنفية فيما بينهم، وقد يسميهم أحيانا أصحاب الرأي أو الكوفيين، كما عني بالتنبيه على تفردات الإمام، وما اختلف فيه قوله، ومن أمثلة ذلك:

- قوله<sup>(4)</sup>: ((...اختلف أئمة الفتوى في حكم الجلوس بين الخطبتين مع اتفاقهم على كونه مشروعاً، فقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وجمهور العلماء: هو سنة. ومن لم يجلس أساء ولا شيء عليه، وخطبة واحدة تجزئ وتقام بها الجمعة، وقال الشافعي: هي فرض...)).

(1) ما سبق (390/3).

(2) ما سبق (319/3).

(3) ما سبق (411/2).

(4) ما سبق (257/3).

. وقوله عند الكلام على العدد الذي تجزئ به الجمعة إذا حضروا ثم  
فروا أثناءها : «... وكذلك اختلفوا إذا تفرقوا عن الإمام وهو في الصلاة  
على الخلاف المتقدم من اشتراط بقاء اثنين غير الإمام، وهو قول الثوري  
والشافعي، أو يجزئ بقاء واحد وهو قول أبي ثور، وحكى عن الشافعي، أو  
يجزئ الإمام وإن أتمها وحده، وهو قول أبي يوسف وابن الحسن، وقال  
أبو حنيفة: إن عقد بهم ركعة وسجدة ثم يفروا عنه أجزاءه أن يتمها جمعة،  
وإن كان قبل ذلك استقبل الظهر...»<sup>(1)</sup>.

. وقوله عند الكلام على حكم الفطر في صوم النافلة : «... وتختلف  
أصحاب أبي حنيفة، فمنهم من قال بقوله هذا، ومنهم من قال بقول  
الشافعي»<sup>(2)</sup>.

. وقوله عند الكلام على حديث زكاة الزرع : «... فظاهر هذا  
الحديث أخذ به أبو حنيفة فرأى إخراج الزكاة العشر ونصف العشر على ما  
تقدم من كل ما أخرجت الأرض... وخالفه عامة العلماء في ذلك على  
اختلاف بينهم في تفاصيله...»<sup>(3)</sup>.

## 5 . فقه أهل الظاهر

ضمن القاضي رحمته الله كتابه كثيرا من فقه الظاهرية، ومن أمثلة ذلك:

. قوله<sup>(4)</sup>: «... وقوله: "ثلاثة أحجار" تعلق داود بنص النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا  
يجزئ الاستجمار بغير الأحجار، وعامة العلماء على خلافه».

---

(1) ما سبق (260/3).

(2) ما سبق (116/4).

(3) ما سبق (467/3).

(4) ما سبق (32/2).

. وقوله<sup>(1)</sup>: «... واختلف في السفر الذي يباح فيه الفطر، فجمهور الفقهاء والسلف قبلهم على أنه في السفر الذي تقصر فيه الصلاة... وذهب داود، وأهل الظاهر أنه يفطر في كل سفر وإن قرب، وروى مثله عن بعض الصحابة».

## 6 . فقه أئمة لم يشتهر لهم أتباع

احتوى كتاب "إكمال المعلم" على فقه كثير من أئمة الفتوى ومشاهير علماء الأمصار الذين اعتمد العلماء فقههم وإن لم تنتشر مذاهبهم بين الناس حيث الأتباع وهم كثيرون منهم:

1 . إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، أبو ثور (ت240هـ)<sup>(2)</sup>.

2 . إسحاق بن إبراهيم بن راهويه المروزي نزيل نيسابور (ت238هـ)<sup>(3)</sup>.

3 . سفيان بن سعيد الثوري الكوفي (ت161هـ)<sup>(4)</sup>.

4 . عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت157هـ)<sup>(5)</sup>.

5 . الليث بن سعد الفهمي المصري (ت175هـ)<sup>(6)</sup>.

## 7 . فقه جماعة من الأئمة الآخرين:

عني القاضي بإيراد فقه جملة من متأخري العلماء من أهل المذاهب المختلفة، وذكر كثيرا من اختيارهم في المسائل الفقهية، ومنهم جماعة من شيوخهم، ومن أشهرهم:

---

(1) ما سبق (64/4).

(2) طبقات الفقهاء للشيرازي (92، 101)، والإكمال (31/2، 77، 119).

(3) الإكمال (126/1، 154، 238، 250، 272).

(4) ما سبق (46/1، 133، 134، 141) وطبقات للشيرازي (48).

(5) ما سبق (191/1)، (346/5)، (276/6).

(6) ما سبق (38/1، 150، 172، 190).

1. أحمد بن علي الرازي الحنفي، أبو بكر (ت370هـ)<sup>(1)</sup>.
2. أحمد بن محمد الطحاوي الحنفي، أبو جعفر (ت321هـ)<sup>(2)</sup>.
3. حمد بن محمد الخطابي الشافعي، أبو سليمان (ت388هـ)<sup>(3)</sup>.
4. سليمان بن خلف الباجي المالكي أبو الوليد (ت474هـ)<sup>(4)</sup>.
5. عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي، أبو محمد (ت386هـ)<sup>(5)</sup>.
6. علي بن عمر بن القصار البغدادي المالكي، أبو الحسن (ت398هـ)<sup>(6)</sup>.
7. محمد بن إبراهيم بن المنذر، أبو بكر النيسابوري (ت318هـ) وهو أحد الأئمة المجتهدين وإن كان معدودا في فقهاء الشافعية<sup>(7)</sup>.
8. محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، الإمام المجتهد (ت310هـ)<sup>(8)</sup>.
9. محمد بن القاسم بن شعبان المصري المالكي (ت355هـ)<sup>(9)</sup>.
10. يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري المالكي، أبو عمر (ت463هـ)<sup>(10)</sup>.

(1) ما سبق (1/142)، (2/602)، (3/10).

(2) ما سبق (1/112، 113، 115، 136).

(3) ما سبق (1/29، 139، 174، 179).

(4) ما سبق (1/41، 43، 74، 120، 143، 102).

(5) ما سبق (1/200)، (2/304)، (7/226)، (8/541).

(6) ما سبق (1/343، 368، 383).

(7) ما سبق (2/406، 455، 494)، (3/232، 331، 340).

(8) ما سبق (1/26، 27، 42، 116، 134).

(9) ما سبق (2/132، 166/261/412، 463).

(10) ما سبق (1/41، 43، 164، 369).

### ثالثا - فقه أهل البدع

أورد القاضي في كتابه جملة من آراء أهل الفرق المبتدعة في المسائل الفقهية، وذلك في معرض الرد والتضعيف والتنبيه على مخالفتهم، وهذا ما لا نكاد نجده لدى غيره إلا قليلا.

والفرق التي أورد بعض فقهاء هي الخوارج<sup>(1)</sup>، المعتزلة<sup>(2)</sup>، والرافضة<sup>(3)</sup>.

وقد ينسب المذهب إليهم على سبيل الإجمال كقوله<sup>(4)</sup>: «...ولا خلاف بين أئمة العلم في جواز الحج بالصبيان إلا قوما من أهل البدع منعه، ولا يلتفت لقولهم، وفعل النبي لذلك وإجماع الأئمة والصحابة يرد قولهم».

وقد يصرح باسم الفرقة، كقولهم: «...ولم يختلف علماء الأمصار في جلد الزاني البكر ورجم الزاني الثيب إلا ما ذهب إليه الخوارج وبعض المعتزلة: النظام وأصحابه من إبطال حكم الرجم».

### رابعا - عنايته بالتعريفات الفقهية

اهتم القاضي رحمته الله بشرح المصطلحات الفقهية، وذكر حدودها وتعريفاتها بحيث يقوم بالتعريف باللفظة لغة واصطلاحا، وهذا علم صنف فيه كثير من أهل العلم<sup>(5)</sup>.

(1) ما سبق (1/139، 142، 253، 297).

(2) ما سبق (1/119، 143، 144، 168).

(3) ما سبق (1/110).

(4) ما سبق (1/168).

(5) كشف الظنون (1/421).

ومن أمثلة ذلك عند القاضي قوله<sup>(1)</sup>: «الاعتكاف معناه: اللزوم والإقامة، ولما كان المعتكف ملازماً للعمل بالطاعة مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم، وهو في عرف الشرع: اللزوم على طاعة مخصوصة، ويسمى - أيضاً - جواراً».

#### خامساً - الاهتمام بذكر تواريخ فرض الفرائض

عني القاضي رحمته الله بذكر تواريخ فرض الفرائض، مثل الصلاة والزكاة والصوم وقد فصل القول في بعضها مما فيه خلاف مثل الحج والجهاد<sup>(2)</sup>.

#### سادساً - التنبيه على علة الحكم

عني القاضي رحمته الله بذكر العلل التي تدور عليها الأحكام الفقهية، وترتبط بها وجوداً وعدمًا، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله - عند الكلام على تحريم الحمر الإنسية: «واختلف العلماء في علة تحريمها بحسب ما جاءت به الآثار، فقيل: ... وقيل: خوف فناء الظهر والحمولة، وقيل لأنها كانت جلالة، وقيل هو نهي تحريم لغير علة»<sup>(3)</sup>.

- وقوله: «إنما هو أوساخ الناس» هو العلة في تحريمها عليهم... وقيل: إنما حرمت عليهم وعلى النبي عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى<sup>(4)</sup>: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾<sup>(5)</sup>، مخافة الذريعة للتهمة، وما أشار إليه في الحديث من العلة أظهر<sup>(6)</sup>.

(1) الإكمال (4/150).

(2) ما سبق (4/160).

(3) ما سبق (5/544).

(4) ما سبق (3/625).

(5) سورة الأنعام/90، سورة الشورى/23.

(6) ما سبق (3/629).

## سابعاً - التنبيه على ما نسخ من الأحكام

لقد نبه ﷺ على ما نسخ من الأحكام وترك العمل به، وما استقر عليه العمل وكان آخر الفعلين من رسول الله ﷺ، ومن أمثلة ذلك:

قوله عند الكلام على زيارة القبور<sup>(1)</sup>: «ولا خلاف في جوازها للرجال وأن النهي قد نسخ واختلف فيه للنساء».

- وقوله عند الكلام على طواف الورود<sup>(2)</sup>: «وتكذيب عروة أول الحديث وآخره لمن قال خلاف ذلك دليل على استقرار العمل به».

- وقوله عند الكلام على وضع علامة على الهدي ليعرف - وهو شعار -: «وقد أشعر النبي ﷺ آخر أمره»<sup>(3)</sup>.

## ثامناً - الإشارة إلى أصول وقواعد بعض الأئمة في تخريج أقوالهم

أشار ﷺ إلى أصول وقواعد بعض الأئمة في سياق تخريج أقوالهم ومذاهبهم، ومن أمثلة ذلك قوله - عند الكلام على الترجيع في الأذان: «وذهب أهل الحديث: أحمد، وإسحاق بن راهويه، والطبري، وداود إلى التخيير في الفعلين على أصلهم في الأحاديث إذا صحت واختلفت، ولم يعرف المتقدم من المتأخر في الفعلين، أنهما للسعة والتخيير»<sup>(4)</sup>، وذهب أبو حنيفة إلى فساده - أي - الاعتكاف بالإنزال كيف كان وقاله صاحبه على أصولهم في أن ما أفسد الصوم فسد به الاعتكاف».

(1) ما سبق (447/3).

(2) ما سبق (311/4).

(3) ما سبق (321/4).

(4) ما سبق (25/2).

## تاسعا - التنبيه على الإجماعات الفقهية

أكثر القاضي من ذكر الإشارة إلى الإجماعات الفقهية، وقد لاحظت أثناء التحقيق أن بعض الإجماعات التي ذكرها القاضي لا توجد في كتاب الإجماع لابن المنذر، ولا في كتاب مراتب الإجماع لابن حزم مما يرشح كتاب القاضي ليكون مصدرا في هذا الباب وهو في الغالب يسوق ذلك من عنده، وقد ينقل عن ابن المنذر أو ابن عبد البر أو الطبري.

ومن أمثلة ذلك:

- قوله<sup>(1)</sup>: «اختلفت الآثار واختلف العلماء بسببها في مقام الإمام من الميت، قال الطبري: وأجمعوا أنه لا يلاصقه...».

- وقوله - عند الكلام على زكاة التجارة: «وحكى ابن المنذر فيه الإجماع»<sup>(2)</sup>.

- وقوله<sup>(3)</sup>: «قال ابن عبد البر: أجمع العلماء أن ابتداء السلام سنة والرد فرض».

- وقوله<sup>(4)</sup>: «أجمعت الأمة أن المحرم لا يلبس ما صبغ بزعفران أو ورس».

---

(1) ما سبق (430/3).

(2) ما سبق (458/3).

(3) ما سبق (588/4).

(4) ما سبق (162/4).



عاشرا - التنبيه على سبب اختلاف الفقهاء وثمرته: ومن أمثلة ذلك

- قوله - في معرض الكلام على المحرمات إلى أمد، واختلاف الفقهاء في بعض التفريعات المتعلقة بذلك: «وسبب الخلاف في ذلك قوله تعالى (1): ﴿وَأَمَّهَتْ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمُوهُنَّ﴾ (2).

وهل هذا على النعت والتقييد راجع إلى النساء المذكورات آخرا أم عائد على المذكورات أولا وآخرا؟

والأرجح ما ذهب إليه الجمهور لوجوه منها أن استثناءات والشروط عند جماعة من أهل الأصول تعود إلى أقرب المذكورات، وكذلك أصل النحاة أيضا، ولأن العامل إذا اختلف لا يصح الجمع معه بين المنعوتات في نعت واحد وإن اتفق إعرابها، وهذا من ذلك...» (3).

حادي عشر - التنبيه على مخالفة بعض الأئمة لأصولهم

ومن أمثلة ذلك

وقوله - عند الكلام على أحاديث الولاية في النكاح: «ناقض داود في استعمال هذه الأحاديث أصله في موضعين فقضى بالمفسر منها على العمل على طريق الكافة، وترك ظاهر اللفظ على مذهبه وليس من أصله فخالف أبا حنيفة، ومن قال بقوله في البكر أنها لا يعقد عليها إلا الوالي

(1) ما سبق (546/4).

(2) سورة النساء/23.

(3) ما سبق.

لعموم قوله: «لا نكاح إلا بولي»، ووافقه في الثيب لظاهر قوله: «هي أحق بنفسها من وليها».

وأصله في مثل هذه الظواهر إذا تعارضت طرحها والرجوع إلى استصحاب حال الأصل قبل ورود الشرع، فهذا موضع واحد ناقض فيه أصله، والآخر أن مذهبه أن إحداث قول ثالث في مسألة الخلاف فيها على قولين خرق إجماع، وهو مذهب بعض أهل الأصول، وقوله هو هذا في التفريق بين البكر والثيب في اشتراط الولي في العقد وكونه ركنا من أركان صحة العقد في البكر دون الثيب قول لم يقله قبله غيره...»<sup>(1)</sup>.

وهكذا تبين لنا ثراء كتاب "الإكمال" في مجال الفقه، وسعة اطلاع القاضي في هذا الباب، وملكته النقدية العالية مع الموضوعية والإنصاف وعدم التعصب.



---

(1) ما سبق.

# أثر المذهب المالكي في أعراف الزواوة (فترة الاحتلال الفرنسي نموذجا)

الدكتور جمال كركار

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر

## مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط،  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين بشريعة  
شاملة محكمة أساسها الرفق بالعباد، وهدفها تحقيق مصالحهم في المعاش  
والمعاد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهم واهتدى بهديهم  
إلى يوم الدين.

أما بعد،

فأحاول في هذا الموضوع أن أبين أثر المذهب المالكي في أعراف  
الزواوة، فهذه المنطقة تناولتها بالدراسة أقلام كثيرة خاصة من قبل المستشرقين  
الفرنسيين، كـ"مارسل موران"، و"بوسكي"، و"هانوتو"،... وغيرهم.  
وإن أغلب الدراسات جردت العرف الزواوي من تأثير الفقه  
الإسلامي فيه.

ومن أهم المؤلفات:

1. القبائل والأعراف القبائلية، "هانوتو" و"لوتورنو".
2. المرأة القبائلية، روني فيجي (René vigier).
3. حياة البربر بالنصوص، أسان رو (Assène roux).
4. القبائل والشعب القبائلي، جوزيف دوقا (Joseph dugas).

- 5 . المرأة القبائلية أشغال وأيام، جنيفوا (Genevoix).
- 6 . الزواج البربري، جاك سيمون (Jacques simonne).
- 7 . المؤسسات القبائلية، ميو (Milliot).
- 8 . الديانة الإسلامية عند البربر، ألفرد بل (Alfred bel).
- 9 . منظومتنا القضائية في منطقة القبائل، سوران (Saurin).
- 10 . قبائل جرجرة والآباء البيض، جورج إلي (Georges Elie).
- 11 . القبائل الكبرى دراسة تاريخية، دوما (Daumas).
- 12 . القانون القبائلي، برنار لوك، (Bernard luc).

ويمكن القول إن الكتب التي ألفت في أعرف الزواوة من قبل الفرنسيين هي أكثر من أن تحصى، وقد جاءت تحت تسميات بربر، القبائل، جرجرة، أما لفظ الزواوة فهي تسمية خاصة بالمؤلفين المسلمين . فيما أعلم . .  
 نماذج لالتزام أهل زواوة بأحكام الشريعة وتأثرهم بالفقه المالكي في عاداتهم وأعرافهم

إن الكتاب الفرنسيين أنفسهم دونوا في مؤلفاتهم التزام أهل هذه المنطقة بأحكام الشريعة وتأثرهم بالمذهب المالكي، غير أنهم يقولون: إن أهل القبائل أقل التزاما بالإسلام من العرب.

والحقيقة خلاف ذلك، و"هانوتو" الذي استند إلى مؤلفه كل الكتاب الفرنسيين يؤكد قوة تغلغل أحكام الشريعة الإسلامية في المجتمع الزواوي، ويذكر أمثلة أذكر منها:

أ . ذكر "هانوتو" تقديس أهل القبائل لأحكام الشريعة، كإجراء عقوبات لمن يخالف أحكامها، كعقوبة من يخل بحرمة رمضان، أو يتناول محظورا كشرب خمر أو أكل جيفة، وتختلف العقوبة من قبيلة لأخرى، حسب القانون العرفي السائد فيها، ومنها ما جاء في قانون "آيت فراوسن"

أن الذي يتعدى على حرمة رمضان يدفع غرامة مالية، وجاء في نفس القانون أن من يبيع لحم دون ذكاة شرعية يعزر بعقوبة مالية، وهذه المخالفات الشرعية لا يخلو منها قانون لقرية من قرى زواوة، بعضها متعلق بالصلاة، والآخر بالصوم، والبعض بحالة الإخلال بالأخلاق العامة<sup>(1)</sup>.

ولقد اعتبرت مؤسسة "ثاجماعت" السن الذي يسمح به للانضمام إليها هو تمكن الشخص من صوم أول يوم في حياته، وهو يوم احتفال لدى الأسرة والقبيلة<sup>(2)</sup>.

ب - إن قوانين القبائل تتضمن عقوبات ضد الذين يأكلون أو يبيعون لحم الحيوانات غير المذكاة.

وأكد "هانوتو" في بحثه عن أعراف المنطقة أن القبائل لا يصنعون خمرا، ولا يجد شاربها بضاعته إلا عند الأوروبيين.

وأن الجاني الذي يتعاطى محرما كسرقة أو زنى أو خمر لا تقبل شهادته بسبب كبرته<sup>(3)</sup>.

ج - إن الاعتداءات التي تكون في المسجد أو إمامه هي مخالفات تلزم عقوبات مشددة تابعة لقداسة المكان عند أهل البربر، وإن صوامع المساجد التي ترى من بعيد هي مواضع فخر ومشاهد اعتزاز<sup>(4)</sup>.

د - يقول "هانوتو" في قبيلة امشدالن، يظهر في قانونها الالتزام بالشرعية الإسلامية في حكم الهبة في المادة 14 و15 تمنع مجاوزة الثلث في الوصية، وهو امتثال لقول النبي ﷺ: «الثلث، والثلث كثير، أو كبير»<sup>(5)</sup>.

(1) القبائل والأعراف القبائلية، هانوتو، 152/3.

(2) نفس المرجع، 189/3.

(3) مخطوط سيرة زواوة كاتب مجهول، ص 6، المكتبة الوطنية، الجزائر. رقم: 3012.

(4) انظر القبائل والأعراف القبائلية، هانوتو، 30 / 2.

(5) الحديث في البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، رقم 2592.

هـ - يثبت "هانوتو" استعمال القبائل لمد النبي ﷺ إذ يقول: المقياس عندهم - أي القبائل - أربع أمداد تساوي صاع النبي .

و - ويثبت اعتبار العمل بالمذهب المالكي في زكاة الفطر فيقول: القبائل يدفعون زكاة الفطر وهي من طعام البلد<sup>(1)</sup>.

والأمثلة التي ذكرها "هانوتو" كثيرة تؤكد تأثر أعراق أهل زواوة بالفقه الإسلامي عموماً وبالمذهب المالكي خصوصاً، وتفند دعاوى زعماء الاستشراق في تلك الحقبة، وهذه الحقيقة يذكرها الحسين الورثيلاني كما ذكرها صاحب كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي".

قال صاحب نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار في وصفه لأهل بجاية: «وبالجملة ففضل بجاية مشهور، وعلم أهلها مذكور».

قال الشريف التلمساني<sup>(2)</sup>: «دخلت بجاية في القرن الثامن فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها، فصرت أكتب في كل مسجد سؤالاً... وقد سمعنا أن بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة، وأما اللاتي يحفظن ابن الحاجب، فلا يحصي عددهن إلا الله تعالى»<sup>(3)</sup>.

ثم أثنى الشيخ الورثيلاني<sup>(4)</sup> على علماء زواوة بقوله: «ومنهم الأخيار والسادات الأبرار ساداتنا، وهم أهل سداد وصواب، وخدمة ربّ

---

(1) المرجع نفسه، 2 / 34.

(2) الشريف التلمساني: هو محمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسني، من أعيان المالكية له مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول وغيره، توفي ﷺ 771 هـ . 1370 م. تعريف الخلف 110/1.

(3) الرحلة، الورثيلاني، ص 28.

(4) الورثيلاني: هو الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني، رحالة، مؤرخ، فقيه، مال إلى التصوف، ولد ونشأ في قبيلة بني ورثيلان، من آثاره نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار. معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، ص 360، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1400 هـ . 1980 م.

الأرباب، أولو فضل وعلم وأدب وحلم، أنوارهم ساطعة، وأحوالهم مرتفعة، وضمائرهم خاشعة جملة وتفصيلاً»<sup>(1)</sup>.

قال الدكتور سعد الله في شأن اهتمام أهل زواوة بالمذهب المالكي: «وكان المختصر للشيخ خليل بن إسحاق هو عمدة المذهب المالكي في الجزائر في العقود المتأخرة، وهو متن مركز وعليه شروح عديدة، أشهرها شرح الخرشي، وقد عرفنا أن تدرّيس متن خليل وشروحه قد شاعت في القرن الثاني عشر للهجرة في زواوة أكثر من غيرها بعد أن أدخله إليها الشيخ الحسين بن أعراب.

ولكن مذهب الإمام مالك كانت له متونه وشروحه قبل ذلك، ومن أشهرها تحفة الحكام لابن عاصم، والمدونة لسحنون، والمختصر لابن الحاجب، والرسالة للقيرواني».

«وقد نادى أهل زواوة بتدوين القانون على أساس الكتاب والسنة، والمذاهب الإسلامية، شعباً وقضاة، ومن القضاة يحيى غرامو قاضي تيزي وزو، حيث كان قضاة الصلح الفرنسيون يستعملون العرف فقط، فطالب بالتدوين وتطبيقه على كل الجزائريين بقطع النظر عن المذاهب والأعراف»<sup>(2)</sup>.

وهذه الحقيقة قد أثبتها ابن زكري من قبل في كتابه "أوضح الدلائل" حيث قال: «إن القبائل وإن كثرت أفرادهم، واختلفت عوائدهم، وتباينت في الأغراض مشاربهم قد أجمعوا من حيث العقائد والدين، واتفقوا بالطبع على الخضوع والانقياد للمرابطين عموماً ولأهل الزوايا والمقدمين من مشايخ الطريقة خصوصاً وعلى تعظيم معابدهم والحرس على عمارتها وهي الزوايا المذكورة لأنها قبلتهم لن يتحولوا عنها»<sup>(3)</sup>.

(1) الرحلة، الورثياني، ص 37.

(2) تاريخ الجزائر الثقافي، د سعد الله، 528/4.

(3) أوضح الدلائل، ابن زكري، ص 106.

## هل صحيح أن العرف الزواوي تأثر بالقانون الروماني؟

### دعوى الأصول الرومانية لعرف منطقة زواوة

إن دراسة المستشرقين كانت في أغلبها ترمي إلى فصل عادات أهل زواوة وأعرافهم عن باقي المسلمين من أبناء هذا البلد الطيب، محاولين جذب سكان هذه المنطقة ودمجها في المشروع الفرنسي الهادف إلى تمسيح أهل المنطقة، وإبعادهم عن الأصول الإسلامية الثابتة في المجتمع الزواوي عقيدة وسلوكا ومنهاجا.

ومن كبار المستشرقين الفرنسيين الذين أكدوا على هذا المنحى، وكتبوا في هذا الشأن "روني مونييه René Maunier"<sup>(1)</sup> الذي ألف كتابا سماه "الأعراف الجزائرية" والذي حاول فيه بتعسف كبير ربط أصل أعراف منطقة زواوة بالأصل الروماني<sup>(2)</sup>.

يقول "مونييه": «إن البربر أقرب إلى الأوروبيين بسبب تكوينهم وبأعرافهم، وعلى الفرنسيين أن يندمجوا معهم، بتثقيفهم وفرنستهم، وهناك من يريد الاندماج».

ولقد بذل الكاتب جهودا مضنية في كتابه ملتصقا بجميع الطرق المؤدية إلى مراده، ومتعلقا بكل الوسائل التي تثبت بأن أعراف منطقة زواوة رومانية الأصل، واتبع في ذلك المدعى منهجا استقرائيا يثبت به التشابه التام بين أعراف زواوة والأعراف الرومانية.

---

(1) روني مونييه: خريج أكاديمية العلوم، كان أستاذا بجامعة باريس، نال جوائز على كتاباته في أعراف الجزائريين من قبل السلطة الفرنسية، من مؤلفاته: Coutumes Algeriennes, Paris, 1953.

(2) وانظر ما كتبه وارنييه، L'Algerie devant l'empereur, warnier, P27, Paris 1865



## أولاً: تشابه في طريقة السكن

رأى "مونييه" أن كل من الرومان وأهل زواوة يعيشون في مساكن على شكل مجموعات أو أحياء، وأغلب السكان هم من ذوي القرابة، وكلهم ينتمون إلى جد واحد، هو الجد العظيم الذي انحدرت منه جميع القبائل.

والملاحظ في هذا التشابه الذي ذكره "مونييه" في طريقة السكن أنه غير صحيح، فلم يثبت الكتاب الفرنسيون أن الرومان كانت بيوتهم تجمع بين سكن الأهالي ودوابهم، كما هو شأن أهل منطقة زواوة، بل نجد الكاتب يناقض مدعاه في نفس الصفحة، فيذكر اختلافات بينهما في طريقة السكن، وفي الاهتمام بالصناعة عند الرومان، والفلاحة عند البربر<sup>(1)</sup>.

## ثانياً: التشابه في قوامة الزوج الروماني و البربري

يذكر "مونييه" تشابهاً بين الأسرتين الزواوية و الرومانية في خصوصية القوامة المطلقة التي يتمتع بها الزوج في كلا الأسرتين، ثم يناقض مدعاه ثانية بقوله: «إن الأب البربري يتمتع بحقوق أكثر من الحقوق التي يتمتع بها الأب الروماني... والأعراف القبائلية القديمة، التي لم تدون، وكتبت منذ حوالي نصف قرن تحت تأثير الفرنسيين، والتي لم تنقل إلا عن طريق المشافهة، وعن طريق العادة الموروثة، فإنها تركت للأب كل الحقوق حق القرار قبولاً ومنعاً، وحق الدفاع، وحق العقوبة إلى حد الموت».

ثم يبيّن "مونييه" أن قوامة الأب الزواوي أوسع بكثير من قوامة الأب الروماني.

---

(1) Coutumes algériennes. p 26.

وهذه حقيقة سائتت من خلا لها أن الأسرة الزواوية ذكورية، فهي تعظم الذكر منذ الولادة، وتحتقر الأنثى ولا تعطي لميلادها أدنى قيمة. فالعرف الزواوي في هذا الشأن قريب من عرف الجاهلية.

### ثالثا: التشابه في حكم قتل المرأة الزانية

بالغ "مونييه" في التشابه بين الجنسين حتى أدى به الأمر إلى التقريب بينهما في الأحكام، ومن الأحكام التي ساقها لبيان رأيه، حكم المرأة الزانية، فاعتبر أن حكم الإعدام الذي تنفذه بعض القبائل هو حكم مستوحى من القانون الروماني.

قال في هذا الشأن: «وفي حالة الزنى فإن موت المرأة الزانية مسموح به، والقانون العرفي القبائلي يثبت، فإن قتل المرأة الزانية واجب، وكذلك عند الرومان».

### رابعا. زواج المرأة القبائلية "الزواوية" هو بيع

سار "مونييه" على نهج رجال القانون الفرنسيين مثبتا فرية أخرى على الأسرة في منطقة زواوة، مؤداها أن الزواج عند الأهالي هو بيع<sup>(1)</sup>، مثل ما حدث عند الرومان قبلهم بقرون، ووصفوا الزواج بأوصاف تجعل فيه المرأة الزواوية قريبة إلى البهيمة، وإلى عالم الأشياء، لأن من الكتاب الفرنسيين من جعلها شيئا، أو متاعا، بل منهم من نعتها وسمها بأسماء الدواب: كبقرة، ودجاجة، وأسماء أفضل عدم ذكرها لأنها لا تليق بمقام العوام، ناهيك عن أسماء معروفة من رجال قانون، وعلماء اجتماع. وهذه نقول من كتبهم:

---

(1) Coutumes algériennes, p 30.

قول مارسل موران<sup>(1)</sup>: «الزواج عند المسلمين هو بيع حقيقي»<sup>(2)</sup>.

- قول "مونييه": «عقد الزواج هو بيع، الزوج يشتري الزوجة، والقبائل المتخرجون من المدارس الإسلامية والفرنسية يفتخرون كون الزواج في القبائل هو بيع حقيقي»<sup>(3)</sup>.

وقال آخرون: لا نجد المرأة القبائلية إلا عبارة عن أداة للتلذذ للرجل، وأمة تشتري لتقوم بكل الأشغال<sup>(4)</sup>.

### خامسا: أن القبائلي يرفض تعدد الزوجات

قالوا عنه أنه يرفض ذلك، ويتعامل بالربا<sup>(5)</sup>، ولقد حاول الكثير من الكتاب الفرنسيين إثبات هذه الدعوى، كون أهل زواوة يرفضون حكم التعدد، ولا يقبلون إلا بعض الأحكام الشرعية كالصوم، فلا توافق بين أعراف المنطقة وبين الفقه الإسلامي، الذي نشأ في الحجاز، فحاجاته تختلف عن حاجات المنطقة، ومن الطبيعي أن يختار أهل زواوة ما يوافق أعرافهم<sup>(6)</sup>.

---

(1) مارسل موران: دكتور في القانون وأستاذ سابق ثم تولى منصب عميد بجامعة الجزائر، عرف بحملته على الشريعة الإسلامية، ودعوته للفصل بينها وبين العرف الزواوي، من مؤلفاته مجلته المشهورة في الفقه، دراسة مقارنة للفقه الإسلامي والقانون العرفي البربري، وله كذلك قوانين ميزاب، ودراسة الفقه الإسلامي والقانون العرفي الزواوي. انظر ترجمته في: تاريخ الجزائر الثقافي 28/8. وفي الرصيد المغربي بالمكتبة الوطنية بالجزائر له أكثر من عشرين مؤلفا في هذه المواضيع منها:

- Etude de droit musulman et de droit coutumier berbère
- Introduction de droit musulman
- Avant projet du droit musulman

(2) Etudes de droit musulman et de droit coutumier berbère, p135, Jules Carbonel imprimeur Alger 1931

(3) الأعراف الجزائرية، روني مونييه، ص 30.

(4) Grande Kabylie légendes et souvenirs, Arnant et Assezat, P91, Paris, librairie Léonvanier 1901,

(5) La Kabylie et le peuple kabyle, Joseph Dugas, page 93, Paris 1877.

(6) La grande Kabylie et ses problèmes, si Mohand ou Ramdane Kebaili, p27-30. Alger 1959.

والحقيقة في هذه المسألة أن التعدد غير منتشر كثيرا في المنطقة، أما انعدامه فغير صحيح، فالمرابطون يعددون، وهذا بشهادة المستشرقين منهم، وهذا ما أثبتته "هانوتو"<sup>(1)</sup> في "القبائل والأعراف القبائلية" وغيره ك"بوسكي".

ثم إن مخطوط "سيرة زواوة"<sup>(2)</sup> يثبت أن أهلها يعددون بغية الإكثار من الولد، فكثرة الذكور كانت تزيد في النصر و الغلبة، وإن قل التعدد لا يعني أن أهل المنطقة كانوا يعارضون الحكم الشرعي كما ادعى الكتاب الفرنسيون. وإن ظاهرة "الصف" وهي انقسام القبائل إلى صفوف في الحروب المتكررة، والتي كانت عادة غالبية على المنطقة لأسباب كثيرة ذكر ابن زكري جانبا منها في قوله: «... وذلك إن كانت أمورا خفية حسية، والسعي في أسبابها معرة باتفاق الشرع والعرف، وإلا فبعض وجوه الفساد ليس معرفة عرفا، بل شجاعة ومفاخرة، وإن كانت في حكم الشرع حراما، وذلك كالمحاربة والغيلة، وسفك الدماء، والنهب والغصب والسرقة، فهذه الحروب كانت هي الدافع الأول للإكثار من الرجال ولا يكون هذا إلا بالتعدد، والزواج المبكر الذي كان عرفا عندهم»<sup>(3)</sup>.

سادسا - أخذ أهل زواوة بالثأر، ورفضهم للدية

تمسك المستشرقون الفرنسيون بحجة أخرى لإثبات الأصل الروماني لأعراف وعادات المنطقة، فقالوا: إن المسلمين يتعاملون بالدية الثابتة في القرآن، أما القبائل فقد تأثروا بالعرف الروماني وهو الثأر من غير قبول لبديل آخر.

---

(1) أدولف هانوتو، (1814 - 1897) متحصل على شهادة عليا من المدرسة المتعددة التقنيات، في سن 31 سنة نزل إلى الجزائر وعين رائدا في ذراع الميزان، أهم مؤلفاته: القبائل وأعرافها. ترجمته في مقدمة كتابه.

(2) سيرة الزواوة، ص 5.

(3) أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل، ابن زكري، ص 105، مطبعة بيبير فونتانة، الجزائر، 1321هـ. 1903 م.

والثأر في سيرة زواوة واقع، لكنه ليس دليلاً على مدعى هؤلاء، الذين أطلوا في شرح ظاهرة "الرقبة" وهي طلب رقبة الجاني أو طلب رقاب من القبيلة المعادية.

ومن هذه الأقوال المنقولة من كتبهم:

قول "هانوتو": «إن العرف لا يسمح بإجراء الدية، هذا التعامل الإسلامي الذي يدفع ثمن الدم بالذهب، فإنه مرفوض عند قبائل جرجرة مسموح به استثناء عند جيرانهم بوادي الساحل، وإن دين الدّم لديهم لا يكون إلا بموت الجاني، فلا يكفي عندهم الضرب والجروح»<sup>(1)</sup>.

وإن مؤسسة "ثاجماعت" هي التي تقرر هذا العرف الفاسد، ولا تعاقب صاحب الثأر، والغريب أن "الرقبة" تكون حتى في القتل الخطأ، والحقيقة أن دفع الدية موجود عند قبائل عديدة ويتعامل فيها بحكم الشريعة.

سابعاً: رفض توريث الإناث

قال الكتاب الفرنسيون: إن القبائل يرفضون قوانين محمد ﷺ ويرفضون مصادمة القوانين العرفية القديمة، ويحافظون عليها مهما تعارضت مع تعاليم الإسلام، فالقرآن يعترف للنساء بحق الإرث والعرف القبائلي يرفضه، بل هناك بعض القوانين في مناطق من بلاد القبائل يجرون عقوبة مالية على من يعترف للنساء بحق الإرث.

هذا التعطيل جعله المستشرقون حجة على رفض الأحكام الشرعية من قبل القبائل الذين يبنذون تعاليم الإسلام، ويريدون البقاء على أصولهم الرومانية على حد زعمهم.

---

(1) القبائل والأعراف القبائلية، هانوتو، ج3/62، الطبعة الأولى، سنة 1893م.

## بعض أقوالهم في المسألة

قال "جورج إليي Georges Elie<sup>(1)</sup>: «في سنة 1750م حررت كل الجماعات محضرا وقرروا منع المرأة القبائلية من إرث الأراضي، لأنها ليست قادرة على استثمارها، وليس لها القدرة على الدفاع عنها».

ثم يعلل ذلك بالرجوع إلى الأصل العرفي القديم وهو عدم توريث الإناث، وتقديم القانون العرفي على نص القرآن. وقد ثبت هذا حقيقة في القوانين العرفية لأهل زواوة كالمادة الثانية عشر من قانون قبيلة امشدالن ينص على أن تقسيم التركات لا يجري حسب أحكام الشريعة الإسلامية<sup>(2)</sup>.

وحاول "دوقا Dugas<sup>(3)</sup> أن يصف القبائل بكل الصفات التي تجعلهم يردون أحكام الشريعة كقوله: إنهم يأكلون لحم الخنزير ولا يحترمون يوم الجمعة، بل يستريحون يوم الأحد، وأن المسجد عندهم هو أدنى بناء، وهو مكان للقلولة ومسكن للخفافيش، وأن القبائلي يفضل السفر من أجل العمل على السفر من أجل أداء مناسك الحج، وأنهم لم يهتموا بالقرآن، فليست هناك ترجمة إلى اللغة القبائلية، وأن طلبة القرآن يحفظونه دون أن يفهموا منه شيئا<sup>(4)</sup>.

والحقيقة أن كل هذه الدعاوى مغرضة، لتفصل أهل زواوة عن باقي مناطق الجزائر، فالكتاب الفرنسيون أنفسهم دونوا في سجلاتهم القضائية مدى احترام الزواوي للمسجد، فالقاضي الفرنسي يلجأ عند النزاع الذي يفتقد إلى بينات إلى تطبيق العرف، وهو قسم المتنازعين أمام المسجد،

(1) جورج إليي - هو إداري بمحكمة الجزائر انظر تعريفه المختصر في كتابه:

La Kabylie du Djurdjura et les pères blancs.

(2) القبائل والأعراف القبائلية، هانوتو 417/3 .

(3) مستشرق فرنسي اهتم بمنطقة القبائل من آثاره القبائل والشعب القبائلي انظر ترجمته في مقدمة كتابه.

(4) ينظر إلى كتاب دوقا p 93 au 99 La kabylie et le peuple kabyle .

وفي ذلك عند أهل زواوة أمر خطير، لعظمة المسجد في قلوبهم.

### ثامنا - حجّة مادية "الأثار"

رأى بعض الكتّاب أن وجود الصليب في بعض البنايات، وفي شكل الوشم الذي تستعمله المرأة القبائلية دليل على الأصل الروماني المسيحي للقبائل.

وهذه بعض الشواهد: قال "فرنسوا شرفاربه": «عندما زرت منطقة القبائل وجدت على أبوابهم علامة الصليب، وتعجبنا لذلك جدا، وكان هذا دليلا على أن القبائل كانوا مسيحيين»<sup>(1)</sup>.

### تاسعا - حجّة لغوية

لقد أثبت "رينان Renan" في كتابه "المجتمع البربري" حجة لغوية مفادها أن البربر لازلوا ينطقون الشهور حسب النطق الروماني، إذ يقول:

«إن أسماء الشهور اللاتينية هي نفس الشهور المنطوقة، والمستعملة حتى اليوم:

«Ineirm, Ibrair, Mars, Ibril, Mayou, Youniou, Youlyoux, Hocht, Choutembir, Khober, Nvambir, Foujambir»<sup>(2)</sup>.

وهذه الحجّة وغيرها من الحجج التي تصب في الوعاء اللغوي استندت إلى الفرضية التي تعيد الأصل العرقي للبربر إلى الأصل الروماني،

---

(1) انظر:

Revue Algérienne Tunisienne Marocaine de législation et de jurisprudence p 30 , jules carbonel , imprimeur Alger; 1931

(2) La Berbèrie, L'islam et la France, p 378, édition de L'union française paris 1950.

ولهذه الفرضية ما يدحضها<sup>(1)</sup>.



(1) الآراء المتعلقة بالأصل البربري:

الرأي الأول: وهو أن أصل البربر من اليمن: وتعزى هذه النظرية إلى الإمام الطبري الذي نص في تاريخه أن إفريقيش بن ذي المنار توجه إلى إفريقيا ففتحها وقتل ملكها، وأدخل معه لأول مرة اليمنيين، وبهذا الرأي قال الكلبي والمسعودي وغيرهما. انظر تاريخ ابن خلدون، 124.117/6، مراجعة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1408هـ. 1988م. وهذه النظرية قال بها أبو يعلى الزواوي في رأيه الثاني وهي رأي بعض المتأخرين كالمرحوم مولود قاسم والأستاذ عثمان سعدي وغيرهما. انظر الأمازيغ " البربر " عرب عاربة" عثمان سعدي، ص22.

قال أبو يعلى: ((فالزواوة إذن عرب مستعربة وعرب عربا بأصلهم المتقدم، ثم إن كثيرا من الأخلاق والعادات والطباع في البربر متماثلة وامتازجة بطباع العرب كاتخاذ البيوت من الشعر والوبر والطين والحجر والظعن والإقامة، وكسب الشاء، وحلق الرأس، والشجاعة، والكرم، والقوى، والانتجاع والارتياح، وركوب الخيل، وكسب النعم الإبل والبقر والغنم، إلى غير ذلك مما لا يكاد يستقرأ وكلها أحكام الاستعراب والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو جل شأنه سريع الحساب)). انظر: تاريخ زواوة، ص26.

الرأي الثاني: رأي ابن حزم وابن خلدون: قال ابن حزم في أصل البربر: ((قال قوم: إنهم من بقايا حام بن نوح عليه السلام، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير، وبعضهم إلى بن قيس عيلان، وهذا باطل لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس بن عيلان ابنا اسمه بن أصلا، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن)). جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ص495، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، 1382هـ. 1962م

ثم يرجح ابن حزم أن البربر من أبناء حام بن نوح، وبهذا يبطل الرأي الأول. وهذا الرأي تبناه ابن خلدون واعتبر القول الأول من الأخبار الواهية إذ قال: ((ومن الأخبار الواهية للمؤرخين، ما ينقلونه في كافة أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى إفريقيا والبربر من بلاد المغرب، وأن إفريقيش بن قيس بن صيفي من أعظم ملوكهم الأول، وكان لعهد موسى عليه السلام أو قبله بقليل، غزا إفريقيا وأثنى في البربر، وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم حين سمع رطانتهم وقال ما هذه البربرة؟)). نفس المرجع.

الرأي الثالث: وهي النظرية التي ترجع أصل البربر إلى أوروبا: وما أكده غير واحد من المستشرقين كرينان واستدلوا بأسماء الشهور والأماكن والقبائل كـ "بني فرواسن" أن أصل التسمية أوروبي. قال: وفيه آراء أخرى في الموضوع و ذكرها لا يناسب طبيعة البحث، لذا اكتفيت بما يخدم مقصدنا.



# المخطوطات المالكية

## في المكتبة الوهنية الجزائرية

د/عبد القادر أوقاسي

قسم علم المكتبات، جامعة الجزائر

### مقدمة

إن مكانة أي أمة من الأمم لا تقاس إلا بما تخلفه من آثار وإنجازات سواء في المجالات الفكرية أو العلمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفنية.

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الأمة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها لم تشذ عن هذه القاعدة، فما بقي شاهدا عليها من ناحية العمران لدليل على الرقي والازدهار الذي وصلت إليه، والأمثلة هنا كثيرة لا تحصى على غرار قصر الحمراء بغرناطة، وجامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، وقلعة دمشق وغيرها كثير.

أما في المجال العلمي فإن الأمة الإسلامية، وهي أمة "اقرأ"، انطلقت من هذا المبدأ وكرست الأولوية للعلم والعلماء، فبنيت المدارس والجامعات، وتنافس الحكام في تقريب أهل العلم وتشجيع البحوث والترجمة إلى اللغة العربية والاستفادة من علوم الأمم السابقة، وكان لصناعة الورق دور ريادي في انتشار الكتب ونسخها، فأسست المكتبات وألحقت بالمدارس والقصور والمساجد يرتادها القراء للاستفادة من كنوزها التي تنوعت ما بين العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتطبيقية، فكانت بحق مرآة عاكسة للمستوى المرموق الذي وصلت العلوم في الحضارة الإسلامية.

و يقدر بعض الباحثين ما خلفته هذه الحضارة من مخطوطات ما زال موجودا إلى اليوم بثلاثة ملايين مخطوط في شتى المواضيع، موزعة بين دول العالم في مكباتها ومساجدها ومراكز الأبحاث فيها وهذا الرقم الضخم يغني عن كل تعليق.

و الجزائر لم تشذ عن هذه القاعدة، رغم ما عانته من ويلات الاستعمار الذي دمر وأتلف الكثير من مخطوطاتها خلال حملاته على مدنها وقراها، وما وصل إلينا رغم قلته إلا أنه يعكس ثراء ما كانت تحتويه مكباتها من إنتاج فكري متنوع.

و سنحاول من خلال هذه المداخلة إبراز بعض مخطوطات الفقه المالكي ضمن مجموعة المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية<sup>(1)</sup>.

### المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية

تعتبر المكتبة الوطنية الجزائرية أقدم مؤسسة ثقافية في الجزائر، حيث أنشئت عام 1835م بمبادرة من الحاكم المدني للجزائر Genty De Bussy. وعين على رأسها في 13 أكتوبر 1835م السيد Adrien Berbrugger، كما كانت تحتوي على متحف أيضا، وانتقلت ما بين عدة مقرات حتى استقرت في مقرها القديم في شارع فرانز فانون في 1958م وفي مقرها الجديد بالحامة ابتداء من 1 نوفمبر 1994م تاريخ تدشينها الرسمي، وقد

(1) انظر:

- مخطوطات المؤلفين الجزائريين بالمكتبة الوطنية الجزائرية (فهرس فانيان): دراسة تحليلية/ إعداد عبد القادر أوقاسي، إشراف عباس صالح طاشكندي، الجزائر: 1997، 592 ق، ماجستير: علم المكتبات والتوثيق: 1997.  
- الإنتاج الفكري الجزائري المخطوط في المكتبة الوطنية الجزائرية: دراسة تحليلية للمخطوطات التي لم تشملها أدوات الضبط البليوغرافي/ إعداد فتيحة بونفيخة، إشراف عبد اللطيف صوفي، الجزائر: 1999، ماجستير: علم المكتبات والتوثيق: 1999.

افتتحت أول مصلحة للقراء بالحامة يوم 16 أفريل 1996م وهي مصلحة  
"المخطوطات والمؤلفات النادرة".

و فيما يلي بطاقة فنية عن هذه المصلحة:

- المساحة: 1620م<sup>2</sup>.

- عدد المقاعد: 44 مقعدا.

- طاقة استيعاب المخازن: 88740 مجلدا (3000 متر طولي)

أهدافها ووظائفها

- المحافظة على المخطوطات.

- إثراء الرصيد عن طريق الشراء أو التبادل أو الإهداء.

- تقديم خدمات للباحثين تتمثل في توجيههم وتقديم خدمات  
التصوير سواء على الميكرو فيلم أو الأقراص المدمجة، بالإضافة إلى توفير  
العديد من المصادر والمراجع الضرورية لأبحاثهم.

- فهرسة المخطوطات بغرض إنجاز فهرس شامل لمخطوطات  
المكتبة الوطنية الجزائرية بالإضافة إلى فهرس الكتب والمطبوعات النادرة  
ووضعها تحت تصرف الباحثين.

ويبلغ حاليا رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية من المخطوطات 4230  
مخطوطا، أقدمها مقطع من القرآن الكريم كتب على الرق يعود إلى القرن  
3هـ/ 9م تحت رقم 2329، إضافة إلى ما هو موجود على شكل  
أقراص مدمجة (3000مخطوط) وميكرو فيلم (373 مخطوطا)

المخطوطات المملوكية بالمكتبة الوطنية الجزائرية

لا يمكننا في هذه العجالة أن نحصي كل المخطوطات المملوكية  
بالمكتبة الوطنية لكثرتها كعناوين أو نسخ، بل سنقتصر على إبراز بعضها  
مع إعطاء أرقامها تيسيرا على الباحثين الراغبين في الاستفادة منها.

و فيما يلي قائمة بها:

- التفريع المختصر في الفقه، لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري (المتوفى في 378هـ/988م) تحت رقم 1036، وقد نسخ عام 842هـ بخط مغربي.

- الرسالة في الفقه المالكي، لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (المتوفى في 391هـ/1000م)، تحت رقم 1037 وتوجد نسخ عديدة من هذا المخطوط بالمكتبة.

- تحرير المقالة في شرح الرسالة لأحمد بن محمد بن عبد الله القلشاني تلميذ ابن عرفة (المتوفى في 863هـ/1459م) والذي تولى القضاء بتونس والخطابة بجامعة الأعظم، وقد نسخ هذا المخطوط عام 873هـ وكتب بخط مغربي، ورقمه 1047.

كما توجد عدة شروح أخرى للرسالة على غرار شرح عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني تحت رقم 1049، وكفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأبي الحسن علي المالكي تحت رقم 1051، وتنوير المقالة في حل ألفاظ الرسالة، لإبراهيم بن خليل التتائي تحت رقم 1062 وغيرها.

- مختصر ابن الحاجب في الفروع تحت رقم 1074.

- التوضيح في شرح مختصر ابن الحاجب، لخليل بن إسحاق الجندي والذي يقع في نسخ تحمل الأرقام من 1077 إلى 1084.

- مختصر خليل بن إسحاق الجندي، وهو المختصر المشهور والمتداول بكثرة في الجزائر، تحت رقم 1088، كما توجد منه نسخ كثيرة بالمكتبة.

وهناك العديد من شروحه نذكر منها: شرح بهرام الدميري تحت رقم 1121، وفتح الجليل في حل ألفاظ جواهر درر خليل للتتائي تحت رقم 1137، ومواهب الجليل في شرح مختصر خليل لأبي عبد الله محمد

ابن عبد الرحمان الحطاب تحت رقم 1155، وشرح مختصر خليل لأحمد ابن علي العمروسي تحت رقم 1249.

- المبسوط في الفقه، لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفه الورغمي التونسي تحت رقم 1273.

- القضاء بالمرفق والمباني ونفي الضرر، لعيسى بن موسى بن أحمد التطيلي تحت رقمي 1/1292 و6/1298، وهو في فقه العمران.

- فرائض الحوفي، لأبي القاسم أحمد بن خلف الحوفي الكلاعي وهو العالم بالفرائض تحت رقم 1311.

- انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام الكبير مالك لأبي عبد الله محمد بن محمد الأندلسي الغرناطي تحت رقم 1354.

- منتخب الأحكام، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمين تحت رقم 1368.

- حاشية على تكميل المنهج إلى أصول المذهب، لأحمد ميارة السجلماسي تحت رقم 2035.

- مسائل فقهية لابن القاسم تلميذ مالك، تحت رقم 2159. وهذا المخطوط جلب من القيروان أثناء الحملة الفرنسية ويظهر أنه نسخة وحيدة نسخت في جمادى الأولى 423هـ/1031م على الرق.

- شرح المختصر في الفروع لابن عبد السلام تحت رقم 2180 والمنسوخ عام 880هـ.

- كتاب تهذيب مسائل المدونة، لأبي سعيد خلف بن علي بن أبي القاسم الأسدي البرادعي تحت رقم 2269.

- جملة كتب من المدونة لسحنون بن سعيد التنوخي نسخت في الأواخر من شهر رجب سنة 531هـ، ومكتوبة على الرق تحت رقم ح 13 (ضمن مكتبة بن حمودة بالمكتبة الوطنية الجزائرية).

## مخطوطات الفقه المالكي للمؤلفين الجزائريين

بعد ذكر بعض مخطوطات الفقه المالكي بالمكتبة الوطنية الجزائرية، فلا بد أن ندرج إسهام علماء الجزائر في هذا المجال من خلال مخطوطاتهم المحفوظة بالمكتبة خاصة وأن رصيدها يشمل ما تم جمعه في فترة الاحتلال الفرنسي من مختلف مناطق الوطن إضافة إلى ما تم اقتناؤه بعد الاستقلال.

وقد تم التطرق إلى مخطوطات الجزائريين بالمكتبة الوطنية الجزائرية من خلال رسالتي ماجستير<sup>(1)</sup> نوقشتا بجامعة الجزائر.

و في هذا الإطار يمكن ذكر الأمثلة التالية:

- الأرجوزة التلمسانية في الفرائض لإبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله ابن موسى الأنصاري التلمساني (المتوفى في 690هـ/1291م) والتي لم يؤلف في فنّها أحسن منها تحت رقمي 1/149 و 1/1317.

- شرح المنظومة التلمسانية في الفرائض لعبد الرحمن بن يحيى المغيلي العصنوني الذي كان حيا في 816هـ/1413م، تحت أرقام 3/871 و 1318، 1319، 1320.

- المنزع النبيل في شرح مختصر خليل وتصحيح مسائله بالنقل والدليل، لأبي الفضل محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق الحفيد (المتوفى في 842هـ/1439م تحت رقم 1136).

- تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، لمحمد ابن أحمد بن قاسم العقباني (المتوفى في 871هـ/1467م)، وهو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت رقم 1353.

---

(1) اعتمدنا في إعداد هذا البحث على فهرس المخطوطات وقوائم الجرد والسجلات الخاصة بمخطوطات المكتبة الوطنية الجزائرية إضافة إلى كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي لتحديد تواريخ الوفاة ورسالتي الماجستير المشار إليهما سابقا.

- المقرب المستوفي في شرح فرائض الحوفي، لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني (المتوفى في 895هـ/1490م)، وهو شرح الحوفية في الفرائض، تحت رقم 2/1450. وقد ألفه وعمره 19 سنة مما جعل شيخه الحسن أبران يطلب منه إخفاءه حتى لا يصاب بالعين حتى يكمل سن الأربعين.

- جامع الأمهات في أحكام العبادات لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي (المتوفى في 875هـ/1471م) تحت رقم 583. وقد كتبت هذه النسخة عند صلاة الظهر 17 ربيع الأول 861هـ أي في حياة مؤلفها، وهو في حدود معلوماتنا غير مطبوع<sup>(1)</sup>.

- إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك لأحمد بن يحيى الونشريسي حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة العاشرة للهجرة. (المتوفى في 914هـ/1508م) تحت رقم 2/975، وقد حقق هذا المخطوط من طرف أحمد بو طاهر الخطابي لنيل شهادة الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية بالرباط في العلوم الإسلامية، وقد طبع بالرباط عام 1400هـ/1980م.

- المعيار المعرب والجامع المغرب على فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب للونشريسي السالف الذكر أيضا تحت أرقام 1338 - 1341، وهو مطبوع.

- التيسير والتسهيل في ذكر ما أغفله الشيخ خليل من أحكام المغارسة والتوليج والتصيير أو التصريح والتسريح في ذكر أحكام المغارسة والتصيير والتوليج لعبد الرحمان بن عبد القادر المجاجي (المتوفى بعد 1096هـ/1685م) حفيد سيدي أحمد بن القاضي الزواوي شيخ جبل كوكو في منطقة القبائل تحت أرقام 1307، 1/1308، 1309، 1310، 2612،

---

(1) يعتني به الأستاذ موسى إسماعيل في إطار تحضير أطروحة الدكتوراه في كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر.

2778 وقد حققه الطالب بوشمة خالد في كلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر للحصول على شهادة الماجستير<sup>(1)</sup>.

. فتح الجليل في شرح مختصر خليل لمحمد الطالب التلمساني (من أهل القرن 12هـ/18م) تحت رقم 2084.

- الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق الإمام ابن عرفة الوافية، لأبي عبد الله محمد بن قاسم الرصاع (المتوفى في 894هـ/1489م) المولود بتلمسان، والذي تولى القضاء بتونس والخطابة والإمامة بجامع الزيتونة وتدرّس الفقه والعربية والإفتاء آخر أيامه<sup>(2)</sup>.

#### خاتمة

إن هذه الإطلالة السريعة على بعض مخطوطات الفقه المالكي بالمكتبة الوطنية الجزائرية ومنها لبعض علماء الجزائر الذين أسهموا في هذا المجال هي جزء صغير مما تحويه من المخطوطات المالكية والتي وإن طبع بعضها أو حقق في إطار دراسات أكاديمية، إلا أن المجهود المبذول لا يفي بالغرض وهو التعريف بالفقه المالكي وأعلامه ونفص الغبار عن الكثير من المؤلفات التي لم تطبع بعد أو هي بحاجة إلى تحقيق ونشر وفق القواعد العلمية الحديثة.

كما نلاحظ أن هذه المخطوطات تنوعت بين مختلف القرون فمنها التي تعود إلى مرحلة تأسيس المذهب المالكي، ومنها التي تعود إلى علماء متأخرين، وهذا يدل على أن مكاتب الجزائر كانت غنية بمصادر المذهب على مر القرون مما أهلها لأن تلعب دورا تنويريا وتعليميا يليق بمهمتها العلمية.

كما شملت هذه المخطوطات مختلف مناحي الفقه كالعبادات والمعاملات والفتاوى والنوازل مما يدل على ثرائها العلمي.

---

(1) صدر عن دار التراث ناشرون الجزائر، دار ابن حزم بيروت، ط1: 1426هـ. 2005م.  
(2) حققه الدكتوران محمد أبو الأجفان، والطاهر المعموري، وطبع في دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1: 1993م.



## التوصيات

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،  
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد،

ففي ربوع ولاية عين الدفلى المضيفة، التي احتضنت أهل القرآن،  
وهم يحيون بنسمات ذكرى مولد النبي الكريم سيدنا محمد ﷺ، المفعمة  
بأريج يوم العلم التي دأبت الجزائر على إحيائه اعترافا بفضل أبنائها  
وعلمائها وعلى رأسهم الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمة الله عليه.

وفي مظلة الأسبوع الوطني التاسع للقرآني الكريم الذي سنه فخامة  
رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، وما زال يكلؤه برعايته منذ تسع  
سنوات إكراما منه للقرآن وأهله، بإشراف وزارة الشؤون الدينية والأوقاف.

استضافت ولاية عين الدفلى أيام "الثامن والتاسع والعاشر ربيع  
الثاني 8 . 9 . 10 ربيع الثاني 1429هـ الموافقة 14 . 15 . 16 . أفريل  
2008 الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي تحت عنوان:

### «المذهب المالكي ما بعد مرحلة التأسيس»

وبمناسبة هذا الملتقى المبارك يرفع المشاركون أسمى آيات الشكر  
والعرفان والامتنان لفخامة رئيس الجمهورية على ما عود عليه أهل القرآن من  
حسن رعاية، وعظيم اهتمام. والشكر لمعالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف  
الدكتور بو عبد الله غلام الله على حرصه الدائم لإنجاح مثل هاته التظاهرات  
العلمية. والشكر موصول أيضا لوالي ولاية عين الدفلى السيد عبد القادر  
قاضي، على ما أولى ضيوف هذا الملتقى من إكرام وحسن ضيافة وحفاوة  
استقبال، ولإشرافه الشخصي على فعاليات هذا الملتقى.

وفي ختام هذا الحدث العلمي يوصي الملتقون بما يلي:

- 1 . التعريف بالمدارس الفقهية المالكية المختلفة، والاستفادة من مناهجها المتكاملة، وتشجيع البحوث العلمية التي تعنى بها.
  - 2 . الاعتناء بالمدرسة الفقهية الجزائرية من حيث نشأتها وتطورها وخصائصها .
  - 3 . إحياء التراث الفقهي المالكي المدوّن في مرحلة ما بعد التأسيس بتوفير الآليات والهياكل الضامنة لتحقيق ذلك.
  - 4 . الحرص على أن تستفيد المناهج التعليمية والتكوينية في جميع أطوار المراحل الدراسية من المرجعية الفقهية المالكية.
  - 5 . العناية بالدراسة الوظيفية للفقهاء المالكي استجابة لاحتياجات المجتمع، التشريعية، الاجتماعية والاقتصادية
  - 6 . متابعة توصيات الملتقيات السابقة والتأكيد على ما يأتي:
    - أ . الاعتناء بالدّرس الفقهي المسجدي في المذهب المالكي بأسلوب علمي ميسر، يفي بالغرض المطلوب، والاستعانة بالكفاءات العلمية المتخصصة.
    - ب . دعم المكتبات المسجدية والعامة بمصادر الفقه المالكي ومراجعته.
- وأخيرا يجدد المشاركون شكرهم لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة على رعايته السامية لأشغال هذا الملتقى داعين الله عز وجل أن يسدل عليه رداء العافية، حتى يكمل مسيرة البناء والتنمية التي تهفو إليها نفوس أبناء هذا الوطن، وأن يوفقه لما فيه خير البلاد والعباد.
- كما نسأل الله تعالى أن يكلل أعمال هذا الملتقى بالنجاح والخير والفائدة
- وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



## فهرس المحتويات

### • تقديم

الدكتور بوعبد الله غلام الله، وزير الشؤون الدينية والأوقاف.....3

### • كلمة الافتتاح

السيد عبد القادر قاضي والي ولاية عين الدفلى.....7

### مدرسة العراق المالكية: النشأة والخصائص

الدكتور محمد عيسى.....11

### المدرسة المالكية العراقية في مرحلة ازدهارها

الدكتور يحيى سعدي.....31

ملامح من المدرسة الفقهية المالكية المصرية في ضوء التوسع  
والانتشار (الإمام القرافي (ت 684هـ - 1285م) أنموذجا)

الدكتور عبد القادر به عنوز.....49

### انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب

الدكتور خير الدين سيب.....59

### المدرسة الفقهية المالكية بالقيروان: نشأتها وتطورها

الدكتور محمد الرايس.....79

### القاضي أبو بكر بن العربي وإسهامه الفقهي

الدكتور وثيق به مولود.....89

ثورة الفقهاء وأسباب سيادة المذهب المالكي بالأندلس

105..... الدكتور حوالمف عكاشة

ملائم الحياة الفقهية في عصر السعديين

129..... الدكتور محمد أو إدير مسنان

الإمام المازري والمنهج الفقهي ومسائله الفقهية

165..... الدكتور التواتي به التواتي

مع موسوعة القاضي عياض "إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم"

229..... الدكتور محمود مغراوي

أثر المذهب المالكي في أعراف الزواوة (فترة الاحتلال  
الفرنسي نموذجاً)

259..... الدكتور جمال كركار

المخطوطات المالكية في المكتبة الوهنية الجزائرية

273..... الدكتور عبد القادر أوقاسي

281..... التوصيات

283..... فهرس الموضوعات

